أحمد طيباوي

باب الوادي

رواية

دار الشروق

ضفائر
t.me/twinkling4

باب الوادي

أحمد طيباوي

الطبعــة الأولى ٢٠٢٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

ISBN 978-977-09-3846-1

دار الشروقـــــ

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

إلى محمَّد جعفر..

سحابة من الأقدار

أمطرت كل هؤلاء التعساء..

١

وجد كمال الباب مواربًا ففتحه، وكان الآخر بانتظاره.. وللحظات، وقف مرتبكًا أمامه. لم يكن النور كافيًا ليتبيَّن هيئته جيدًا، فجعل يمعن النظر فيه ويتفحَّص وجهه، وكاد يمدُّ يده ليلمسه ويتأكد من أنه حقيقي، لكنَّ صوتًا من داخله أخبره بأنَّه هو. بدا له عفيًّا برغم عمره الطويل، أحبَّ ذلك، لو وجده شيخًا ضعيفًا لكان انتقامه منه سيكون غير أخلاقي. نسي ذلك أثناء وقوفه، وراح يحثُّ عاطفته أن تخرج، كلمات ودموع وصراخ وغضب، أو أيُّ سلوك آخر، إلا أن يبقى جامدًا ينظر إليه. يهدأ فضوله فجأة، أو يصل حدَّ الإشباع المنتظر منذ زمن بعيد. الشيخ الواقف مثله ساكنًا لا يتحرك هو والده، والتيار الذي يمرُّ منه إليه قويٌّ مع أنه لا يدرك طبيعته. الأمر جليل مهما كان للتقبُّل المتبادل بينهما أن يكون سريعًا. لن يحدث العكس، ما لا يحتاجه أبدًا هو أن ينفر منه، رغم أن مآخذه عليه لا تُعدُّ. العبرة بالنهايات وقد عثر عليه أخيرًا، كيفما سيكون القادم بينهما فإنَّ قلبه سيهدأ، وسوف يأنس به في الأيام الباقية.

رأى على شفتيه ابتسامة، وهو ينتظر منه أن يبادر، لكن خيال الرجل تلاشى من أمامه وبقي الباب مفتوحًا على العتمة. يخفق قلبه وينتابه حزن العالم كلُّه، ثم يفتح عينيه ويغمضهما، يائسًا يكرر المحاولة أكثر من مرَّة. يريد أن ينعم به لوقت أطول ويعانقه، ثم يقول له كلامًا كثيرًا. غضبه

كبير، لكنه لا ينوي أن يحقد عليه، لم يبقَ في عمر أبيه ما يكفي للعتاب. أخذته سنة من النوم، ثم أفاق وبقي بين بين، شعر بوحشة وهو يفتح عينيه ولا يجده، وتأكَّد بأن خياله كان يتلاعب به، ويورثه خيبة الأمل كما في كل مرَّة يلتقيان فيها.

عاش حياته يطارد والده في الحقيقة وفي الأحلام.

القلق عدو قديم للنعاس. أفاق كمال برأس ثقيل ولم ينم جيِّدًا، أمسى قلبه معلَّقا بالغد، وبات يرجو أن يصنع من ضلع الليل أمنية يحققها الصباح. وصل منهكًا من السَّفر، وعاش قبل ذلك مرارات كثيرة. وقف أمام المرآة، كانت ملامحه متعبة، ووجهه يحتاج لأكثر من الرُّكون إلى النَّوم كي يشرق من جديد. سحب رجليه في الغرفة وتحرَّك فيها كي ينشط بدنه، ثم رفع نظره إلى ساعة الحائط التي أشارت إلى التاسعة إلا بضع دقائق.

ليس ممَّن يمشون وفق مواعيد مضبوطة، لولا أن لقاءه بعبد القادر بن صابر قد يرسم أقدارًا ويمحو أخرى، لم يكن في مقدوره إلا أن يأمل ذلك، وليحسب الأيام والساعات آملًا وخائفًا. كم مرة انتظر شيئًا مهمًّا وخاب ظنه؟ لا يحصي خيباته، حصاده منها كبير، وماضيه إجمالًا غير جدير بالندم، وعزاؤه أنه سيقترف الانتظار من أجل شيء يستحق هذه المرة.

أزاح الستار عن النافذة، وتسرَّب ضوء خفَّف من

عتمة الغرفة. تمطر دون توقف تام منذ وصوله بالأمس إلى مدينة ليون. حالة الطقس تعزز النزوع نحو الكسل، والشارع الجانبي الذي يطل عليه الفندق فارغ من البشر، بينما تقف الأشجار العجوز على جانبيه تحت مطر ينزل منهمراً مرَّة، ووديعًا مرَّة أخرى. الوقت مبكر والأحد يوم عطلة هنا. كان الصَّمت يلف المكان كلَّه، كأنها دقيقة حداد على شيء لم يعرف ما هو تمامًا. صمتٌ يشبه ذاك الذي كان سائدًا في الأرض قبل أن تبدأ عليها الحياة وتكسر أبديته.

نزل في فندق متواضع، كل شيء فيه من خشب، وتحافظ صاحبته على أصالته وطرازه القديم. يقدِّمون إفطار الصباح فقط، وعليه أن يتدبَّر أمره في بقية اليوم. بدأ يهيئ نفسه للخروج من الغرفة، وهو يتمنى ألا تطول به الإقامة فيه. مرَّر يده على وجهه، ذقنه شائكة، سيحلقها، ولن يكتفي بتشذيبها كما تعوَّد أن يفعل دائمًا. يجب أن يبدو أمام عبد القادر بن صابر بمظهر لائق. سيلتقي بأهم رجل يمكن أن يراه على الإطلاق، وهذه فرصته ليفكَّ عقدة حياته.

لا يبالغ في تقدير أهميته، وسيكون حكمه عليه نهائيًّا بعد أن يتكلم معه. وصل ظهر الأمس، وهو يزور فرنسا لأول مرة، ومدينة ليون رائعة ولها تاريخ، يعرف هذا من الإنترنت ليس إلا، لكنه لا ينوي أن يكتشف ذلك بنفسه، إذ ليس في جيبه ما يخوِّله إلى أن يتحوَّل إلى سائح،

كما أنَّ همَّه أن يقابل الرجل ليسأله عن أبيه.

استبعد الاحتمال الأسوأ بأن يقضي جزءًا آخر من حياته في مسارات وهمية. لن تعبث أمه بمشاعره وهي على سرير الموت، ولن يتآمر عليه خاله يحيى ليزيحه من حياته مهما اعتبره عبئًا ثقيلًا عليه. طلب عبد القادر بن صابر في الهاتف قبل مجيئه وهاتفه لا يرد، لا يعلم السبب. أراد أن يؤكد معه الموعد فلم يستطع، ومع ذلك قرَّر المجيء وإنفاذ الأمر، ربما يكون محبطًا قليلًا لكن لديه من القوة ما يكفي أن يكبت إحباطه. لم يبع له عقله الوهم ولا وقع في الاستسهال، ولا يتصور أن بحثه عن جذوره في مدينة لا يعرفها، ولا يعرف فيها أحدًا، سيكون نزهة أو تخفيفًا عن الخاطر.

أكمل الحلاقة وهمَّ بأن يستخرج من الخزانة ثيابًا لائقة، والسؤال يحيِّره، من يسأل وأين يجد رجلًا لا يملك سوى رقم هاتفه وهو لا يردُّ؟ فور هبوطه في المطار اشترى شريحة وحاول الاتصال به لتحديد موعد اللقاء، ثم بعث له برسائل كثيرة على رقمه دون جدوى. لم يلبث بعدها طويلًا حتى رن هاتفه، ووجد امرأة من الجهة الأخرى تخاطبه بصوت محايد بعد أن ألقت تحية باردة، دون أن تقدم نفسها أو تعتذر عن تركه معلقًا: «سيكون أبي في انتظارك بعد ساعة..»، وقطعت المكالمة مباشرة، ثم لحظات وصلته رسالة على هاتفه فيها عنوان مقهى على ضفة نهر الرون.

طيلة شهرين قضاهما تائهًا وضائعًا بعد تصالحه مع خاله يحيى، شعر أنه مثل طائر بلا أجنحة. الإنسان ضعيف، وعندما يخونه الحظ والمال يصبح أضعف من أن يواجه أيَّ شيء. البكاء لا يفيد، وهو لا يتقنه، كما أن عليه أن يستبشر بالقادم. تكفيه نقوده ليمكث أسبوعين، ولن يطيل البقاء في الفندق، اقترح عليه خاله يحيى صديقًا له، أعطاه عنوانه، ونصحه بالذهاب عنده قائلًا: عمي عيسى سيساعدك.

رأى كمال خاله الوحيد بضمادات لا تزال تدعم أنفه المهشم، وبشفتين مضمومتين، بدا شيخًا، وطبيب الأسنان تأخر في تحضير طقم آخر يعيده لسنِّه الحقيقية. أشفق عليه قليلًا، وندم على أنه تمادى في عقابه، ومع ذلك اعتبر أنَّ يحيى كان ضحية نفسه.

لا يحبُّه خاله، لا برهان جديدًا يطلبه على ذلك، رغب في أن يبعده قدر ما يسمح به الظرف. ستأخذه الغربة وينسى أمر أبيه.. هكذا توقع كمال أن يقول في نفسه ساعة تركه، ومع ذلك احتفظ بعنوان عمي عيسى، أما الآخر فجادل أخته فطيمة، بعد انصرافه، في جدوى ما تقوم به، أنت تعذبينه وتجعلينا نحمل وزره إلى الأبد، وأكمل يقول:

كان يجدر بكِ أن تخبريه بكل شيء، مرَّة واحدة، لتكون أختك فتيحة أكثر ارتياحًا في قبرها.

لام يحيى نفسه دائمًا لأنه طاوع أخته الراحلة، جعلته

يصدِّق قصة ملفَّقة، وعندما اكتشف كذبتها كان الوقت قد فات لتدارك أي شيء. وبعد وفاتها أصبح يرى أن الظرف مناسب للتراجع عن خطيئة اشترك في ارتكابها والتستُّر عليها الجميع.

عفا عنه خاله بدافع المصلحة الراجحة، وقد سعى صديقه نبيل في ذلك دون أن يخبره. كان عليه أن يدفع ثمن اعتدائه عليه، ويتلقى يحيى الثمن بأن يبقى الإرث معلقًا إلى حين، وكمال بالأخص مقصيًّا سوى من الانتفاع به. تصالحا، وقدَّم له اعتذاره فقبل منه، وقلبه مستودع أسرار لا تنتهي. سُرَّت خالته فطيمة إذ سيعود إليها، وارتاح يحيى من قلق أن يباع البيت، ويُقسَم ثمنه على ثلاثتهم. عندما يأتي الوقت المناسب، يكفي أن يحضر القسمة هو وفطيمة، أما كمال فلا حقَّ له معهما.

كان يسعى لذلك، وأعطاه كمال المبرر عندما ضربه. السنوات والمحن التي مرت على يحيى لم تكن بلا نتيجة، فقد أكسبته حسن التدبير، وبفطنة المؤمن قرر أن يسامحه، لم يكن مدفوعًا بعاطفة لما فعل ذلك، لكنه سامحه. سيتخلى عن كل شيء، ويهجرهم دون رجعة، عندما يعرف حقيقة أصله ومنبته. كان يحيى على يقين من ذلك، يعرف عناده ولذلك جعل يدفعه إلى المكاشفة الكبرى. ماتت فتيحة ودفناها معًا، لكن أبطال الحكاية ما زالوا أحياء، ينعمون بالعافية والذاكرة، والرغبة في التكفير.

حاول نبيل إقناع يحيى، لكنه رفض في البداية أن

يسحب شكواه ضد كمال، انتصارًا للذات ورفعًا لسقف المطالب فقط، أما الفكرة فقد أتت على هواه. قصده عدة مرات، وكان يجده في المسجد غالبًا، سأله أين يختفي كمال، وتوعَّده أمامه بالسجن إن عاد.

كان يحيى يعرف أن الشكوى ستنتهي إلى غرامة وعقوبة غير نافذة، وذلك لا يحقق مراده. فهم نبيل مزاج الرجل، ولم يقل شيئًا. أتاحت له مهنته أن يكون خبيرًا في التعاطي مع تلك العينة، ويراها شفافة تمامًا، ولم تخنه خبرته وحدسه في موقف تفاوض مع أمثاله أبدًا.

بدا يحيى عازمًا على النيل من ابن أخته، ولمَّا رأى نبيل آثار الضرب، عرف أي درجة من الغضب أوصله إليها. تجنَّب أن يسأله مباشرة عن سبب الخلاف، وعندما أظهر أمامه شهادة طبية عليها ختم وتوقيع طبيب شرعي، سيقاضيه على أساسها، لم يبتئس بما سمع منه.. توالت اللقاءات بينهما ويحيى لم يكن صندوقًا مقفلًا بالنسبة إليه، وقد وافق في النهاية تحت تهديد مضمر بإعادة استخراج ملفه الأمني القديم.

كان على كمال أن يخضع للأمر، تفهَّم نبيل تمرُّده في البداية موقنًا برضوخه آخر المطاف. طلب منه البقاء معه في الشقة حتى تتصافى نفساهما هو وخاله، لكنَّه عزم على الرجوع، مبديًا له العرفان على كل ما صنع من أجله. لا يحب أن يبدو مهزومًا على أكثر من صعيد، يستطيع على الأقل الدخول والخروج من البيت، ثم يستعيد روتين

حياته الأولى، ويفرض على يحيى منطقًا معاكسًا.

ترك يحيى كمال طفلًا وغاب لسنوات، ولما عاد وجده شابًّا مختلف الطباع، يدخن ويقرأ كثيرًا. اقترح عليه أن يحضر معه الدروس في مسجد يرتاده، ووضع بين يديه أشرطة وكتيبات الدعوة، لكن سرعان ما اكتشف أن ابن أخته دنيوي حتى النخاع، ليس من المغرمين بالآخرة، ولا يشغله الغيب وما قد يحدث فيه. لم يعد صبيًّا يمكن أن يرغمه على مرافقته للمسجد وحضور حلقات العلم. ضاع أثناء سنوات غيابه في الجبل كل الجهد الذي بذله في تنشئته عندما كان صغيرًا، وقال لفتيحة وفطيمة إنَّ ابنهما انحلَّ أخلاقيًّا، وجعلتاه بتساهلهما فاسقًا.

يعتني يحيى بقص الشارب، عافيًا عن لحية يعالج أحيانًا شيبها المبكر ببعض الحنَّاء، ويحافظ على العبادات ويعامل الناس بما أمر الله، لكن ليس بسذاجة العهد الأول. ينتمي إلى جيل التائبين عن يوتوبيا دينية أحرقت البلاد لعشرة أعوام كاملة، وما زال يؤمن بأحقية ما قام به، قال كمال لنبيل يحدثه عنه. لا يتخلص المرء من أوهامه بسهولة، وسوء التقدير قد يكون حالة ملازمة لعقل مسجون داخل أفكاره. ما زال ناقمًا على نظام أهلك العباد ونهب الأرزاق، ويذهب ليصلِّي في مسجد يعمره من تبقَّى من قادة جبهة الإنقاذ المحظورة، والمتعاطفون معهم، جماعة الأوفياء لنهج الشيوخ.

يعرف أن الأمور قد ذهبت به، وبالجميع تقريبًا، بعيدًا،

وانفلت زمام الفعل من الكل، لكن الالتزام له أحكامه عليه. يستعيد مع رفاقه القدامى النازلين من الجبل، بخيبة أمل كبيرة، نضالهم الذي خلَّف الدم والرماد، ويترحمون على من ماتوا في المعتقلات، أو قضوا في مواجهات عنيفة مع الجيش.. ثم يُسِرُّ إليهم بأنه لولا الخيانة والظروف الصعبة لكانوا يعيشون الآن في ظل دولة إسلامية، أما أولئك فيستعبدون الناس باسم الجهاد ضد فرنسا والحصول على الاستقلال.. هل كان الاستقلال ليأتي لولا نصر الله وتوفيقه للشعب المؤمن كله وليس لهم وحدهم؟

إن الله لا يخذل المؤمنين أبدًا، وإنما يؤجل النصر وفق ما تقتضيه حكمته. كان في البداية يكرِّر عليهم ذلك، فيؤمِّنون على قوله، طلبًا للبراءة من جهاد مشوب بحب الدنيا وطلب السلطان، ثم اكتفى الجميع من الكلام بأقلِّه، ومن الحكمة بصمت العاجزين، وهم يرون أن الزمن قد تخطاهم.

لا يمكن لأحد أن يتخيل ما مرَّ به رجل مثله. لم تكن مجرد محن صغيرة يتكفل بها الصبر ثم الزمن. شقوق الذاكرة يمكن أن تتسرب منها يومياته وروتينه الأخير، أما وقائع معتقل «رقَّان» وسجن «البرواقية»، وسنوات الجبل، فعصية على النسيان وراسخة أبدًا. من لم يُؤذَ في الإسلام فمشكوك في دينه.. ومن لفظته الدنيا كان من أهل الآخرة، وهو مطمئن لآخرته، وبشارة المؤمن كثرة الابتلاء. نزل عليهم بلاء عظيم. كان الحراس ينهالون

عليهم بالضرب، وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم، نصيباً يومياً مفروضًا، ويستبيحهم الجوع والخوف والذباب الأزرق ورائحة الخراء في قاعة صغيرة رطبة وعفنة، تتكدس فيها أجسادهم كجثث حية، وعليهم أن يتغوَّطوا ويتبولوا في نصف برميل صدئ ملقى أمام الباب.

لشد ما قاسى يحيى مع آخرين في سبيل حلم أزهر، وبدا تحقيقه ممكنًا، بعد أن هدى الله الشعب وعرف طريقه، فمنحهم بأصواته الأغلبية في الانتخابات، ثم وجد نفسه شبه وحيد، مع آخرين أيضًا، يغالب ظنه مكابرة فقط بأنه أصبح لا شيء، مائعًا وماديًّا، ويسبِّق سوء النية في التعاطي مع الناس، بعدما خذلهم ذلك الشعب نفسه وتركهم لقمة سائغة للعسكر.

مات من مات من أولئك الآخرين، ومن بقي حيًّا منهم فيتاجر في القمصان والمصاحف وأعواد السواك في الأسواق، وعلى أرصفة تغصُّ بشباب مولعين بالسراويل الممزقة، وحلاقة الشعر على منوال غريب، أو يبيع ألبسة نسائية داخلية، ويتواعد مع بعضهن في مخزن المحل، أو يتلمس أردافهن ويغشاهن ببصره، وقد أصبح غضُّ البصر عادة قديمة لا يمارسها.

استفاد من قانون الوئام المدني الذي أقرَّه الرئيس بعد استفتاء شعبي نهاية عقد التسعينيات. ألقى مع أصحابه السلاح ونزلوا من الجبال مقابل العفو الشامل. عاد كهلًا، بلا زواج، يحاصره الماضي. تغيرت الظروف والناس،

وسنوات غيابه لم تترك شيئًا في البلد على حاله. لا أحد يبالي بأحد أو يحمل فكرة أو يحاول أن يبني حلمًا. يتردد على مسجد الجماعة، وفي نفسه يقين بأن الماضي قد صار ماضيًا بالفعل، ويسخر ممن يذهبون للجهاد في سوريا بزعم محاربة الطاغوت ونصرة المسلمين.

تزوَّج من أخت أمير جماعته في جبال جيجل، عائلات بأكملها كانت تعيش في الغابات المنيعة، ورأى كيف أن أصحابه كانوا يودون لو يغيب عنها ليتخذوها فريسة سهلة. امرأة على خلق ودين، كانت تطيعه في كل ما يأمرها به. أنجبت له طفلة بإعاقة ذهنية، وعندما نزلوا من الجبال طلَّقها أخوها منه، بقي يعتبره أميره ويمين البيعة معلق في رقبته. كان من ماضٍ يجب أن يُمحى، لذا لفظوه وحرموه من طفلة أراد أن يفاوضهم بها.

سمع بعدها أنهم أصبحوا من الأثرياء، وطليقته زُوِّجت لمقاول ممن أثرَوا بعدما فتحت الدولة خزائنها للناهبين، وصار يراها تسوق سيارة فاخرة، وترتدي جلابيب ملوَّنة ونظَّارات سوداء. أما الأمير فارتمى في أحضان من كانوا يحاربونهم بالأمس، وأصبح نجمًا تلفزيونيًّا تتسابق القنوات على استضافته، شاهده مؤخرًا في إحدى الحصص يتحدث كرجل مشبع بالحكمة وشيء من الندم القليل، محاولًا إظهار يقينه بعدالة قضية لم يعد يؤمن بها أحد. أدرك كم كان هو وأمثاله مخدوعين ومختطفين، وفهم أن الإسلام في القلب والباقي لا شيء.

في السهرة الأخيرة مع نبيل قبل سفره إلى فرنسا، حدَّثه كمال طويلًا عنه، ناقمًا ومشفقًا عليه، لا يكرهه لكنه لا يحبه في صورته التي وصفها له.. كان خاله من القليلين الذين وضعوه في تناقض مع نفسه يكره أن يقع فيه.

أما خالته فطيمة فوجدت نفسها تفقدهم الواحد تلو الآخر. فتيحة ماتت، وكمال سافر، وسيبقى ضالًا تعبث به هواجس قديمة إلى مدى غير معلوم، ويحيى سيسكن خارج العاصمة، ويحضر ابنته المعاقة وسيتزوج، ولن يبيعوا البيت. كان هذا ضمن اتفاق الصلح الذي رأى كمال أنه ضحية له رغم عفو خاله عنه. ستعيش وحدها وسيعود حرمانها ليستقوي عليها بغيابهم جميعًا، وهو أولهم، بعدما خانت الأمانة آملة أن يملَّ من البحث فيعود إليها وتأنس به.

أدَّت نصف واجبها نحوه، أبلغته وصية أمه، لكن ببعض التصرف. سيكتشف لاحقًا بأن تصرفها ذاك مضلِّل وصادم. لم تستطع أن تذبح قلبها لكي تثبت لله بأنها تؤدي الأمانة على وجهها، كما ينبغي لامرأة تخاف حسابه وعقابه. أضعفت عاطفتها إيمانها، ولم تصدِّق الرؤى الساطعة، تجاهلتها كأنها أضغاث أحلام. أعطته مبلغًا من المال، لتؤلف قلبه على قلبها أكثر، فأحرز منها ما أغناه عن العمل لشهور طويلة أو استجداء خاله أو نبيل أو آسيا.

تواطأ يحيى مع فطيمة في تصرفها الشنيع - المضلِّل والصادم - مرغمًا، كان يفضِّل أن ينتهي كل شيء دفعة

واحدة، لكنها ناشدته أن يوافقها ويتكتم على ما تخفيه عن كمال، على أن يخبره الرجل بكل شيء إذا أراد.

إنه ابن قلبي يا يحيى.. قالت له، راجية منه ألا يحرمها منه مرة واحدة.

وافقها رحمة بها، ولأن النهاية التي يريدها بدت له حتمية مهما كانت الطريق المؤدية إليها. يعرف أن الرجل سيخبره بكل شيء ليريحه ويرتاح.

قبل يوم من السفر ذهب وودَّعهما، ورأى خاله سعيدًا برحيله، آلمه ذلك وإن كان يتوقعه. جلس معهما، وتبادل مع خالته فطيمة كلامًا عامًّا، انتظر أن يقول له يحيى أيَّ شيء، لكنه بقي صامتًا أغلب الوقت. رأى كمال أنه ما زال يحمل له الحقد في صدره، ونظرته أبعد ما تكون عن الحب، وظهر أنه لم يسامحه إلا من وراء قلبه.

اعتبر أن تلك هي المرة الأخيرة التي يراه فيها. لم يُظهر أيَّ نوع من الشفقة عليه، وإن حمل له بعض التعاطف بداخله. لن يدَّعي يحيى بأنه كان يحبه، وفي المقابل سيكون كاذبًا إن قال إنه يكرهه تمامًا. كبر كمال أمام عينيه، وما زال يحتفظ له ببعض الذكريات الجميلة. لو أطاعه قليلًا لاتخذه هو الآخر ابنًا له.

الأقدار تحكم مصائر الناس ولا يبدو لإرادة الفرد معها أي أثر. كان التآلف بينهما ضعيفًا، وقد قام بمحاولات جادَّة لاستمالته وإصلاحه، فشلت كلها بسبب عناد كمال

وطباعه، أو لأنه كان يفتقد الصدق والعزيمة لفعل ذلك وجعل العلاقة بينهما صحية.

فات أوان كل ذلك، فكَّر في علاقتهما، لا يشعر بأي ندم أو تقصير، ورأى أنها كانت محكومة بالفشل والصدام حتى لو لم يغب في تلك السنوات، ليعود ويجد أمَّه وخالته قد أفسدتاه تمامًا. ستتعوَّد فطيمة التي قضت ليلتها الأولى بعد سفره تبكي بلا توقف على غيابه، كأنَّه لم يكن بينهم لستة وثلاثين عامًا كاملة، فقدت فتيحة وبعدها رحل كمال. الزمن كفيل بأحزانها المتتالية، وإن كان يحيي يعلم أنها عندما تحبُّ ترصد كل عواطفها واهتمامها لمن تحبُّهم، وسوف تحتاج إلى وقت طويل حتى تتعافى من آثار الغياب.

تذكَّر يحيي مواقف صعبة جمعته بكمال الذي حطَّم كبرياءه أكثر من مرَّة. لا ينسى يوم عاد ثملًا، أقام عليه الحدَّ وطرده، ثم تعايش مع حقيقة أن ابن أخته الذي تربى في بيته، ويعيش معه، يشرب الخمر، ويزني مع تلك المطلقة المفتونة به، وقد تجرَّأ يومًا وأحضرها معه إلى البيت. كان المنكر ظاهرًا أمام عينيه، وهو يتعامى عنه كأنه لا يراه، ولم يستطع تغييره بيده ولا بلسانه حتى في حدود بيته. من أجل ذلك تحديدًا، حاسب نفسه كثيرًا، وسوف يكون عليه أن يستغفر الله إلى يوم يلقاه.

كانت التأشيرة هي العقبة الكبرى دون سفره. عاد كمال صاغرًا إلى الهاشمي دبُّوز، صاحب شركة استيراد العجلات

الذي ترك العمل عنده بسبب فساده. زعم وقتها بأنه مجبر على تقديم رشاوى للجميع حتى تسير أموره، فلم يصدِّقه، وادَّعى الطهارة أمامه وغادر. ساعده صاحب الشركة رغم ذلك عندما ذهب إليه وحكى له قصَّته. حرَّر له شهادة عمل في مؤسسته، فقدَّم ملف طلب التأشيرة مشفوعًا بها، بزعم أنَّ الشركة سترسله إلى فرنسا لإتمام صفقة استيراد بعد المعاينة التي كلَّفه بها.

أشار عليه نبيل بذلك، ولم يكن له بديل عنه. ذهب إليه من غير موعد، ووضع في حسابه أن يرفض الرجل مقابلته أو يطرده. انتظر دقائق حتى خرج أحدهم من عنده، وسمحت له السكرتيرة بالدخول. شابة جميلة حلَّت محله في العمل. اعتذر كمال من ربِّ عمله السابق عن فظاظته معه آخر مرَّة، تلعثم وهو يحدِّثه، ولحسن حظه كان الهاشمي دبُّوز رجلًا برغماتيًّا ومجرِّبًا، ولا يحب الشماتة في الآخرين، فأعفاه من التذلُّل.

ـ أنت لا تعمل عندي الآن، وشهادة العمل التي تطلبها مني ستكون مزوَّرة.

قال يحدثه، ثم سكت للحظات وطرح عليه هذا السؤال:

ـ هل كل ما يمنعه القانون هو غير أخلاقي بالضرورة؟

لم ينتظر إجابته، وأكمل:

ـ بالتأكيد لا، دائرة القانون ودائرة الأخلاق تتقاطعان، لكنهما غير متطابقتين.

حكى له الهاشمي دبُّوز أنه عندما أسس شركته هذه لم يكن يعرف عن إدارة الأعمال شيئًا، فذهب وسجَّل في دورة تكوينية مكثفة بالمدرسة العليا الجزائرية الفرنسية لإدارة الأعمال، علمونا أشياء كثيرة، قال له، لكن ما علق بذهني وأعجبني فعلًا هو أنَّ كل قرار أتخذه يكون خاضعًا لجملة من العوامل أو الظروف، وليس هناك قرار أمثل في كل الظروف، فالقرار الذي أتخذه يتغير حسب الظروف أو عوامل الموقف.. هذه تسمى الموقفية.

سكت ليرى أثر كلامه عليه، ثم ختم يقول بنبرة تعليمية:

ـ الموقف هو الذي يحكم القرار.. يا عزيزي.

خرج من عنده وقد جبر خاطره، ثم رجع بعد يومين، وكان ما طلبه فوق مكتب السكرتيرة. وعرف أنَّ بعض المآزق يصعب الخروج منها بالالتزام بالإطار المثالي. هتكُ المعايير قد يقدِّم أحيانًا حلولًا استثنائية وعاجلة. وعلَّمه الهاشمي دبُّوز كيف أن تقسيم البشر إلى ملائكة وشياطين مضلل وبعيد عن الحكمة، دون معرفة الظروف أو المواقف التي كانوا فيها.

وقال له، وهو يناوله شهادة العمل المزورة التي ختمها له:

ـ في مواجهة المشكلات.. ما من طريق أمثل وحيد محدد سلفًا، يجب أن تكون المعيارية أو المثالية في الحدِّ الأدنى، ومن الأفضل ألَّا يكون هناك أي تنميط للواقع، لأنه يعيق تيار الحياة، ولا بد من تجاوزه يومًا.

عانى كمال في سبيل جمع النقود الضرورية للسفر. تكاليف التأشيرة، وتذكرة الطائرة، والمال الذي يحتاجه هنا.. باع خاتم أمِّه من أجل ذلك، وكان ثمنه دون المطلوب بكثير. علم من فطيمة أنه خاتم زواج فتيحة، ورثته عن جدَّته، والدتها الحاجة زاهية، التي لم يرها أبدًا حتى في صور. أورثته فتيحة بدورها الخاتم، والتيه الذي يعيش فيه. ذهب به عند صاحب محل للمجوهرات في حيِّ باب الوادي، عاينه الرجل، وقدَّره جيِّدًا. ذهبٌ صافٍ تمامًا، حتى ما نستورده ليس دون شوائب مثل خاتمك هذا، سمعه يقول له، ورغم ذلك عرض عليه ثمنًا أدنى مما توقعه إذا أراد بيعه.

لم يعلم الرجل الممتلئ عن آخره ما الذي يعنيه له الخاتم، والمبلغ الذي سيقبضه، إذا باعه، وأكمل يقنعه بأن يبيعه إياه، لن يعرض عليك مجوهراتي ثمنًا أعلى، ختم يقول ليحفزه. كانت نظراته مريبة ولا تمنح الثقة في كلامه. قال له كمال إنه سيأخذ رأي صاحبته أولًا، ثم غادر ليقصد محل ذهب آخر. طاف نصف يوم على صاغة آخرين، وشرح لهم حاجته للمال، فلم ينل منهم شيئًا وكان استجداء عبثيًّا، ثم عاد إلى الرجل الممتلئ عن آخره وقبِل بعرضه مكرهًا. خرج من عنده بعد أن دسَّ حزمة النقود في جيبه، وهو يفكِّر كيف يبتذل المال قيمة الأشياء ورمزيتها.

أشفقت فطيمة في البداية أن تعطيه إياه. أوصت أمه

بأن يقدِّم كمال ذلك الخاتم مهراً لزوجته، كانت تتمنَّى أن تفرح به وبأولاده. يذكِّرها بوالدتها الحاجة زاهية، من بقاياها القليلة، وتعتقد أنه فأل خير على من لبسته في خطبتها. لن تكون مرتاحة في قبرها وقد باع الخاتم، لكنها ضريبة أخرى تدفعها نظير الحيرة التي تركته يعيش فيها ورحلت.

امتهن كرامته كثيرًا، ولم يترك تقريبًا أحدًا ممن يعرفهم لم يقصده ليقترض منه في تسوُّل مفضوح، حتى إسكندر ابن صاحبة المرقد تضامن معه. ذهب إليه ليسأله عن آسيا، لا يعرف ما الذي كان يريده منها، شعر بحاجته إليها وأراد أن يراها قبل السفر. كان يعرف بالتأكيد أنها امرأة قوية العقل والقلب، تلك التي احتملت وغدًا مثله، رغم تصرفاته الخائبة معها. سوف تهاجمه إذا رأته، لكنها ستؤازره في النهاية، بعد أن تنطفئ شعلة الغضب في صدرها. أخبره إسكندر بأنه لم يرها منذ آخر مرة جاءت معه إلى المرقد، وخرجت تتبعه بعدها مكدَّرة.

كان كمال يقف معه أمام مكتب الاستقبال، وأعاد عليه ما يستطيع أن يكشف عنه من حكايته، فأعطاه إسكندر ما أمكنه في تلك اللحظة الصعبة، ثم عرض عليه الذهاب إلى إحدى الغرف ليستلقي ويرتاح، ووعده بألَّا يزعجه.

جاءت أمُّه وبقيت معهما لدقائق، بدت محبطة من ابنها كثيرًا. انتظر إسكندر حتى غادرت، ثم أسرَّ له بأنه سوف يسافر هو الآخر، ويأمل أن يكون ذلك قريبًا. سيكون

ذهابًا بلا عودة، ما زالت أمه لا تقبل بواقعه، ومنذ يومين فقط تدخلت عند أحد معارفها، فأُفرج عنه من مقر الشرطة، بعدما أُلقي عليه القبض مع آخرين عند مدخل حديقة صوفيا للاشتباه بممارستهم الرذيلة، لذا قرَّر أن يهاجر إلى أوروبا حيث هناك أكثر من طريقة ليكون كما يريد.

تواصل مع جمعية في هولندا، تدعم المثليين القادمين من بلدان بعيدة ويعانون في مجتمعاتهم. شباب كثيرون يخادعون تلك الجمعيات فقط للحصول على التأشيرة والمساعدة، وعليه أن ينتظر حتى يتحققوا منه، وإذا تعذَّر الأمر فسوف يجد حلًّا آخر ليصل إلى الضفة الأخرى.

اعتذر إسكندر من أصدقائه في جمعية «الرَّكح الواعد»، (ضحك كمال ساخرًا يوم أخبره بتلك التسمية الحالمة)، إذ لن يشارك معهم في العرض الافتتاحي لمسرحية عكفوا على التحضير لها طيلة أشهر، ولا في العروض اللاحقة المبرمجة في مسارح سيدي بلعباس ومستغانم وعنَّابة وبجاية، وبعدها في مهرجان المسرح المغاربي بتونس، إذا نجحوا في التحدي وحازوا موافقة وزارة الثقافة ودعمها.. كان متحمِّسًا للمسرحية، لكنه لن يكمل معهم، ظروف قاهرة تمنعني من الاستمرار، قال لهم بلهجة قاطعة رغم الأسف الشديد الذي بدا عليه. ليس أكثرهم موهبة، ومع ذلك كان أصدقاؤه يرون فيه محرِّك الفرقة.

ألحَّ على كمال في أحد الأيام فذهب معه ليشاهد العرض

التجريبي المغلق، وأُعجب بحماسه هو ورفاقه خلال تلك البروفة الأخيرة. لفتت انتباهه فكرة المسرحية. كانت كل الشخصيات فيها نورانية، لامعة وذات بريق، بينما تقبع خلف الهالة المزيفة لكل منها كائنات تملؤها الكآبة والسواد والشرور.

تخلَّى عن حلمه بأن يصبح ممثلًا مسرحيًّا كبيرًا، مؤقتًا على الأقل، وإذا نجح في الهجرة سوف يبحث عن فرقة مسرحية ينضمُّ إليها. ستصبح أمه ومثابرتها على عرضه على أطباء نفسيين، وضغوطها التي لا تنتهي عليه، وفرقة المسرح التي أسسها مع شباب مولعين مثله بالتمثيل، والمرقد ويومياته فيه، كلها أشياء من الماضي. خسارة فادحة عليه أن يتحمَّلها، ويتمنَّى أن يعوضها يومًا ما في عالمه الجديد. «كن بخير يا صديقي، قد لا نلتقي إلا بعد سنوات».. هذا آخر ما سمعه كمال من إسكندر، وهو يوصله إلى الباب ويودِّعه.

كان نبيل يقف مع كمال منذ وفاة والدته، ويساعده في كل ذلك. وعندما رافقه ليوصله إلى المطار رجَّح بألا يعود إلى الجزائر. أما كمال فقال له إنَّه رجل بألف، ولن ينسى صنيعه معه أبدًا، شكره، ورجاه أن يتمنَّى له التوفيق، ثم عانقه وكان ممتنًّا له بلا حدود.

أصبح يحلم بأن يشق الغمام بسيف الحظ، هذه المرة على الأقل، مرة واحدة تكفي، ويدله الرجل كيف يصل إلى أبيه. خرج من الفندق متوجهًا إلى المقهى حيث سيلتقي

به، وتذكَّر عندما ركب في المترو بالأمس، قادمًا من المطار لوسط المدينة، كيف وجد أكثر الركاب منشغلين بالحديث بينهم أو يعبثون بهواتفهم، لا أحد منهم يأبه للثاني. حاول هو من جهته أن يقلدهم، وألا يبالي بأي شيء، فلم يستطع.

لا أحد منهم يعيش مثله يومه كثمرة لتاريخ مزيف، ليس الموضوع بذي أهمية عندهم، من يكون أبي؟ وأين هو؟ هل أنا ابن خطيئة ندم عليها مقترفاها، وأنبتت هذا المسخ الوجودي، وتمنيا أن يقطعاه ولم يقدرا في حينه، فهربا، ثم ركبهما ندم آخر العمر، ويتمنَّيان لو لم يكن هذا الجزء من الماضي شيئًا مذكورًا؟

شحذ جميع قدراته الذهنية وحدسه، وذاكرته المليئة بروايات قرأها وأفلام شاهدها، وحاول أن يطَّلع على ما يمكن أن يحدث معه لاحقًا. عجز عن الوصول سوى إلى توليفة من السيناريوهات البائسة، يعرف منذ صغره أنَّ خياله ضعيف، لكنه بقي يحاول.

واصل السير ببطء، يختبئ من المطر الذي يحتبس ثم يعود إلى التساقط، وفكَّر أثناء ذلك في إمكانية ألا يكون حقيقيًّا، لا وجود له، ألا يعدو كونه شخصية في رواية جعلها سارد محترف أو محدود الموهبة تسلية ذهنية. لا يزال معلقًا وتائهًا لأن سارده لم يحدد له وجهة نهائية، أو يذهب به يمينًا وشمالًا ليقدِّم لقارئه المحتمل إثباتًا على اقتداره.

والحال كذلك، كما تبادر إلى ذهنه، فلن يفلت من وعي ولاوعي السارد، وسيظلُّ يعذِّبه ويرضي غروره. إنه صنيعته في النهاية، وهو حرٌّ فيما يفعل به. لا تفرض الشخصية منطقها على الكاتب دائمًا، لكن قد يحدث ذلك في حالة مثل حالته، يتمنَّى أن يحدث. قد يعرف من هو والده، ويراه في النهاية.. لكن هذه مجرَّد أمنيات، وما هو معلوم لديه أنَّ والده تُوفِّي منذ كان صغيرًا، وهذا من ضمن السيناريوهات المفروضة كمعطى لا يمكن تجاوزه.

وقف تحت سقيفة محلِّ عطور مرَّ به، وأشعل سيجارة، ثم لحظات واستأنف سيره، بسرعة هذه المرَّة، وعاد ليتساءل عمَّا سيفعله به سارده.

يلتقي بعبد القادر بن صابر، ويعيد عليه سيرة والده: ظروف ارتباطه بوالدته، جنونه المزعوم، وأخيرًا وفاته. ويعلمه أين دُفن، ليذهب ويقف عند قبره، وربما يبكيه ويقول له ما لا يعلم، ومن غير المستبعد أن يبقى يتأمل القبر بقلب شبه بارد، ودموع جافة، كما كانت حاله يوم دفن أمِّه. كان هذا هو الأرجح في ذهنه، وهو يتقمَّص شخصية مسلوبة الإرادة يتلاعب بها سارد عابث أو يصعب معرفة غايته النهائية وإدراك حكمته بسهولة.

لا يتوقع أن يكون الكاتب غبيًّا، وخياله أضعف من خيال بطله، ولن يؤول اختراعه إياه وتعذيبه كل هذا العذاب إلى تلك النهاية الباردة والمكررة في حكايات أخرى

حدَّ الغباء. لو يتاح له هامش تفاوض مع السارد، فيتفق معه على مصير يرضيه قليلًا.. لكن سارده قد يتحجج بأنَّ الجمالية والقيمة في استعراض التجربة الإنسانية وتفاصيلها، وتتبُّع حياة يحيى وآسيا والبقية، وليس بالضرورة في نهاية لا يتوقعها القارئ وتدهشه، أو ترضي هذه الشخصية أو تلك داخل الرواية.

أكمل السيجارة وأعقبها بأخرى، هرب من التفكير بحتمية سارد تخيَّل أنه يتحكم بمصيره، بعد أن جعله من البداية شخصية بلا إرادة حرَّة. من الواضح أنه يرفض أن يتفاوض معه، وإلَّا لكان من الأولى أن يُظهر له الحقيقة دون عناء. إنه يؤمن بشيء قريب من ذلك، لكنه يؤمن أيضًا بإرادته. هو لا يشبه أحدًا، وبالكاد يحلم ببداية حقيقية يقبر بها حيرته وضلاله. مَعلم واحد يكفيه ليهتدي، الأمر بهذه السهولة، يلتقي بالرجل فيجيبه عن أسئلته، وينتهي إلى الحقيقة الكاملة.

ارتبك قليلًا عمَّا يسأله، ثم ركز ذهنه يستحضر أسئلته ويتوقع إجاباته عنها، ويستعد كيف يستدرك ويستزيد منه أكثر، ومرة واحدة، يضيع كل شيء، ويعيد الكرَّة نوبة أخرى. قرر أن يكون تلقائيًّا معه، لن يتدرب على طرح أسئلة قضَّت مضجعه منذ سن الطفولة المتأخرة.

سوف يقابل عبد القادر بن صابر، ويفهم أخيرًا علاقة هذا الرجل غريب الأطوار، كما وصفه خاله، بأبيه وأمِّه فتيحة صادقي. هو وحده يملك الآن سرَّ حياته، أو هذا ما

زعموا أمامه وحاول أن يصدِّقهم، ليكون قريبًا من الأمل، وينتهي فضول مزعج رافقه طيلة سنوات حياته.

تذكَّر أحلامه وكوابيسه، وخوفه الصبياني من أن يكون محض نطفة طائشة، وإلى غاية الساعة التي خرج فيها من غرفته بالفندق، لم يكن يصدِّق أن ذلك سوف يحدث، على الأقل بتلك السهولة النسبية. لم يعلِ من توقعاته، ولكن احتفاظه بقليل من التفاؤل كان ضروريًّا من أجل أن يذهب إلى العنوان الذي حفظه عن ظهر قلب، ويعرف أيَّ غيبٍ خفيٍّ، لم يحسب حسابه يومًا، بانتظاره.

٢

الموت تجربة شخصية جدًّا، وباستثناء الاختفاء النهائي، فهي مجهولة النتائج. لا أحد عاد بعد أن مات وأخبر من تركهم خلفه، ساعة احتضاره، كيف جرى معه الأمر، أو إن كان أكثر سعادة مما كان عليه في حياته، أو أقل شقاء، لكن والدة كمال قاست في سنواتها الأخيرة، وإجمالًا لم تكن حياتها سهلة. من أجل ذلك تمنَّى أن تكون مرتاحة حيث ذهبت في غيابه. فكَّر أن الحياة تكون أحيانًا مضنية إلى مدى لا يمكن تحمُّله، وشاقة على البعض، والخلاص في مفارقتها. لم يشأ أن يفلسف الموت، ولا يرغب في أن يُعمل عقله في ذلك الاتجاه خاصة، ومع ذلك، وجد أن حديث النهاية يشده، ويحكم قبضته عليه.

في يوم الدفن، سبق المشيعين إلى المقبرة ليتأكد أن كل شيء على ما يرام، وبدت الساعة التي قضاها فيها أبدية. تمطَّت الدقائق بلا نهاية، وبقي هو عاجزًا دون حيلة. شعر بأن الريح تهب لتؤخر الوقت، أو لتعطي الانتظار فسحة لينال منه أكثر. وعلى وجوه القلَّة الحاضرة، كذلك، علامات تذمُّر لا تخطئها العين. ابتل شعره الأملس الخفيف، ومعطفه الأسود الطويل، وكان قد نسي في زحمة الخروج من البيت، حيث أقيم العزاء، أن يحضر مظلته معه.

مرر يديه يمسح عينيه الذابلتين المحمرَّتين، ووجهه

المتعب، لم ينم لليلتين متتاليتين إلا غفوات. تعذَّر عليه النوم في الطائرة أثناء عودته من تركيا، ولم يستطع النوم في ليلته الثانية، برغم هدوء وعتمة سادا البيت الحزين، وكان بإمكانه أن يدسَّ في ثناياهما تعبه وحزنه، لكن شيئًا من روح المقابر غلب على جو السكنى، فاستحالت عليه السكينة الجديرة بأن تجعله يهجع قليلًا.

أربكه وجود النعش قريبًا منه، تسطَّح يتأمل السقف المتآكل طلاؤه من أثر الرطوبة وقلة الاهتمام. في صندوق خشبي بُني قضت أمه، أو جثمانها، الليلة الأخيرة في الدار، قريبة منه وبعيدة جدًّا. تداعت إلى خاطره صور طفولته البعيدة، لكن تعبه كان أقوى من أن يجاري طيف الذكريات بيقظة تامة.

ارتسمت له صورتها واقفة عند رأسه، وهو ملقى على سرير بالمستشفى، عندما صدمته سيارة وكُسرت ساقه اليسرى، وهو بعد غرير، وصار من يومها يعرج عرجًا خفيفًا. لن ينسى دموعها تلك أبدًا. حملته في قلبها حبًّا على حب، وكانت تسقي الحلم بدم القلب مخافة ذبوله قبل أن يزهر. انقطع تيار العاطفة الذي غمره عمرًا، وبعد انحسار الحزن، سيكون الحنين سلاحه الوحيد في مجابهة حرمان سيقترفه، وسيطوف في أرجاء ذاكرة تحفل بصور ومشاهدات، لا حصر لها، تراكمت فيها منذ كان صغيرًا.

سيندم كثيرًا على تبرُّمه من اهتمامها الزائد به، حتى وهو يتقلب في الحياة كأي رجل ناضج، وتتزاحم أمام

عينيه تلك الوقائع التافهة من طفولته، ثم تغدو قيِّمة، وتصلح عزاء بعد الفقد وتعمُّقِ أثر الغياب. تذكر حرصها على هندامه لتجني ثناء المعلمات على أناقته، ثم إصرارها على إطعامه المزيد بعد كل وجبة، والمشاكسات بينهما، ونظرته المتحدية ليحيي المتضايق من ذلك العبث اليومي.

عاد إليه منظر الماء ذي الرغوة البيضاء المتطاير من حوض الحمَّام، عندما كانت تتعاون عليه مع خالته للاغتسال وتقليم أظافره، ودفعه لأداء الجمعة مع خاله في مسجد مليء بالملتحين، ذوي القمصان الصفراء والبيضاء، من عريضي الأكتاف، المتوعدين بوجه آخر للبلد، والمغلقة عقولهم بإحكام.

ابتسم من تجاهلها لنظراته الفاحصة لمؤخرات الممرضات المتدربات، وسيقانهن البيضاء، وسعادتها الخفية به عندما يخبرنها بكلماته الملغمة لهن، وستبقى أوراقه وكتبه مبعثرة من بعدها، ويحنُّ للومها المتكرر له بأن يكفَّ عن الفوضى.. سيتبدَّد إحساسه بأنَّه كان محور الحياة عند إنسان آخر، كما سيفتقد من تدافع عنه أمام خاله.

أدَّت دور الأم بأكثر مما كان مطلوبًا منها. نجل أمام نعشها أن ظل عاجزًا عن الشكر الجدير بعطاء لن يناله بعدها من أحد. يخجله تقصيره في أن يكون ابنًا بارًّا، وتعتريه حالة نكران يؤلمه، طالما اجتهد في تجاوزه، لكنه فشل دائمًا أو لم يكلل بنجاح يرضيه.

اعتبرته امتدادًا لها وأحبته بألف طريقة ممكنة، زرعت فيه أحلامها، لكنه خذلها. لم يعدها بشيء، وفعلُها تمَّ خارج إرادته، ربما طاوعها أحيانًا ومنحها الأمل، والأمل أقوى من الوعد، غير أن ضميره لم يؤنبه لأنه قصَّر في أن يكون ناجحًا على النحو الذي يرضيها لتسعد به. ما النجاح؟ وظيفة محترمة، وسيارة وسكن وأولاد، ثم ليجعل منها بكل ذلك جدَّة سعيدة؟ على الأغلب هذا ما كانت تفكر به، وتدفعه إلى ما وراء ذلك دفعًا.

استعانت على تكاسله بكل الحيل التي اخترعتها الأمهات من قبل وفشلت. تراقبه، وعندما تدخل عليه غرفته متوقعة أنه يقرأ كتابًا أو يراجع درسًا، كانت تجده متراخيًا يعبث بأي شيء. يحقق النتائج المخجلة في دراسته، يكون الفاشل الوحيد بين زملائه حتى في المواد التعليمية التي لا تستدعي قدرات خاصة، يدخِّن سرًّا، يواعد ابنة جارهم الحاج بشير ويضع يحيى في مشاكل مع أهلها، ويعصي أوامره كلما استطاع أن يفعل.. تغضب منه فتيحة، وتسبُّه، تقاطعه من وراء قلبها ولا تعطيه دينارًا واحدًا، فيناورها، ويستعطفها مستعينًا بخالته فطيمة، تغلبها العاطفة، ويعودان للمربع الأول.

عندما شبَّ وجد حيلة أكثر نفعًا، وأقل هدرًا لكبريائه، بأن يقايضها بالسؤال عن أبيه، ويهدِّدها بأن يهرب من البيت ويذهب للبحث عنه. نقطة ضعف لم تستطع تجاوزها. استسلمت له بمرور الزمن، ولما أصبح يطلب

منها أن يسكنا وحدهما بعيدًا عن خاله، بزعم أنه قد صار رجلًا، كانت رغبتها في إخضاعه قد اختفت تمامًا، ورضيت به على ما هو عليه.

في اليوم الذي عرفت فيه أنه يشرب، أعاده إلى البيت سائق سيارة أجرة بالكاد فهم منه أين يسكن، فتلقَّفه يحيى بركله، ثم استل حزامه وانهال عليه بجلده، وفي ذهنه أن يقيم عليه حدَّ شرب الخمر، ناعتًا إياه بالخنزير النتن، وهو يعوذ بالله من ذرية السوء.

كان يحيى عائدًا يومها من إحدى زياراته لابنته. بقيت فطيمة تذود عنه، وتقول برجاء لخاله إنه شاب ومغرَّر به، وشياطين الإنس كثر، لكنه أصمَّ أذنيه وقد أعماه غضبه، وفي النهاية طرده وأعاده من حيث جاء. أما فتيحة فأمسكت العصا من الوسط، مخافة أن تعاند يحيى فيكشف له عن السرِّ الدفين، ويحطم كل تاريخها معه.

شعر بنوع من البطولة، استلذ جلد يحيى له وقسوته عليه، واختبر أثناء ذلك قوة احتماله، ثم شك بعدها بأنه يهوى تعذيب ذاته على نحو مَرضي. لم يُرِ خيال كمال بعدها في البيت لأسبوع كامل، وأضمر يحيى ندمًا خفيفًا عندما لامته أختاه على فظاظته، وذكَّرتاه بأن الله يسامح. سألت عنه أمه في الجامعة، وعثرت عليه بمشقة. قضى تلك الليلة في فندق متواضع، يديره شابٌّ مريب لحساب والدته، وفي الليالي التالية أواه زميله في الإقامة الجامعية بالقبَّة. استعادته بصعوبة، وعندما عاد لم تؤنبه، وتجنَّب يحيى

مخاطبته، ومرَّت الحادثة دون تبعات ظاهرة.

بقيت المرارة في حلق يحيى، ووقفت بقاياه القديمة تدافع عن كبريائه الإيماني المجروح. لم يتقبَّل كيف يعاقر أحد من أهل بيته الخمر. كم من التنازلات عليه أن يقدم، سأل نفسه، في خيبة أمل مما تطالعه به الأيام. وعدته فتيحة بألا يعود كمال إلى البيت ثملًا أبدًا، ارتبك أمامها قليلًا، ثم تجاوز الموقف برمته مكرهًا. خشي إن أصرَّ على تأديبه للنهاية أن تذهب مع كمال للعيش وحدهما، وتطالبه ببيع البيت.

جعله يخسر أمام نفسه معركته الداخلية التي يخوضها ضد نزوعه نحو التدين العنيف، واعتبر أن غضبه عليه ساعة عاد سكران كان انتصارًا للذات، أكثر من كونه غضبًا حلالًا في سبيل الله والذود عن حرماته.

اكتفت لاحقًا بأن تطلب له الهداية، هل كانت تعرف حقًّا أيَّ طريق يناسب ابنها؟ تسأل نفسها، ثم تكتفي من الإجابة بالصمت المطبق. وضعَها بشأنه دومًا في التباس، تمامًا عند منتصف الرأي، ولم تصل لحكم نهائي له أو عليه. متمرِّد ونزق لا ينساق بسهولة، وليس طيِّعًا بما يكفي لتصنعه على عينها، كما تحب وتشتهي، لكنها لا تستطيع، في مقابل ذلك، أن تنعته بالعاق الذي يعذِّب قلبها. يحدث أن تجده ليِّنًا مثل الحيوان الوديع، يحنو عليها، يلاطفها، ويشتري لها الهدايا إذا استطاع، ويعوضها عن الوعود التي أبرمتها معه، والآمال التي علَّقتها عليه منذ كان صغيرًا.

أراد أن يكتب لها اعتذارًا، أو يطلب منها أن تسامحه. يظن أنها كانت تشعر بذلك، وتخفي ألمها أو تكذِّب نفسها، أن كل ما فعلته من أجله يمكن أن يقابل بامتنان منقوص. الموتى لا يقرأون الرسائل ولا يسمعون اعتذارًا فات أوانه. لا يمكنه أن يطلب من الملائكة أن يبلغوها محبته وامتنانه، واعترافه بالتقصير، ولا يستطيع الجهر باعتذار لن يسمعه إلا يحيى، فيكون شاهدًا على خجله أمامها، ويقوِّي عقدة الذنب لديه. كتم ما يجب أن يكتمه، فالملائكة ليسوا سعاة بريد، كما أنهم لا يسهرون إلى ذلك الوقت المتأخر من الليل.

ثقل جفناه، وارتخت يده حتى أفلتت قبضته قداحة كانت بانتظار أن يشعل بها سيجارة أخرى، قد يضايق بدخانها ملائكة اعتقد أنهم احتشدوا ليزفوها إلى السماء، وتدلت على مسند أريكة اعتادت أمُّه أن تجلس عليها لتحدثه بكلام لا يفهمه، وهو شارد، يطاوعها بالجوارح وعقله بعيد. سمعها مرات كثيرة تطلب منه أن يسامحها وألا يحقد عليها مهما وقع.

لم يجرِّب موت عزيز عليه من قبل، غير أنه هيأ نفسه لاحتمال رحيلها، وما بقي يؤلمه حقًّا أنه لم يرها وهي تحتضر. عندما كان يعاجلها الموت، أضلَّه حدسه وتوقع أن حالتها، التي استمرت لأشهر، ستمتد لوقت أطول.

سيبقى سفره إلى إسطنبول، تاركًا إياها تحتضر، يورثه

الندم والحزي كلما تذكرها، غير أن ذلك لن يكون إلى آخر مدى. لا ينوي أن يصلب ضميره نكالًا بما لم يفتعله، ما عاد لديه سوى اهتمام ضئيل بأشياء قليلة، ثم إن سفره كان برغبتها وبموافقتها، ولولا أن الموت ماكر لما اختطفها ليلة عودته. راوغه القدر مراوغة هدامة.

أسباب وجيهة لغصَّة في القلب، لكن القدر لا يراعي رغبات البشر كثيرًا، وكمال يكره أن يناقش الحتميات. الامتثال عنده وسيلة مناسبة للاستمرار، ما دام لا سبيل لمراجعة الإرادة العلوية، والقدر يجب أن يطاع على كل حال.. أو هكذا كان يهرب من فكرة الاعتراض، ويهرب من الليل، لئلا يستبيحه الأرق أكثر.

منذ كان صغيرًا، لا يأمل من الليل شيئًا. حصاد الليل نادرًا ما يسد رمق النهار، وقد بات يتوجس من الظلمة، وظلت في خاطره وذهنه صورة للخواء. صار كائنًا ليليًّا أغلب العام، إلا أنه يراها بعين قلبه أبعد من الموت. ووراء الظلمة الحالكة تقبع روح أمه. لا بد أن يكون الموت مثل وحش خرافي أسود له فم باتساع السماء، والكفن ذاته ليس إلا تسلية للميت، وعونًا له على كسر سواد الموت والقبر.. أبيضُ يغالب من لا يغالبهما حتى الزمن بجبروته واستدامته.

لم يفتح الصندوق في البداية، خطا إليه في الغرفة المجاورة، ولم يلقِ نظرة على الجثمان الملفوف في كفن أبيض ناصع ليحارب العتمة السرمدية إلى يوم القيامة.

مرَّت ساعة بعد منتصف الليل، نهض من على السرير المغطَّى بإزار أبيض هو الآخر، اتجه صوب الصندوق في غرفتها المضاءة بمصباح قوي، الموتى لا ينزعجون من المصابيح المضيئة، ورفع الغطاء، فرأى وجهها مكشوفًا بملامح مخضرة.

كم شعر بالامتنان لوجه كان يقبل عليه دومًا بابتسامة المحب، هل كان يحبها.. هل سيفتقدها بعد أن غادره وجهها للأبد؟ بات السؤال يلح عليه منذ الساعة التي سمع فيها خبر رحيلها. خطر له أن يقرأ لها شيئًا من القرآن، ثم أعرض لما وجد في نفسه ثقلًا يصده عن ذلك، زيادة على أنه لم يكن طاهرًا حتى لو أراد أن يفعل.

أطلَّ عليه خاله من الباب الموارب لغرفة المرحومة، بجسم نصف مائل، «ابكِ عليها كما يجب أن تبكي على أمك يا كمال». ليس هذا ظرف تصفية الخلافات القديمة، ولا وقت تلقينه كيف يكون حزن ابنٍ وحيدٍ على أمٍّ قضت بعدما التهم الموت بواقي عمرها متعجلًا.

رجع إلى غرفته وأشعل سيجارة أخرى، استغرق لحظات يتأمل شعلة القداحة بنارها الزرقاء المتوجة بالبرتقالي. استهلك علبة سجائر كاملة من المغرب حتى حينه، وكانت روائح طيبة ملأت البيت قد علقت في أنفه، وغلبت رائحة الدخان المعتقة في مسامه وخلاياه.

فضَّل الركون إلى الصمت على الرد عليه، أو مناقشته في

معنى ما يقول، يعرف أنها النهاية، ولن يعود سابق العمر ليعايش حاضرًا ملغمًا بخلافات في مثل سنِّه تقريبًا. أبلغه خبر وفاتها برسالة نصية من عنده، قاطعه قبلها طيلة أيام سفره، وعندما تكرَّم وعاد، أرسل له كلمتين جافتين، كأنه ينعي إليه امرأة لا تعنيه.

تخيَّله ساعتها مثل غراب أثيم وحاقد، يستلذ أن يفجعه، ولما رجع والتقت أعينهما نظر إليه نظرة متشفية بأنَّ من كانت تذود عنه قد رحلت، وقد أصبح من بعدها أعزل أمامه. رغب أن يقول له إنه نذير شؤم، لم يحمل إليه خبرًا سعيدًا واحدًا في حياته.

لم يسعفه الموت حتى يعود فيراها، ولم يراعِ رغبته في أن يتبادل معها الوداع الأخير، كأن ذلك ترف زائد بالنسبة له، مثل قبلة وداع لم ينلها من فتاة رافقته ليلتها، وكؤوس البيرة لم يكتمل أثرها، ولم تُعفِه من حضور أتعبه. كانت ليلة لم يكتمل فيها شيء، وحده الموت استوفى حقَّه من أمِّه ورحل. تأخرت طائرته ساعتين، وعندما رجع وجد نفسه يواجه رحيلها ونظرات خاله المتشفية.

مثل رجل له ورعه وتقواه، سمع كمال خاله يقرأ عند جثمانها ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾. يُشيع يحيى بين الناس أنه تزوَّج مرتين ولم يرزق بالذكور، وكان يُنتظر من رجل مثله أن يوجِّه عاطفته نحو ابن أخته، لكن علاقتهما تفتقد الانسجام. يعتقد كمال أنه يخفي حقيقة ما، يغيب كل شهر ليوم أو يومين، ولا يعلم إلى

أين يذهب. تعرف أختاه أن له بنتًا معاقة ذهنيًّا، ناهزت العشرين عامًا، يزورها وينفق عليها، لكنهما لا تعرفان ممن أنجبها وما ظروف ذلك.

لا يذكر كمال من خاله ودًّا كبيرًا، ولا يعلم إن كان من مبتوري النسب الذين تبدو ملامحهم قاسية، وسرعان ما يُكتشف في داخلهم فيض من عاطفة عظيمة. طالما رأى في عينيه نظرة غريبة، لم تختفِ مع السنوات، وبعد السادسة والثلاثين لم تبقَ له براءة البدايات حتى يحمل سلوكه معه على محمل التأويل الحسن، ورحيل المرأة التي جمعتهما في حياتها سوف يفك الارتباط الشكلي بينهما، وينهي كل الماضي. هكذا توقع، مطيلًا النظر من النافذة المخدوش زجاجها، إلى عمود الإنارة أسفل البناية يقاوم وابلًا من مطر دافق.

استخلص المرض الخبيث نفسها وعافيتها بتمهل، لكن بمثابرة، ومثل رجل حاقد، استلذ عذاباتها وألمها، وسرق منها ابتسامة كانت لا تغادر شفتيها. فشلت الجراحة في استئصال ورمها، والعلاج الكيماوي كان، بالمعنى الحرفي، جلسات عذاب لها ولمن حولها. في المستشفى، سُخِّر لها كل ما يلزم، عندما تكون هناك يقوم زملاؤها وزميلاتها خاصة بالواجب وزيادة، لكن عبثًا.

قاومت الخضوع لعلاج ميؤوس من نتائجه، بينما كانت يدٌ سماوية تعمل ضد رغبة كل من كانوا حولها يرعونها بالحب وتخفيف الآلام. يتذكرون ابتسامتها الدائمة،

انطلاقها للحياة، ودماثتها مع الجميع. يدعون لها ويبذلون الكلمات الجديرة بامرأة ذات أثر طيب توشك أن تأفل.

أما يحيى فنسي خلافاته القديمة معها، وانكشف حب مخبوء في قلبه نحوها، وربما أحبَّ أن يكفِّر عن قسوة الصغر ورعونة الشباب، لا إكراه في الدين، فهم ذلك متأخرًا ولكن ليس بعد فوات الأوان. رقَّ لها، وزاد في التعطُّف عليها كل يوم أكثر. قرأ لها القرآن كل يوم عند الفجر وبعد العشاء، وكانت تحب أن تسمع سورة الفرقان منه هو بالذات، وأحيانًا يصلي في جوف الليل وقلبه يتفطَّر من أجلها.

سهر معها الليالي الطويلة، يحدثها عن نفسه، عن ابنته العاجزة التي تحتكرها أمها وعن أصهاره، إخوة الدعوة القدماء، الذين رموه كأنه بلا ثمن ولا تاريخ، عن ماضيه الجهادي، وعن الخذلان حتى من بعض أصحابه، وقد تقاسم معهم الخوف والرجاء أيام الصحوة المباركة، ويكرر أمامها دومًا بأنه يحبها جدًّا، ويرجوها أن تنسى ما كان منه في الماضي وتسامحه.

ترفع فتيحة عينيها نحوه، وتوصيه بكمال خيرًا، بصوت ضعيف ومتقطع، فيخفض بصره لكيلا يقطع على نفسه وعدًا يعرف أنه لن يقدر على الوفاء به، أو يغيِّر مجرى الحديث، فتفهم هي، وتكتم ما في صدرها، وتبث مخاوفها وأوجاعها إلى الله عندما تطيل التحديق في السقف بنظرة سقيمة، أو تغمض عينيها وهي نصف هائمة في ملكوت

علوي تعرج إليه بقلبها.

بقي يحثُّها على الاستغفار ولو في سرِّها، والتعلُّق بالله حتى آخر لحظة، لا كفر كاليأس، قال يخبرها يومًا، وينصحها بأن تعزم النية على توبة صادقة ونهائية، فماضيها جدير بذلك حسب حديث النفس الذي بقي يدور في داخله منذ تيقن أنها راحلة.

عندما يجتمعون معها في غرفتها كل مساء، يخففون عنها، ويدور الكلام بينهم كيفما اتفق، يرمق يحيى كمال من حين لآخر بنظرات حادة تفهمها أخته، بأن ذنبها الأعظم وخطيئتها الكبرى يجلس معهم، وعليها أن تكمل توبتها باعتراف أخير مهما كانت تخاف أن يتحطم قلب ابنها على أثره. كل هذا وكمال لا يفهم أبدًا الصمت الملغم الذي يسود أحيانًا، والتضمين في نصائح خاله لأمه بالتوبة الصادقة، كأنها شيطان اقترف كل آثام العالم، ويجب أن تتوب على نحو خاص وتتطهر قبل يوم الحساب الأكبر.

استثمرت فطيمة حضورهم من حولها، ونجاحاتهم، في إسعاد نفسها بعض السعادة. عاشت حياتها بلا أساس ذاتي، تنهل من فتيحة وكمال ما يريح قلبها، تعتبرها ابنتها، وأدركت وهي تراها تغيب يومًا بعد آخر أنها ستتركها كجذعٍ خاوٍ في صحراء ممتدة. قضت معها أغلب ساعات اليوم والليلة، تتمتم بالأدعية والأذكار، وتنذر النذر لله ليشفيها، وتغالب هاجسًا يؤرقها بأن خسائرها ستتضاعف برحيل فتيحة.

تخشى أن تفقد أحبتها في الأرض تباعًا. تنظر إلى السماء، وتطلب أسباب القوة. عابدة، زاهدة، شطر قلبها في العالم الآخر، محبتها تسع جميع الخلق، وضعفها ما بعده ضعف. يجب أن تكون صادقة كما كانت منذ خلقت، مع أن الصدق سوف يذبحها، ومن الأمانة أن تعمل بوصية الراحلة التي فطرت قلبها بالموت، وقبل أن تفعل ألقت عليها الحمل كاملًا.

لا تعرف فطيمة كيف سيكون موقف يحيى، وإن كان سيطاوعها في تأجيل الاعتراف أم لا. ألحت عليها أختها هي بالذات لأنها تعلم أن كمال لن يصدق إذا سمع الحكاية من يحيى، كلاهما لا يحب الآخر، وقد يصل الأمر بينهما إلى مصيبة.

جفَّت دموعها وأخذ بنيانها يتصدع، باتت تسأل الله عن جدوى ما يفعله بها، أهذا جزاء المحبة الفائضة وقيام الليل؟ أين المعروف الذي أسدته للفقراء والمساكين في هذه المدينة المتوحشة.. لم يحتسبه الله أم أراد أن يمتحن قلبها أكثر؟ رجعت عن ذلك بأن حدثت نفسها بأنها كانت ممن يعبدون الله على حرف، تطمئن للخير، وتجزع عند الابتلاء.

أخذتها سنة من النوم، بعد أن أرَّقها هي الأخرى حزنها على أختها ووجود الجثمان في الدار. كانت تجلس فوق سريرها وظهرها للجدار، تسلَّل إليها البرد، الخوف والجزع،

وخيال شيخ لا تعرفه، أو تعرفه ونسيت اسمه، جلس عند قدميها مواسيًا. أنت كلُّك لله يا فطيمة، سمعته يقول، ثم بنبرة بين النصح والعتاب جعل يخاطبها، توبي ولا تطيعي هواكِ، وكل الأطفال الذين كنت تعطفين عليهم أولادك.. أذاقك مولاك حلاوة القرب فلا تبتعدي. رفت أجفانها، راحت تتمتم، تسمع همسات صوتها الخافت الحزين، المتردد، وهي ترد عليه بما لا تعلم، وتعتذر، كل ذلك وهي تحسب أنها مستيقظة، والرؤية متجلية. كمال نصف القلب يا شيخ، القلب وما فيه لله يا فطيمة، يقاطعها بحدة هذه المرة، ثم يكمل: يوم موتك أقرب إليك الآن من يوم مولدك.. فتحت عينيها، وكانت أنفاسها تتصاعد والخشية تملؤها، وخيال الشيخ يتبخر في لا شيء من الزمان أو أقل.

استلقت على السرير، دسَّت بدنها تحت غطاء سميك، وأبقت عينيها مفتوحتين. آنست للزائر لكن كلامه أفزعها. أحبت أن تعبُر الرؤيا فتؤولها كما يشتهي قلبها، لكن الرؤيا واضحة ولا تحتمل أي تأويل. عليها أن تعيد الأمانة إلى أهلها، ثم تسلِّم قلبها كله لمولاه. محبة الله يجب ألا يزاحمها في قلب العابد محبة أحد من خلقه أو شيء من متاع الدنيا. تفهم ذلك، فيراجعها القلب ذاته الموزع بين المولى وكمال، ثم تستقوي عليه بأن تستحضر يقين قيام ألف ليل وهي خاشعة، تطوي المسافات إلى الله، وتقطع أشواط المحبة على دربه أكثر فأكثر.

كانت تحب أن تسمع دروس الشعراوي، تأنس إلى حديثه، وتفهم القرآن من خلاله. ظلَّ يحيى يخبرها دائمًا بأن متولي الشعراوي ليس من أهل السلف، لكنها لم تلقِ له بالًا، يقين القلب أوثق، وقلبها تعلق بمن يسيرون على الطريق مثلها، وامتلأ محبة للعالمين.

أثناء المرض، كان كمال يدخل عليهما بين ساعة وأخرى، يشجّع أمَّه على المقاومة، ويصدِّر لها، بثقة مفتعلة، يقينًا مزيفًا يملأ قلبه بأنها ستتعافى من أجل نفسها ومن أجلهم جميعًا. خشي من البقاء من دونها، واعترف لها مرات كثيرة بأن طفلها الصغير لم يكبر، وبحاجته الدائمة لوجودها في حياته. رجاها أن تعيش من أجله، وطمأنها مدعيًا بأنه وجد عملًا وأن أحواله تحسَّنت، تعوزه نبرة الصدق في صوته المهزوم، وهي تعرف أنه ممثل فاشل أمامها. منذ كان صغيرًا يعترف بكل حماقاته حتى دون أن تحتد عليه أو تهدده بالعقاب.

آلمه أن يعجز عن منحها جرعة أمل كاذب تسعد قلبها. فاشل ولا يستحق أُمًّا مثلها، يقول عن نفسه مثلما يقول عنه يحيى. لا تأبه فتيحة لذلك، لم يكن حبها له مشروطًا بأن يكون كمال رجلًا خارقًا ولا يتكرر، مبحوحة الصوت ومنهكة إلى آخر مدى، تعيد عليه كلما أسعفتها بقايا قوتها: سامحني يا كمال مهما حدث.

ليلتان بيضاوان.. تسيَّده خلالهما الندم، وشيء من راحة مستترة شعر بها، وخشي أن تظهر على ملامحه أو في

كلامه، وتراها خالته، أو خاله وقد ألقى إليه بملاحظته تلك. قليل من حزن قليل بدا عليه، يخزيه أن يعرف المحيطون به، بالأمس وفي تلك الساعة من الضحى وهو ينتظر وصول الجثمان وإتمام مراسم الدفن، من حقيقته ما ينكره هو، وكيف استقبل الموت بملامح محايدة وقلب بارد.

قلبك قاس، كأنها ليست أمَّك! أضحى يقول في سرِّه، ثم حمد لله فضل المطر والريح لينشغل عنه الناس فلا يرون ما يشي لهم بما يخفيه عن نفسه وعنهم، وأراد أن يشعل السيجارة الأخيرة في جعبته ليخفف من وطأة الانتظار، لكن الخجل والبلل منعاه.

اقترب منه رجل أشيب اللحية جاوز أعتاب الشيخوخة بأعوام. رآه البارحة يقف بجوار يحيى، خمَّن أنه أحد أقاربهم البعيدين. صافحه، عظَّم الله أجركم يا كمال، قال له، فردَّ عليه متمتمًا. لم يحضر جنازة في حياته، ولا يعلم تحديدًا ما الذي يتوجب عليه قوله. كان صادقًا في تعزيته، شيء في ملامحه يعلن عن حزن عميق، لكنه تحت السيطرة. دفعه فضوله أن يسأله من يكون، لم يسمعه الرجل، وانسحب، أو تظاهر بأنه لم يسمع شيئًا.

أقيمت صلاة الجنازة في مسجد الحي. وقد سبق هو المشيعين إلى المقبرة، حيث أوصتهم بأن تُدفن إلى جوار والدتها الحاجة زاهية، شوقًا إليها، وخوفًا من وحشة المقابر. يحضر الجنازة الأولى في حياته، وعلى الأغلب ستكون الأخيرة. هكذا قرَّر وهو ينتظر الموكب الذي تعطل

لازدحام في الطريق، واستأنف بعد ذلك سيره بحركة بطيئة، تواطأت مع الوقت الزاحف بتمهُّل شديد، كأن كل شيء كان يتآمر ضده في ذلك اليوم.

ظلت دموعه محتبسة كغيث تمسك به سحابة قاحلة لا تبكي موت أي إنسان. رن هاتفه فأخبره خاله بأنهم على وشك الوصول فتلقى النبأ كبشرى بطعم الخلاص. تُوفيت مساء أمس الأول، وإكرام الميت دفنه. هل تعاكس أمه قدرها لتبقى على ظهر الأرض ساعة أو ساعتين أخريين؟ أيعاكس الميت قدره؟!

سار إلى القبر، وقد صنع الوحل المتكدِّس تحت نعليه طبقة سميكة، ثم وقف على حافته. انحنى ورفع بابًا خشبيًّا وُضع على فتحته كي لا يمتلئ بماء المطر. ألقى بنظرة إلى اللحد أين سترقد أمه لمدى لا يعلمه إلا الله، ثم سدَّ فاه القبر وابتعد.

وصل موكب من أربع سيارات بينها التي تحمل الجثمان يركب في مقدمتها خاله. دُفنت على عجلٍ وانفضوا. التقت عيناه بعينَي خاله غير مرة، واستدرَّ، دون طائل، دمعًا أبى النزول. لم ينصرف إلا بعد مرور دقائق، وقف وقرأ لها الفاتحة بقلب حزين، ودعا لها بالرحمة.

رحلت ودفنها، ولم يستطع أن يقبر معها الحيرة والشك. خطر له أن يواجهها، للمرة الأخيرة، بسؤال مرير أعياه لسنوات وهو يكظمه عن سواها، ويستجديها بأن تبوح له

بما يشفيه من حيرته المزمنة. لم يكن ينقصه عمل عبثي آخر يثبت له بأن سلامته النفسية يجب أن تكون محل نظر، فألجم لسانه. وليثبت لنفسه بأن السر وصاحبته قد ذهبا إلى غير رجعة، فكَّر وهو يهم بالرحيل، أن يطلب من حرفي رخام نحت شاهد لقبرها، وانصرف ملوِّحا لها بيده راقدة تحت التراب.

وضعوا كراسي قليلة عند مدخل البناية، حضر قليلون جدًّا، من الجيران، ومن أقارب الأسرة البعيدين. لم يسمح الجو الماطر ببقاء أحدهم لأكثر من دقائق، ولا تبادل العبارات المعادة حد الابتذال عن الموت كحقيقة يغفل عنها الناس، وأن الدنيا لا تساوي ثمن الاقتتال عليها. كان موت فتيحة أكثر من متوقع، ولم يترك مجالًا للصدمة أو لادِّعاء حزن كبير، ومرَّ المأتم دون عويل.

وقف كمال بجوار خاله، سيجارته في يده، وأكمل تلك التمثيلية التي أداها إلى نهايتها مكرهًا. لم يتبادلا سوى كلمات قليلة جدًّا. كان ذلك قبل أن يعفيه الحاج بشير من ذلك الجوار، تجاهله ولم يقدم له العزاء، كأنه غير معني بالراحلة، واستحسن هو ذلك، ثم تنحَّى جانبًا لمَّا جاء إلى يحي نفر من الرجال الذين تتدلى لحاهم، ويرتدون قمصانًا فضفاضة ومعاطف كبيرة.

رأى بعضهم مع يحي من قبل في مرات قليلة، تلقَّى منهم التعازي ببرود، ورأى عبثية ما يقومون به. لن تعود أمه للحياة، ولن تبلغها كلمات منسوخة تقال في مقام

العزاء من الجميع بتفاوت في الصياغة وحرارة الأداء. شاهد كيف اقترب أصحاب يحيى منه، ثم تحلَّقوا حوله، كان أكثرهم من جيل الانتفاضة المقدسة، التي انتهت إلى ما انتهت إليه. ينظرون إلى كمال بنفور واضح، وغالبًا يرون فيه عملًا غير صالح سيغرق في طوفان ضلاله في يوم قريب عند الله.

غادرت زميلات أمِّه اللواتي جئن معزيات، كنَّ حزينات على رحيلها، وأخبرنه بأنَّه كان كل حياتها ولا تتوقف عن الكلام عنه، وطلبن منه أن يترحَّم عليها دائمًا وألا ينساها بالدعاء وبالصدقات والذكر الطيب. شرع بعد ذلك في رفع الكراسي منهكًا، وسمع يحيى يدعو الشيخ الذي اقترب منه في المقبرة، ولم يعرف من يكون، أن يقضي الليلة عندهم والآخر يرفض مبديًا حزنًا حقيقيًّا، أو هكذا قدَّر كمال وهو يصعد إلى البيت ليخلع عن وجهه ملامح الافتعال التي أرهقته ليوم كامل، وليقترف حزنًا منفردًا على رحيل أهم امرأة في حياته، بينما كان المطر يتوقف قليلًا، ثم يعود لينهمر بغزارة أكبر، في تلك الساعة من بعد العصر.

جاء أصهار خاله، وابنته زارت بيت والدها لأول مرَّة في حضور كمال. واجب ثقيل على الجميع. اجتهد يحيى في الترحيب بهم، وإبداء التقدير اللازم، وكتم غصة في قلبه لم تختفِ رغم مرور السنوات. سمع أكبرهم يلومه على كسله، رفاقه عادوا مهزومين من الجبل، لكن عرفوا

كيف يغالبون دنياهم بأسلحتها، راكموا الأموال، امتلكوا البيوت والسيارات، حجُّوا واعتمروا، نكحوا ما طاب لهم من النساء، مثنى وثلاث، فيما توقف هو به الزمن.

تعلَّل محرجًا من فشله، بأن خبراته في التجارة واسعة، وقد مارسها شابًّا، لكن الأمور تغيرت، ويعوزه رأس المال لكي يبدأ.

ألقى كمال إليهم السمع وهم يتهامسون، ثم ينظرون إلى البيت بين الحين والآخر، ويكملون حديثهم. كانوا يحفزون يحيى، ويستثيرون همته، ليخرج من انتكاسته المزمنة، وهو صامت، مطأطأ الرأس، كأنه تلميذ يتلقى أول دروسه في الحياة. عليه أن يستعمل نفسه في سبيل الله وخدمة الدعوة، بأن يكون مثالًا للمؤمن القوي المقتدر، ووعدوه بأن يحظى بتزكية من الشيوخ كما قالوا له، ولهم في أجهزة الحُكم أصدقاء سيحبون مساعدته. روضتهم الدولة وانتهى الجميع للتصالح مع الجميع.

منكَّس الرأس، ابتلع مرارة الهزيمة التي ألحقوها به، انتزعوا منه زوجه وابنته، ركنوا سيارات لا يملك هو حتى ثمن وقودها، ووقفوا مع أميرهم السابق، يتباهون بما حققوه، ليلصقوا به وصمة الفشل. ومع ذلك فكَّر أن عليه نسيان الماضي برمته، وأن يدفن أحقاده في أعماقه، ويبادر من جديد. المال ليس مفتاحًا للسعادة، لكنه يحل المشكلات، والمؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف.

راجع ذاته كثيرًا بعد أن اختلى بنفسه في الليل، ورغم تعب اليوم الطويل، بقي ذهنه يستعيد ما سمعه منهم. وحزنه على رحيل أخته إلى دار الحق لم يمنعه من الاقتناع بضرورة ألا ينسى نصيبه من الدنيا.

أشفق كمال على خالته نخرج إليها، كانت قد فرغت لتوها من صلاة المغرب، أدَّتها بخشوع، ودعت فيها لأختها بحرارة. جلس معها ساعة كاملة، وجدها حزينة ومفجوعة على نحو لم يقدِّره من قبل. حاول أن يصبِّرها بعبارات مقتضبة ومتقطعة، غير مؤمن بجدوى ذلك، واستعادت أمامه فصولًا كاملة من حياتها مع أختها، وقدَّر أنها لن تشفى منها قريبًا، ويتوجب عليه أن يكون حاضرًا في حياتها من تلك اللحظة فصاعدًا ليسد بعضًا من الفراغ الذي خلفته الراحلة في قلب أختها.

كان صوت عبد الباسط عبد الصمد يصدح في أرجاء البيت الحزين، بنبرة تتفاوت بين حزن وشجن، أوحت لفطيمة أن شعورها، بأنها تعيش حياة قائمة على دعائم الآخرين، ليس مجرد وهم لا أساس له. أصبحت مطلَّقة مبكرًا جدًّا، بعد سنة يتيمة من زواج قصير، ولم يعد لها من حظ في السعادة سوى ما تختلسه من أفراح الآخرين، ومن حضورهم بقربها.

كل ذلك وكمال دعامتها الوحيدة الباقية يتأمَّلها، ثم يتذكر من دفنوها في ذلك الصباح، ويفكر في جدوى الموت

والحياة كثنائية رهيبة على كل إنسان أن يكون متداولًا بين طرفيها. وسحبته خواطره بعد ذلك إلى أن يسأل كيف أن الأرض لم تشبع قَطُّ من أجساد ما لا يُحصى من البشر الذين ابتلعتهم منذ دفن أول إنسان إنسانًا آخر في جوفها.

هذيانات فارغة. ترك خالته لحزنها، ثم ذهب للشرفة حيث وقف ينظر إلى المارة في الأسفل، وصوت التلاوة يلاحقه دون أن يتوغل في أعماقه. تأمل الشوارع المبللة، وفكَّر في أنَّ كلَّ سحابة ماطرة كانت في البداية زفرة أطلقها رجل حزين. مدَّ بصره أبعد قليلًا فظهر له البحر، حيث تمدُّ آلجي Alger السفلى رجليها في الماء ولا تجرؤ على السباحة.. شاطئ «كيتاني»، وحي باب الوادي الذي أصبح مشوَّها ولم يبقَ منه إلا اسمه، اختفى الوادي والباب صار مخلوعًا، والمدينة أصبحت بكاملها شاهدة على كل الممكنات والبشر.

أُشعلت الأضواء البرتقالية في الحي، وتراجع عدد من يجوبون الطريق، وأنارت السيارات مصابيحها. بقي كذلك دون أن يغيب عن باله سؤاله الحارق. ومع زحف الظلام مثل ستار يخفي عيوب المدينة وقلوب ساكنيها، رمى بآخر عقب سيجارة دخنها لتسقط في الأسفل على الرصيف كيفما اتفق، ثم رجع إلى غرفته والظلام في أعماقه أشد وأقوى.

قدَّر أنَّ أيَّ ليل مرَّ عليه من قبل، لم يكن له أبدًا معنى الليل كما هو في تلك اللحظة. لم يدعُه أحد لعشاء لا

يرغب فيه حقًّا، فاندسَّ في فراشه، وغاص في نوم أقرب ما يكون إلى موت صغير، رأى فيه أضغاث أحلام وخيالات غير مفهومة.

٣

توجَّه إلى أقرب محطة مترو، ونزل عبر السلَّم، وكان يشعر أن حياته تدخل نفقًا مظلمًا، ثم قاوم انقباض قلبه، وقرر ألا يلتقط أي إشارات سلبية. اتخذ مقعدًا كيفما اتفق في عربة شبه فارغة، شرد قليلًا، ثم رفع رأسه فرأى امرأتين تنظران إليه. ملامحهما شمال أفريقية، قدَّر أنهما كانتا تتهامسان بشأنه ثم توقفتا عندما لاحظ ذلك. ليس فيه ما يريب، وربما يتوهم فقط.. لا أهمية لذلك، لن تعتقه أسئلته وارتباكه بمثل هذا.

رنَّ هاتفه معلنًا عن رسالة جديدة من آسيا، على الفيسبوك، تريد أن تعرف أين هو ولماذا لا يسأل عنها. أحسَّت أنه يهرب منها ومن نفسه، كما تعودت منه، كلما ألحَّت عليه في طلب الارتباط. أيام حاسمة في حياة كلٍّ منهما، أرادت أن تبلغه خبرًا مهمًّا، لكنَّه لم يجد ما يجيبها به تحديدًا دون الوقوع في الكذب، فتجاهل الردَّ عليها.

استعان بخرائط غوغل ليعرف مساره، وبدا له الوصول إلى المقهى المطلوب سهلًا نسبيًّا، هكذا توقع. تتحالف معه الأقدار مؤخرًا بكرم فائض يثير دهشته. تقدَّم من المرأتين وسألهما عن المكان، زيادة في التأكُّد، فأجابته إحداهما بلباقة، بلهجة وهرانية، ثم سألته إن كان قد وصل من الجزائر قبل وقت قصير، فأجاب بنبرة لا تشجع على المزيد من الكلام معه، وقد بدا لها شاردًا.

تهامستا بشأنه مرَّة أخرى. ذكَّرهما بالبلاد، وافد جديد ومادَّة خام، لن يلبث طويلًا ليصبح مثل البقية، يشدُّه الحنين للجزائر، دون شجاعة الرجوع النهائي إليها، ناقمًا على الدولة هناك، وملقيًا بالدروس على الآخرين، ناصحًا إياهم بالعمل على إنقاذ بلد يضيع، ويُظهر صبح مساء حبه الصبياني والمشوه للوطن، أو يمضي فيصبح متطرفًا في دينه باحثًا عن معنى لحياته، وينتهي قتيلًا أو مطاردًا. حالة الفصام التي أصابت أجيال ما بعد الاستقلال في بلاد موزعة بين ضفتي المتوسط.

وصل إلى المقهى متحمِّسًا، قطع المسافة من محطة المترو التي نزل فيها إليه مشيًا، ولا بأس بذلك ما دام في الاتجاه الصحيح. وجده يطل على منظر جميل، طلب من النادل قهوة، وراح ينظر من خلال الزجاج إلى المطر المنساب والجو المشبع بالرطوبة. كان الوقت ما يزال مبكرًا عن الموعد، وقرَّر ألا يزعج الرَّجل بهاتفه، استهلك في الانتظار عمرًا، ولن يضرَّه القليل منه. لحقت الدقائق بالدقائق، والساعة بالساعة، وأنهى قهوته وطلب أخرى، ولم يأتِ عبد القادر بن صابر.

هل أخلف موعده؟ كان سيف حظه أعجز من أن يشق شيئًا، ولم يتفاجأ بهذا، خانه حظه دائمًا، وقد فعلها به من جديد. الهاتف مغلق، ورقم الصباح ليس في الخدمة، ولن تنشق السماء حزنًا على خيبة أمله. ستمطر على الأرجح غير مهتمة به. عليه أن يحزن ويندب حظه، أو يضرب

رأسه على أقرب جدار، ويمكن للغيب أن يريحه بأن يعلمه بسرِّ الرجل، وسبب تخلُّفه عن الموعد إن كان لذلك من سبب، لكن ذلك لن يحدث.

لن تتحسن حالته بهذيان بلا معنى كهذا، لماذا وُلد في الأصل ليواجه كل ذلك! انصرف يجلد نفسه بسوط حظه العاثر، وبه نقمة مضاعفة على أمِّه، يودُّ أن يرحل إليها ويواجهها فتجيبه. أخفت عنه هذا في حياتها خوفًا من المواجهة والفضيحة، وراحت تحتمي منه بالموت، حاكمها في سرِّه، ثم سألها دون أمل في أي جواب: من زرعني فيك أيتها الـ..؟

بقي يتسكع في الأرجاء دون وجهة لساعتين، كانت فطيمة تكلِّمه ولا يرد، تعذره، لا يعرف ما الذي يساويه في قلبها. تأمل أن يعود خائبًا، وتجتهد في الدُّعاء. جذوره مبعثرة وأبعد من أن يتحرى عنها فيشفي غليله.. تُمنِّي النَّفس بذلك، ثمَّ تعود فتأكلها الهواجس. إنها تعلم من الله ما لا يعلمه الآخرون، ومع ذلك، يطاردها يقين يزداد وثوقًا يومًا بعد آخر بأن كمال القديم انتهى، وأن الحكاية التي لفقتها بعد وفاة أختها، لتقبر حكاية ملفقة هي الأخرى عند ولادته، لن تنطلي عليه. ليس بهذه البساطة يمكنها أن تقطع شكَّه العتيد، مذ كان طفلًا، توصله للمدرسة وتنتظره عند الخروج، يسأل عنه وما يزال السؤال بعمره، بعمر الخطيئة الأولى.

أخبرها يومًا بأنه سمع خاله يوبخ أمَّه بشأنه، ويطلب منها

أن تأخذه لأبيه، ثم سألها:

- أين هو أبي.. لماذا لا يأتي ليراني؟

لم تكن أسئلة حائرة لطفل غرير، سيدركه الملل منها بعد حين، أسئلة الوجود تكبر ولا تشيخ. اشتبك مرَّة مع زميله في القسم، وعراكه مع خاله يحيى، أيامًا قليلة بعد وفاة فتيحة، له سوابق لا يمكن أن يمحوها النسيان.

صحا الماضي فجأة، ووجدت نفسها معزولة في مواجهته، ووحدها يتوجب عليها دفع الثمن. فتيحة ماتت، وتخفَّفت من الحمل الثقيل، بعدما رمته على كاهلها، أما يحيى فيريد أن يتخلص منه، وينساه الجميع كأنه لم يكن. لماذا قبِل به في البداية؟ تسأل كأنها تلومه، وهي تعرف أن الأمر قد تم برغبة من أختها، أمَّا هما فاكتشفا الحقيقة متأخرين جدًّا. لن يسامحها كمال أبدًا، وسيعتبرها آثمة القلب، ويحمِّلها وزر الجميع. ستواجه فيما بقي من العمر الهوان، وتذهب فلذة كبد اخترعتها إلى غير رجعة.

كأنَّما أُريدَ لفطيمة أن تكبر قبل الأوان، فزُوِّجت وهي صغيرة. كان حظها من التعليم ضئيلًا، ولم يبدُ لحياتها أي أفق إلا أن يكون لها زوج وأولاد، مع أنها كانت تفتقد المهارات الخاصة في ذلك أيضًا. حرص الحاج عثمان في حياته على تعليم أولاده، وأبوه في الأصل كان كاتبًا في البلدية أيام الاستعمار، توارثت العائلة الحفاظ على التقارب مع أي سلطة حاكمة، وكان استمرار ذلك

يحتاج منه إلى تزويدهم بحدٍّ أدنى من التعليم، على الأقل، ليضمنوا ارتقاء اجتماعيًّا يليق بطموحه الكبير.

طالما أحبَّ أن يعوض بهم نقصه. الدولة الفتية تحتاج للمتعلمين، لكن فطيمة، أكثر من يحيى، خيَّبت آماله. فاقتها فتيحة ـ أختها الأصغر منها ـ نباهة، ولمَّا أحضرها للعيش مع أخويها وأمِّهما، بعد وفاة الحاجة زاهية، ظهر الفرق واضحًا بين الطفلتين.

بعد وفاة الحاج عثمان، كان حماس عمِّهم لتعليمهم أقل بكثير، ودون تفكير تقريبًا، أعطى فطيمة زوجة عند بيت الجيجلي، صديق قديم لوالدها ومجاهد حقيقي. كان للجيجلي ابنٌ يُدعى سليمان، أراد أن يلجمه فأمَّن له شقة بـ«بلكور» وأثَّثها، ثم طلب من يحيى وعمِّه يد ابنتهم فوافقا. ظل يحمل ذكرى طيبة عن صديقه الحاج عثمان، وأحبَّ أن تكون فطيمة زوجة لابنه.

رآها لما كانت طفلة تسعى وراء أبيها أحيانًا، أو تأتي لتلعب وهما جالسان في بيت والدها عندما يذهب لزيارته، ولمَّا شاهدها بعد سنوات كانت امرأة كاملة، ليست ذكية ولا ذات جمال خاص، لكنَّ حدسه دفعه بقوة ليخطبها لابنه.

تزوجت فطيمة بسليمان، ثم لم يكتمل عام حتى اختفى، ولم تره بعدها أبدًا، فبقيت في بيت حميها لسنة أو أكثر، ولا أحد يعرف عن زوجها شيئًا. أحسَّت لما أذن لها

حموها بالعودة إلى بيت أبيها بباب الوادي، أنه تلقى رسالة من سليمان، أو سمع عنه خبرًا يفيد بأن أملها فيه مقطوع.

عاملها سليمان طيلة العام الذي قضاه معها ببرود، لكنه لم يهنها، خوفًا من والده، والجيجلي كان ذا سطوة عليه وعلى إخوته. بدت له بليدة، باردة، تشبه امرأة في النهايات. فتاة غضة ممتلئة بدرجة مغرية، نجولة فوق الحدِّ، أما هو فكان قد تعدَّى الثلاثين، ولم تكن فاتحة عهده بالنساء، التهمها بعينين شرهتين في الليلة الأولى، فتجاوبت معه ببطء. في الأشهر التالية لم يمنحها الوقت الكافي لتندمج في الدور الجديد، ظلَّ الانسجام بينهما على السرير، وبعيدًا عنه، دائمًا أقل بكثير مما هو مطلوب، وواجهت صعوبة في التحوُّل من طفلة إلى امرأة.

اعتبر سليمان أن والده عاقبه بها، ذهب ووضع بياناته لدى مكتب اليد العاملة في حسين داي، وهاجر إلى فرنسا مع أول عرض عمل وصله. كان يعرف أن والده له مكانته وأحبابه في كل دوائر الدولة، ويستطيع أن يتدخل ليمنع سفره، لذا قام بكل ذلك في سرية إلا عن بعض أصحابه المقربين. أعلم أباه بقراره النهائي للبقاء في فرنسا، واعتذر عن فعلته، وإن لم تخنه الجرأة في اتهامه بأنه كان السبب في ذلك.

أبقى الجيجلي على فطيمة في بيته على أمل أن يعود ابنه إليها وإلى البيت، ولو مرة في العام، كتب له كاذبًا ليقول له إنها حامل، وإنَّه سيصير أبًا، وعليه أن يعود ليكون

بالقرب من الأم وابنها، لكن الآخر لم يكن ليبالي حتى لو كان ذلك صحيحًا.

طُلِّقت في غياب زوجها ودون إذنها، عندما جعل الجيجلي من نفسه وكيلًا لابنه سليمان، وطلَّقها منه. كان كل ما يجمعهما فاتحة، والعقد لم يوثق في الحالة المدنية. عاد حموها ذات مساء فأخبرها، بنبرة صادقة في الأسف، أن مكتوبها معهم قد انقطع. شعر الرجل بالذنب تجاه تلك اليتيمة، كان عليه أن يتأكد من سلوك ابنه، لم يتوقع أن يتمرد عليه أو أن يهرب، وكانت هي الضحية.

عادت مطلقة في الثامنة عشرة، ثم لم تلبث أن عانت من اختلال في الغدد، فزاد وزنها بصورة مفاجئة. تعايشت مع حظها القليل، وأكملت حياتها ترعى يحيى وفتيحة ومن بعدهما كمال. قضت سنواتها كلها مطعونة بالنصيب الذي لا يكتمل، ولمَّا ألهمها الله البصيرة ونورًا في القلب، جعلت قليلها كثيرًا بالإيمان، وأسكتت حرمانها بالرضا.

ترى نبوءات كثيرة، تحب الله وأولياءه الصالحين، تشفق على الضعفاء والمثقلين بآثامهم، وتوقن أن الله سوف يعوضها عن الزوج الهارب بأن يدخلها الجنة، وتكون إحدى حورياتها، ويتزوجها صحابي أو عبد صالح.

عاشت من أجل الناس، وشملت أمومتها يحيى، وفتيحة وكمال، وآخرين. في الحي كانوا يعرفون فطيمة صادقي، وكيف تعطف على من قست عليهم الحياة، تصلي من

أجلهم، وتساعدهم بما يتاح لها. سخرت منها في إحدى المرات جارة حاقدة، قالت بأنها تظنُّ نفسها أم المؤمنين في باب الوادي، عندما كرَّمتها البلدية في نهاية سنوات الثمانينيات، بمناسبة يوم المرأة، تقديرًا لأعمالها التطوُّعية.

فهمت من يحيى وقتها أن دوافع التكريم لم تكن بريئة، لأن جماعة حزب السلطة أرادوا استغلال صورتها الطيبة في الانتخابات البلدية القادمة، وعُرض عليها في المقابل أيضًا أن تكون في خدمة الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وتتكفَّل بالدعوة في صفوف النساء، بمدينة تعودن فيها على السفور ومخالطة الرجال، فلم توافق رغم مكانة يحيى في قلبها. تعلَّمت من تجربتها القاسية بألا تسمح لأحد بأن يوجه حياتها حسب حاجته، والسبب الأقوى أنها كانت تخشى من تديُّنهم العنيف والصِّدامي. أخبرت شقيقها ذلك بلطف لكي لا تخسره. تعرف ربها بقلبها، وقد ألهمها كيف تكون في خدمته.

أُلغي المسار الانتخابي عام ٩٢ وطاردت الدولة أعضاء الحزب المحلِّ، فاعتقل يحيى في الصحراء، ثم أُطلق سراحه، وصعد بعد شهرين إلى الجبال. عانت الأسرة من حملات التفتيش المفاجئة التي كان يقوم بها زوَّار الليل الملثمون. كانت فطيمة محلَّ اشتباه دائم، وفوقها الخوف على يحيى الذي لم يسمعوا عنه أي خبر لثلاث سنوات.

صار كمال هو رجل البيت في غيابه، قام بكل ما طلبتاه منه، طحنته الظروف وتعلَّم الكثير، وفي المقابل كبر

بسرعة ونال ثقتهما، وتركاه على حريته الكاملة. عندما نزل يحيى من الجبل بعد قانون الوئام المدني، اتهمهما بإفساد أخلاقه، وهي خاصة، وأتلف كل أشرطة أغاني الرَّاي التي وجدها في غرفته.

لم تشعر يومًا بحاجتها لشيء، كل ما لديها فضول نقود، تخصصها لمساهمتها في مصروف البيت. أنفقت دائمًا الحصة الأكبر من نصيبها، في ريع كراء المحلين، على من يحتاجونه حقًّا. أهل الطريق، المرضى، الفقراء، المشردون.. تفرغ فيهم فائض حبها، وتنهمر عليهم عاطفيًّا بكل طاقتها. منهم من كان يستحق، وقلة اخترعوا الحاجات واستغلوها وهي تعلم، كانت مثل الغيمة تروي الجميع ولا تبالي. يناديها صغار الحيِّ بـ(يمَّا) فطيمة، ويثق فيها الكبار فيعطونها زكاتهم وصدقاتهم، لتتولى توزيعها، لأنها تعرف المحتاجين فعلًا وقلبها يدلُّها عليهم.

يتبرَّم يحيى أحيانًا مما تقوم به، وينصحها بأن تترك شيئًا لاحتياجاتها، نفسك أيضًا تستحق أن تكوني كريمة معها يا فطيمة، يخاطبها بمحبة، فتجيبه بأن الله وعدها نعيمًا لا يزول. تعجزه باليقين فيلزم الصمت خجلًا من نفسه. أوصاه أبوه الحاج عثمان بأختيه، وفطيمة صادقة الإيمان وأقربهم إلى الله، يخاف أن يمسها بسوء حتى دون قصد فيحلَّ عليه غضب من ربِّه.

عادت من السوق، تحمل تعبًا في غير أوانه، وتمسك بدمعة أن تفضحها أمام الناس فيعرفوا أنها محض عجوز

خائبة يركبها النحس. خيبة في زوج هرب منها سريعًا، ورحم قاحلة. تصعد درجات السلم وترى كمال مثل خيال يتمنَّع عليها، أو كطيف يمكن أن يتكرم ويأتي، لتبقى شريدة القلب. تركها يحيى وحيدة كما يفعل كل شهر.

منذ تشاجرا وهرب كمال من البيت أصبحت وحدتها مضاعفة، وقبل أن يتصالحا وجدها تتكلم معه نخطف الهاتف من يدها وحطَّمه، ورقم كمال كان مدونًا عليه وهي لا تحفظه. عاشت شهرًا فجائعيًّا، ثم ها هي تمسح بكمِّ جبتها العريضة دموعها الحارة، ينتابها حزن وندم وأشياء أخرى.

كان رحيل فتيحة وشيكًا، فأرادت أن تتخفَّف من كل خطاياها، ولم تبقَ لها سوى فسحة من وقت تضيق بسرعة ليصبح معها ترف التأجيل من الماضي. الموت مرٌّ، وأمرُّ منه أن تنتهي حياتها وحياة ابنها ما تزال ملفقة بإفكٍ كبير، لتبوء بإثمه إلى يوم القيامة. عند الموت لا يصح إلا الصحيح. قطعت على نفسها عهدًا منذ زمن، وعزمت على الوفاء به، بألا تترك كمال جاهلًا ببدايته وملتبس الوجهة للأبد.

رأته متبرمًا وصدره يضيق بكل شيء فدفعته للسفر، وأقنعته بأن يخفف عن خاطره بالذهاب إلى أي مكان، وألَّا يحمل همَّها. وصلت حالتها للحضيض، ولن تأتي عليها لحظة تكون فيها أسوأ مما هي عليه. ذهب إلى إسطنبول لأيام، عندما ألحَّت عليه بأن يسافر، ليكون الوفاء بالعهد

أقل صعوبة في غيابه. آلمها قليلًا أن وافق وتركها تموت من خلفه، لم تحقد عليه، تعرف أنه طيب ويحبها، لكن قسوة أبيه طبعت عليه.

كانت تنوي أن تواجهه، ليسمع الحقيقة منها، وليس من أي أحد آخر، ثم عرفت أنَّ مرضها لن يشفع لها أمام غضبه. لن تتحمل نظرة أو كلمة تجرحها وهي تحتضر، سيكون موتها حينها أعمق وأشد. من الأفضل لها ألا يكون معها في تلك الساعة التي تقطع فيها الحد الفاصل بين الحياة والموت، أعفت نفسها من أن ترى ذنبها الأعظم يقف مفجوعًا برحيلها، يعتقد أنها أفضل أداة اخترعها القدر لإسعاده، ثم يلعنها بعد ذلك لعنًا كبيرًا.

سافر كمال فأوصت أختها بما يجب أن يعلمه، فقط عندما تموت يمكنها أن تخبره، شدَّدت عليها. تعرف فطيمة الحكاية كلها، لكنَّ لفتيحة وحدها الحق بإفشائها لتظهر الحقيقة عارية، وقد فعلت ذلك بشجاعة. الموت يمنح المحتضر شجاعة استثنائية.

أهلكها العلاج الكيماوي، وأدركت أن حياتها توشك على الانتهاء، وكلام الأطباء عن ضرورة الأمل في الله لن ينفع معها هي تحديدًا، فتلك بضاعة تعرفها جيدًا. عملت بمستشفى مصطفى باشا الجامعي لسنوات طويلة، وُضعت في غرفة وحدها إكرامًا لها، بعض زملائها وزميلاتها تدرَّب على يديها، وهم يقدرونها. اعتنوا بها لكن فيمَ يفيد ذلك؟

جلست أختها إلى جوارها لا تبكي، لكن جزعة إلى آخر مدى. سألتها إن كانت تحب أن تسمع صوته، لم تقل لها للمرة الأخيرة، فهمت أن كل شيء قد انتهى، وكان أعظم ما تتمناه هو أن يسامحها. اتصل بها ولم ترد عليه، كانت ضعيفة وتتعجل الموت لترتاح.

تعرف فتيحة أنها جنت عليه، ذرفت دموعًا على ملامح شبه ميتة، ستشتاق له، وعندما يلتقيان هناك ستشرح له كل شيء وسيتفهَّم، تعرف من أي طينة هو، عجنته بيديها ولن يكون جهدها في تربيته هباءً خالصًا. تخشى أن تبقى معلقة في الآخرة تنتظر عفوه. لم تذنب في حقه، تقول لنفسها أحيانًا، كان سيضيع ويعيش طفولته بائسًا ومعلَّقا. عندما يعرف كل شيء سيكون له أن يقدِّر جيدًا ما قدمته له. لن يجحد فضلها الأخير هذا على الأقل، لم تشأ أن تتركه مستباحًا من الظنون وتائهًا إلى الأبد.

أما خالته فبقيت متمسكة به، فضَّلت أن تكتم وصية أختها على أن تفقده، وعندما تشاجر مع شقيقها لم يبقَ لها من الأمر بدٌّ. أجبرها يحيى أن تقول له كل شيء. كانا معًا، أوصتهما فتيحة معًا، ترافق كل جملة تتفوه بها، بعد عناء كبير، دمعة وأسى. لم يمنح لها ضعفها فرصة أن تبكي كما تشتهي. سمحوا لهم بالمبيت معها، وفي المساء ظلت فطيمة واقفة عند رأسها، ولقنها يحيى الشهادة دون توقف، بدا ضعيفًا ومهزوزًا، مثل رجل لم يجرب رحيل أخ أو أخت من قبل. سمح لدموعه أن تنهمر لأول مرة

أمام أحدهم، وكفكفها لما دخلت الممرضة، مبديًا جلدًا وتماسكًا يليق بمن جابه الموت عشرات المرات في الماضي.

فهم كمال أن أمه طلبت منه أن يسافر إلى تركيا لكيلا تضعف أمامه، أو ترى نظرة كره في عينيه وهي تحتضر، رهانات صعبة، وكان عليها أن تختار الأقل ألمًا. قصَّت عليه خالته حكاية أبيه الذي تخلى عنه، وسافر إلى فرنسا بعد أن وُلد هو. كان يعاني من اضطرابات نفسية، قالت له، ولم تصرَّ عليه أمُّك ليبقى لأنه أصبح عبئًا ثقيلًا عليها. أملت أن يعالج ويُشفى ثم يعود لتصبح الحياة بينهما ممكنة.

لم نره بعدها أبدًا، له صديق يُدعى عبد القادر بن صابر كان رسولًا بيننا وبينه، وكنت في الحادية عشرة عندما زارنا مرة وأخبر خالك بأن أباك قد مات. يعيش ذلك الرجل في فرنسا، في مدينة ليون، أكملت تخبره، وتوقعت أن يكون شيخًا كبيرًا، وقد طلبت منك أمك أن تسافر إليه ليحدثك عن والدك، وتعرف الحقيقة، إذا أردت.

سمع هذه القصة مرارًا، أي جديد حملته إليه خالته عدا أن أباه كان مجنونًا، وأن هناك رجلًا يعرفه طلبت منه السفر إليه؟ وهو أعليه أن يصدِّقها ليرتاح ويعيش حياته؟ وإن صدَّقها فأين يذهب بحيرته الأولى، وهي حيرة لها أساس وليست متوهمة.. لماذا نعته خاله باللقيط مرتين، مرة في طفولته وأخرى أثناء شجارهما الأخير، ولمَ لم يرَ أبدًا عقد زواج والديه، ولماذا ولادته مثبتة في سجلات الميلاد بناء على تصريح أمه، وليس عن بيان ولادة من

المستشفى.. ممن أنجبته ثمَّ ماتت وتركته حائرًا؟

جلس هو وفطيمة في غرفة أمِّه، وواجهها بأسئلة كثيرة، أليس لوالده عائلة ليسأل عنه؟ لم تجبه، كان يحيى يسمع كل شيء من الغرفة الأخرى، وودَّ لو يقول له الحقيقة كاملة لولا أن فطيمة توسلت إليه بألَّا يتدخل.

كلَّمته في فرنسا، وتمنَّت أن يرد عليها فيخبرها بأنَّه لم يعثر على شيء، والرجل الذي أوصته أمُّه بالذهاب إليه لا يساعده.. وبأنَّه قد ملَّ، ويرغب في العودة إليها. حينها ستذهب لتقف عند قبر أختها وتقرأ لها الفاتحة وتدعو لها، ثم تخبرها بأن كمال سيبقى معها، لتظلَّ سعيدة به، وأنَّ الله لا يكسر خاطر عبد أحبه صادقًا.

أوى إلى غرفته في الفندق لا يلوي على شيء. وقف تحت مرش الدوش وصبَّ الماء فوق بدنه لعشر دقائق، عندما دخل وجد عاملة النظافة تهيئ الغرفة فاستعجلها، وكان قد طلب منهم في الاستقبال قبل ذلك ألَّا يزعجوه لأي سبب. أراد أن يختلي بنفسه، أو يختبئ منها. كان تائهًا في يومه أو يعيش أمسًا أبديًّا. لم يسفر صباحه عمَّا كان يتطلع إليه، كان ذنبه وحده، فقد رفع سقف توقعاته منه، ثم جعل يحمِّله تبعات كل الأشهر الماضية.

لن يسمح للماضي بأن يأسره إلى ما لا نهاية، لفَّ نفسه بمنشفة كبيرة، وجلس على كرسي مادًّا رجليه للأمام. مهما كانت نتائج سفره هذا فإن العودة إلى الخلف تبدو

خارج أي منطق. لم يكن الهروب هاجسًا يؤرقه، يحبُّ آلجي وينسجم معها تمامًا، يشعر بأنه في مكانه الطبيعي والمناسب، لكن بعد ما حدث لن تبقى مدينته المفضلة، وفي الأصل ليس لديه فيها أصدقاء، وما عاشه فيها سيحمله في ذاكرته.

سوف يبقى هنا إذا لزم الأمر، يتجه لاتخاذ ذلك القرار، ومع ذلك لا شيء نهائي، رغم الإشارات القوية. قد تتحقق له مكاسب نفسية عظيمة إذا أفلت من الأمس، استغرق في التفكير يمنّي نفسه، وسيبدأ حياته في بلاد أخرى، مثل آدم جديد بلا أب ولا أمٍّ، هبط من جنَّة تأكل أبناءها.

راودته الفكرة كثيرًا خلال السنوات الماضية، ولم يعزم على القيام بمحاولات جادَّة قَطُّ. نظريًّا بدت له الهجرة حلًّا، وعمليًّا يكون قد أصبح مهاجرًا بالفعل من اللحظة التي قد يقرر فيها بصورة قاطعة ألا يعود للجزائر، وإن لم تكن تلك نيته من البداية. لا يعود، ويهرب من الحياة هناك حتى لو كان كلُّ المتاح أمامه، في الغربة، هو انتظار الموت.

ما يشقُّ عليه حقًّا هو أن يخلف وعده للهاشمي دبُّوز، ويكسر التأشيرة، فلا يدخل للبلاد قبل انتهاء مدة صلاحيتها. كان شهمًا معه، ولا يحب أن يخذله، لكيلا يتهم بأنه يسهِّل الهجرة من خلال شركته ويفقد مصداقيته. علاقات الهاشمي دبُّوز ببعض الشخصيات

النافذة قوية، وأمواله كثيرة، هو من الرأسمالية الطفيلية التي تتغذى على الريع النفطي، ولن تضرَّه حالة شاذَّة مثل حالته.. حاول أن يبرِّر لنفسه.

تعرَّف إليه مصادفة، ذات صباح بينما كان جالسًا في مقهى، لم يكن هناك طاولات شاغرة، فاستأذنه الهاشمي دبُّوز في الجلوس معه. تبادلا حديثًا عامًّا، وفهم منه أنه دون عمل دائم. عرض عليه أن يعمل عنده، يجيد لغتين أجنبيتين وقدَّر من كلامه أنه سيؤدي الوظيفة بكفاءة. شرح له أنه بحاجة لمن يدير له مكتبه. لا يستطيع البقاء فيه طوال الوقت، ويكتفي بالمرور كلما كان ذلك ضروريًّا. سكرتير، مدير مكتب.. شيء من هذا القبيل.

صارحه بأنَّه جرَّب الكثير من النساء، ولم ينجحن في أداء المطلوب منهن، بسبب طبيعة العمل وارتباطاتهن الأسرية. عليه أن يقوم مقامه في تصريف بعض الأمور، مثل التواصل مع زبائن الجملة، طلبيات الشركات، الموزعين، الذهاب للبنك، التنقل إلى بجاية حيث المستودعات الرئيسية.

اعتبر كمال أنَّ ما يطلبه منه صعب ومجهد، ولا خبرة له فيه، لكنَّ الرجل ظلَّ يقنعه حتى وافق. بدأ العمل عنده بعد ساعتين من تعارفهما. تذكَّر معاناته مع التعليم الذي يكرهه، وبحثه العبثي في المواقع والصفحات عن وظيفة تناسبه، وسيره في الشوارع كلَّ يوم بلا أمل والفراغ الذي يلتهمه، فقبل بحماس ضئيل، وليجرِّب نفسه في ميدان بعيد

عن دراسته وخبراته السابقة، رغم أنَّ الأجر الذي عرضه عليه، ولم يكن قابلًا للتفاوض، لا يجزي عن الجهد الذي يفترض أن يبذله.

قدَّم له خدمة جليلة، وطلب منه أن يعود للعمل معه عندما يرجع من السَّفر. أصغى إليه، وهو ينصحه بأن يترك نفسه للحياة، ويتخلَّى عن الأحكام المسبقة لأنَّها ستتعبه، وتوجه اختياراته بصورة غير واقعية، وختم يقول له: الواقع يفرض شروطه في النهاية.

لم يتعود على الكذب، لذا سيكتفي بالصمت ولن يقول له شيئًا، ويمكنه أن يعتذر له لاحقًا، أو قد ينساه الهاشمي دبُّوز كأنه لم يعده بشيء. الرجل نفسه أوحى له بالتبرير الأخلاقي لظروف استثنائية مشابهة، وانتهاك المعايير قد يكون حلًّا، والأكيد أنه سيفكر ألف مرة قبل أن يقرر العودة، لا يحبُّ أن يرجع ليجد كل الماضي في انتظاره، وتمضي حياته على منوال ما سبق. هناك، في آلجي، أمسٌ أطول من يوم القيامة سيلاحقه.

ليس له من يستعين به إذا بقي هنا. جاء بعض من يعرفهم إلى فرنسا على فترات، ولا أحد منهم مقرَّب له حتى لو عرف طريق الوصول إليه. وضع المنشفة فوق مدفأة الحمَّام، ودخل تحت البطانية عاريًا، تذهب به فكرة وتعود به أخرى. راح يستذكر الأسماء الممكنة، أغلبها طواها النسيان، وقليلون جدًّا احتمالات أن يساعدوه ضعيفة أو معدومة.

كان يفكر بتركيز أكبر، كأنه عزم حقًّا على البقاء، والأمر مقرَّر لا رجعة فيه. استسلم للفكرة، واعتبر أن عبد القادر بن صابر لن يكون في متناوله أبدًا، أو يمكن أن يكون مجرد فقاعة تافهة يضيِّع وقته بملاحقتها.

نام ثم أفاق دون أن يعرف كم استغرق من الوقت. استأنف التفكير فيما كان يفكر فيه قبل نومه، وتبادر إلى ذهنه دون جهد اسم كاترين رافو، ابنة صاحب بيتهم الأول في باب الوادي، الذي خرج من الجزائر عند الاستقلال. بدت له تلك المرأة أفضل من يمكن أن يقف معه، وقام نشيطًا على نحو ما، بأقل منسوب من السواد في أعماقه منذ فترة طويلة. أحبَّ أن يوهم نفسه بأنه وجد حلًّا ممكنًا لتجاوز محنته، واعتبر أن ما يواجهه ليس مسألة حياة أو موت، وللحياة دائمًا أكثر من أفق متاح.

ستر بدنه بأي شيء كيفما اتفق، وفتح النافذة. كان الجو قد تحسَّن قليلًا، أشعل سيجارة ونفث دخانها إلى الخارج، وقد عزم على مراسلة كاترين رافو على عنوان بريد إلكتروني كان يتواصل معها من خلاله في سنوات سابقة.

عندما سألها كمال حينها عمَّا دفعها للعودة، أجابته بتأثُّر: الحنين. قضت سنوات طفولتها الأولى في ذلك البيت. أشياء كثيرة تغيَّرت، هي ذاتها أصبحت عجوزًا تقريبًا، والبيت لم يعد هو هو، وإن حافظ على هندسته، الإضافات

كانت طاغية. طابقت كاترين رافو بين مشاهداتها، وبين ما تحتفظ به في ذاكرتها، ووجدت أن الفارق كبير. تأسفت قليلًا من أجل ذلك، الروح التي تسري بين الغرف والجدران لم تعد هي نفسها، أو تكون هي من تغيَّرت. من الافتراء على الزمن أن ننتظر منه الإبقاء على الأشياء كما هي بعد مروره الطويل عليها.

ذات صيف قائظ في عام لا يذكره، وصلت إليهم رسالة بالبريد العادي، واضحة ومختصرة، ومليئة بالتوسُّل. امرأة فرنسية تعمل معدَّة برامج في قناة إذاعية حكومية، غادرت الجزائر بعد الاستقلال مع والدها، وهي طفلة بعمر عشر سنوات، وتتمنى أن يسمحوا لها بزيارة البيت الذي ولدت فيه وعاشت سنوات حياتها الأولى.

ردَّ عليها كمال دون استشارة أحد، ومع انتهاء الخريف، كانت كاترين رافو تخبره بموعد الزيارة، وترجو أن يكون مناسبًا، مع وعد بعدم التسبب بأي إزعاج.

تلقَّى منها رسالة إلكترونية تفيد بتوقيت هبوط الطائرة، فذهب وأحضرها من المطار مباشرة، وعندما دقَّ جرس الباب وفتح يحيى، أخبره دون مقدمات بأنها صاحبة البيت. أفسح لهما يحيى الطريق للدخول، وقد سبَّبت له الصفة التي قدَّمها بها كمال ألمًا لم يفهم سببه. ساير الوقائع على مضض، وقدَّر أنه ما من ضرر إذا كان الأمر يتوقف عند زيارة يتيمة مثل هذه.

أعادت عليهم كاترين رافو كيف تعذبوا بعد مغادرتهم للجزائر، نحو مليون إنسان غادروا وطنهم، وكانت المأساة كبيرة. بقي والدها ممتنًّا للحاج عثمان الذي أعاد له بعض ما لم يستطع نقله عند خروجه من هنا. أحبَّ والدي الجزائر كثيرًا، وإلى غاية يوم موته بقي يعتبرها وطنه الحقيقي، قالت لهم ذلك أكثر من مرَّة، وهي تطوف بأرجاء البيت، وتطل من نوافذه وشرفاته.

لم يبالِ يحيى بكلامها كثيرًا، احترم وفاءها لذكرى والدها، وإنسانيتها، لكنهم كانوا بنظره دخلاء لفظهم التاريخ من جغرافيا انتموا إليها غصبًا، أمَّا كمال فصدَّق مقدار الحب الذي أبدته للمكان وما ذكرته عن حبِّ والدها للجزائر. بعض الكولون ـ المعمِّرين أحبُّوا الجزائر أكثر من بعض أهلها الأصليين، وعمروها وخلَّفوا بعد خروجهم الكبير منها العمران والمزارع. وهم على الأقل أفضل ممن حكموها باسم الثورة والوطنية واتخذوا البلد ملكية خاصة.

دلَّتهم على غرفتها التي أصبحت غرفة كمال، وأوجعها التباعد بين الذاكرة والحاضر قليلًا، ثم وقفت في شرفتها تنظر إلى آلجي السفلى. تغيَّرت أشياء كثيرة، لاحظت ذلك عندما كانت في الطريق إلى هنا. التقطت الكثير من الصور، وبقيت عندهم ثلاث ساعات، شرحت لهم أثناءها كيف شيَّد جدُّها ووالده البيت، وما الذي كان يمثله في تاريخ العائلة، ثم شكرتهم على العناية به وصيانته وهي تهمُّ بالمغادرة. وفي النهاية طلبت من كمال أن يرافقها

إلى المقبرة، لتقف عند قبر جدَّتها.

بينما كان مستغرقًا في ذلك، كلَّمه عبد القادر بن صابر، وبدا على صوته أثر السن والتعب. اعتذر له عمَّا حدث، وأعطاه موعدًا جديدًا على الخامسة مساء. فهم منه أنه يسكن في حي بالضاحية الشمالية للمدينة. فكَّر أن يحجز على أول رحلة ويعود أدراجه. تعب قلبه من ذلك العبث. كره لعبة الذهاب والإياب المهلكة، كما راوده أمل آخر تمنى أن يكون حقيقيًّا.

أجاب خاله بأنه لم يلتقِ بعبد القادر بن صابر، لما سأله عنه قبل ذلك، «إنه مجنون، وقد لا تراه أبدًا!»، هكذا علَّق، وزاد من شحنة التوتر والغيظ بداخله. أخبره أن عمي عيسى بانتظاره، إذا أراد الذهاب والبقاء عنده، والعنوان مدوَّن في مفكرة داخل حقيبته. أقلقه حرص خاله عليه، وإصراره على الذهاب لمن وصفه بالصديق الحميم.

سيبيت ليلته الثانية في الفندق، هكذا قرَّر، وكل شيء رهين بما كان سيجري في مسائه ذاك. لم يكن ليفلت تلك الفرصة، نوى أن يكفَّ عن أن يكون رجلًا فاشلًا، كما وصفه خاله يحيى دائمًا، مهما خابت ظنونه في البشر والأقدار التي تعاكسه كأنها تصدت له وحده دون الناس.

عند الخامسة وقف أمام باب شقة، في الطابق الثاني من بناية قديمة نسبيًّا، وُصف له عنوانها بدقة. دقَّ جرس الباب

مرة ومرتين بإصرار، الباب موصد في وجهه، ويرقب أن يأتيه من خلفه ألف فرج قريب. لم يكن يبدو أن أحدًا بالداخل. كان الشيخ يجر قدميه المتخشبتين من قلة الحركة جرًّا إذ يتجه صوب الباب ليفتحه، وقلبه يخفق مترقبًا ما فعلت هذه السنوات الطويلة بطفل رآه مرات قليلة، ثم انقطع عنه عندما كان شابًّا، تناسيًا لذنب سيكبر معه. كان الله موجودًا في نظره، لكنه يرفض أن يؤمن به ذلك الإيمان الذي يقود للانقياد والتسليم، ثم صار هاجسًا يغشى قلبه ويحيط بكيانه كله، وكانت تبعات تقلباته الإيمانية أليمة عليه، كما تجاوزته إلى آخرين.

كان قلب كمال ينبض، في تلك الثواني، على إيقاع خاص، وليس معه إلا إرادته ومجموعة صور يحملها مع وثائقه الشخصية في حقيبة صغيرة، يعلقها على كتفه، طالما اعتبرها لا تعني شيئًا، الفرق بين الحقيقة وظلها واضح ولن يخدع نفسه. يودُّ أن يسأله بكل الرجاء الممكن عن صاحب الصور. أمست ذات أهمية خاصة، ثم هذا الرجل، هو ذاته باب لتاريخ مدفون يريد أن يستظهره.

خطوات عبد القادر بن صابر بطيئة، كأن رجليه المثقلتين عقارب ساعة أخرى، تسوم كمال سوء الانتظار. فتح الباب بملامح تبدو جامدة، محايدة، تليق بمن ينكر كل من حوله. رأى كمال أمامه أخيرًا الرجل الذي يحمل معه حلًّا للغز حياته. مدَّ يده إليه مبديًا أقصى درجات الثبات، بينما تمعَّن الشيخ في وجهه كمن يبحث عن تشابه ما..

فتح ذراعيه، وضمَّه بقوة لا تتناسب مع جموده قبل ثوانٍ، تجاوب كمال معه واحتضنه يطوق جسده الضخم المترهل. تولد الشرور في لحظة غضب أو طمع، كرَّر الشيخ ذلك في أعماقه، وتصاعدت أنفاسه إرهاقًا وشوقًا. كان رجلًا قوي البنية لكن الزمن أضعفه.

٤

استقبل آخر المعزِّين، ثمَّ ألزمته نزلةُ برد السرير. جلست خالته بالقرب منه تبكي أختها، الأصغر منها، بصمت لكن بحرقة. بدت قليلة الصبر أكثر منه، وتبكي عن نفسها وبدلًا عنه، وكيف أنه سيبقى بلا ظهر بعد وفاة فتيحة، وهي أضعف من أن تعوض غيابها ولو قليلًا. رقَّ لحال المرأة التي بقيت على قيد الحياة، أكثر من أمه التي فارقتها دون بصمة واضحة تقريبًا. الموت يتوالد، يأتي فتتبعه ميتات أخرى، لا تشبهه تمامًا، لكنها مثله تمحو الأشياء إلى الأبد.

راودته منذ الأمس فكرة أن يكتري شقة، ويأخذها للعيش معه. أراد أن يعمِّر حياة جديدة، بعيدًا عن يحيى، وعن البيت الذي شعر فيه بوحشة غريبة، وجثمان أمه يرقد فيه. بدأ يكرهه واعتبر ألا شيء فيه يعنيه. أشفق على نفسه إن رحل وحيدًا ألَّا يجد من يؤازره، وأحبَّ أن يستعيض بفطيمة عن أمه. كانت مجرد فكرة يصعب تحقيقها، وهو المفلس الأبدي، لم يستمر في أي عمل أكثر من عام، ولا يملك موهبة في شيء مما يتعلق بكسب المال، وليس تاجرًا بالفطرة.

يكره جلد ذاته بسوط التقصير، ويتخذ موقفًا وسطًا أحيانًا، وقد بذل ما في وسعه رغم يقينه أن الآفاق في هذا البلد محدودة. هذا ما يقوله لنفسه، في كل مرة، إذا أراد أن يضفي مسحة فخر زائف على مساره منذ تخرج من

الجامعة، ثم يعود للإنصاف فيُقرُّ بأنه فاشل وكسول وبلا عزيمة. يصف نفسه بقليل الحظ، إذا كان المقصود أن يكون أكثر تعاطفًا مع ذاته، لكنه أيضًا لم يبذل ما يغالب به سوء طالعه.

بدأ يعمل موظفًا في إدارة فندق كبير مملوك للدولة، فرصة ذهبية لشاب تخرَّج حديثًا، يتقن لغتين أجنبيتين والحاجة إليه ماسة، والزبائن غالبًا هم رجال أعمال. لن يطلب وضعًا أفضل ليحقق طموحاته، وحيث يعمل بدا للجميع ذكيًّا ولمَّاحًا، وأن له مستقبلًا رائعًا، وهذا من الإنصاف قوله أيضًا، دون الخوف من وضع مسحة فخر زائف، لكن لعنة بعيدة كانت تطارده. تَقرَّر تغيير إدارة الفندق، واعتُبر عمالة زائدة، فوجد نفسه مخيَّرًا بين أن يكون نادلًا، وبين الرحيل، فأُنهي عقده وأصبح عاطلًا.

بقي بطَّالًا لأشهر لم يحسبها، ثم توسطت له أمه عند مدير أجرى عملية جراحية لزوجته بالمستشفى، فأصبح أستاذًا مستخلفًا للغة الإنجليزية بثانوية بضواحي العاصمة، الأستاذة الأصلية استفادت من عطلة أمومة، وكان على الإدارة استخلافها. اضطرب بعدها في أكثر من عمل، مدرِّس للغة الإنجليزية في مدرسة خاصة، عامل في محل لبيع الهواتف النقالة، وسائق خاص لمحامية عجوز، طمعت في شبابه، وحاولت أن تبتزه، فصفعها في مكتبها وانصرف. سمع بعدها أن رجلًا أبكم، كان يعمل ساعيًا لديها، قد خنقها لأسباب مجهولة. كما اشتغل في مكتب

ترجمة رسمية، ثم مكلَّفًا بالتوزيع في مؤسسة للمنتجات شبه الصيدلانية، أرهقته المسافات فتخلَّى عن الوظيفة بعد شهر واحد، لكنَّه تعرَّف خلالها على آسيا.

عمل آخر مرة في فرع بالعاصمة، لشركة تستورد العجلات مقرها في بجاية، كان عليه بذل الكثير من الجهد نظير أجر لم يجده مجزيًا، ومع ذلك لم يجد بدًّا من الاستمرار ريثما يجد فرصة أفضل، والأيام ليست كريمة معه دومًا حتى تمنح له الفرص الأفضل مع مطلع كل نهار. في النهاية، استغنى عنه صاحبها، الهاشمي دبّوز، عندما رفض أن يوصل ظرفًا به مبلغ كبير من المال، عرف أنه رشوة، لمسئول في الجمارك بميناء العاصمة حتى يفرج عن شحنة محتجزة تنتظر «التخليص». أراد أن يرسل معه المبلغ ويراقبه من بعيد خوفًا من التلبُّس، أو هكذا ظنَّ هو، لأنَّ ربَّ عمله لم يتعامل مع ذلك الجمركي من قبل. ليس ممن تعنيهم المثالية في شيء، لذا سوَّى حساب الشهر معه، وغادر دون تقديم النصح لمن لا يريده.

في المساء ذاته، أعطى الجزء الأكبر من حساب ذلك الشهر لرجل لا يعرفه، جلس قبالته في مقهى اعتاد ارتياده بالقرب من ساحة أودان. فعل ذلك تقربًا لله كي يشفي أمه. سجَّل المتسول، الأكثر أناقة منه، رقم هاتفه واعدًا إياه برد الدَّين في أجل قريب. لم يهتم كثيرًا بوعده وبمديحه، قام وذهب إلى النادي، وشرب بما بقي له عبوتي بيرة رخيصة، ورجع إلى البيت غير عابئ بشيء. لم يتصل

به الرجل لاحقًا ليرد له نقوده أو ليعتذر، وماتت أمه بعدها بثلاثة أشهر وثمانية أيام.

اقترح عليه مديره السابق في الفندق، رابحي علي، وظيفة في مؤسسة خاصَّة، تقدم خدمات لشركة نفط في حقل غاز بإليزي، جنوبي البلاد. ظروف الطبيعة صعبة لكن الراتب مغرٍ جدًّا، قال الرجل يحفزه، فشكره وقدم رفضًا لينًا معللًا بحجة واهية. لم يكن متأكدًا من التكيف هناك، ولا راغبًا في أن يخيب ظنَّه، بأن يترك الوظيفة بعد أيام من شغلها.

استقبله في بيته بكرم زائد، وأثنى على أدائه عندما عمل معه في الفندق. شرح له كيف تمت تنحيته من إدارة الفندق. الإطارات السامية ضحايا دائمون للصراع في منظومة الحكم، أضاف يوضح له. الرأس مريض والجسم يتخبَّط، وحلفاؤه يحضرون خطتهم للعودة. البلد مختطف ويجب استرجاعه، استمع إليه كمال، وهو يحدِّثه عن وقائع خيالية تحدث للاستحواذ على السلطة والمال، وتفاجأ عندما أعلمه بأنه قد يستعين به مستقبلًا.

بشَّره بتغييرات عاصفة قادمة، وربما تكون وشيكة. الناس يتذمَّرون، والوطنيون في الهيئات الصلبة لن يقفوا مكتوفي الأيدي طويلًا. لمس شيئًا من الصدق في نبرته، مع أنه لم يستوعب كل ما سمعه منه. اكتفى بالاستماع إليه والتأمين على أقواله، رغم أنَّ في خطابه نبرة تلقين لا يحبها. أحسَّ أنه تجاوز حدوده وأغضبه، في المرة الوحيدة التي

استدرك فيها عليه، لما طرح عليه سؤالًا خرج بعفوية تامة وقال له:

ـ ولماذا لا يُترك القرار للشعب ليقول كلمته؟

ابتسم له مديره السابق، السيد رابحي علي، ليوحي له بسذاجة تفكيره، ثم أجابه:

ـ ما زال الوقت طويلًا جدًّا حتى يكون للناس في هذا البلد حرية الاختيار.. وما هو عاجل وضروري، في هذه المرحلة، هو إنقاذ الدولة وإعادتها إلى الاتجاه الوطني، بعد أن حرفها عن مسارها الصحيح كلاب فرنسا المنتشرون في دواليبها.

قام الرجل، وأحضر من درج مكتبه ظرفًا به حزمة سميكة من الأوراق النقدية، ليسلمه إياه، لكن كمال رفض بشدة، وتغير لون وجهه. لم يضغط عليه ليوافق، سكت قليلًا، ثم استأذن للانصراف لما أحس أنها جلسة تسول غير معلن. وطلب منه أن يتولى تقديم دروس دعم في الإنجليزية لابنته المقبلة على الانتقال للثانوي. انصرف من عنده شاكرًا، عاد ودرَّسها مرتين ثم انقطع.

كان سيتحجج إن لامه عن انقطاعه بأنهم يسكنون بعيدًا، والمسافة إليها في الحافلة تتعبه، وكان الرجل سيكفيه عناء ذلك بأن يرسل له السيارة والسائق ليسهل عليه المجيء، فتبطل حجته. وجد مستوى الفتاة لا بأس به، وعرف أنه أراد أن يقدم له صدقة مبطنة. كره أن يكذب

فأغلق هاتفه، وأنهى الأمر دون تبرير.

ليست مشكلته في جيبه، ولم يحتج يومًا للاقتراض من أحد، ولا تطلَّع لما في أيدي الآخرين، التعفف ليس باللسان وهو يعرف نفسه. يشعر دائمًا أنه منذور لما هو أكبر.. لأن يسخِّر حياته لشيء يسكن صدره، ولم يجرؤ أبدًا على البوح به لأي شخص مهما كان قريبًا منه. ومع ذلك، لا تضلله الأوهام فيما يرتبط بمستقبله، فهو متأكد أن عليه، بعد وفاة والدته، الاعتماد على نفسه. تأبى عليه كرامته، وخاله لن يدخل قطعًا في قائمة من يمكنه طلب المساعدة منهم.

كانت أمه وخالته تساعدانه، من راتب أمه، ومن نصيبهما في عائد كراء المحلَّين في الطابق الأرضي للبيت. قال لهما يحيي غير مرة بأن ذلك ما جعله متواكلًا ومتطلبًا، لا يثبُت في وظيفة أبدًا.

بقيت فطيمة تستعيد أمامه ذكريات عزيزة عاشتها مع الراحلة، تحدثه عن طفولتهما الصعبة دون أب ولا أمٍّ، وعن والدها الحاج عثمان الذي كانت فتيحة أقرب إلى قلبه منها. المؤمنون لا يجزعون، وهي مؤمنة ومحتسبة، وليس بعد هذا العمر من الجَلَدِ والتماسك ستنهار، لكن الفاجعة كانت أقسى من احتمالها، وأختها رحلت وأخذت معها شطرًا من حياتها.

أم دون ولد، والكبد تخترع فلذاتها إن لم توهب الذرية.

كانت تتولاه لما كان طفلًا، ثم صبيًّا تنشغل عنه فتيحة في دوامها بالمستشفى. يمنعها العمل عنه فيجد فطيمة، مكتظة الجسد وثقيلة الخطو، تترصد يتمه العتيد. أحضروه كفرخ سقط من العش، وصار كمال ابنًا مشتركًا. لا تنطق اسمه إلا مسبوقًا بـ«وليدي».. وليدي كمال، تثبّت ما تعرفه بأنه سيخضع لامتحان عسير في يوم من الأيام. كمال ابنها، مهما كانت وصية أمه، هو نصيبها من رحمة الله، ولن تفرط فيه.

يسعدها بأن يناديها أُمًّا فطيمة، خالتي فطيمة، وعندما يكون بصدد أن يطلب منها نقودًا يدعوها فطومة. يقع ذلك على مسامعها مثل لحن سماوي يطرب له خاطرها. لم تنجب، لكن الله - الذي لا يعجزه شيء - وهبها إيَّاه. دعت له كثيرًا عندما ذهبت لتعتمر في رمضان العام قبل الماضي. تعرف أنَّ كمال ليس على الهدى دائمًا، لكن الله أكبر في ظنها من خطايا البشر، مهما بلغت، ومغفرته واسعة والدعاء مبذول. ترى في نفسها الإيمان ونقاء القلب، وتتساءل في سرها: هل يعذب الله من أحبه قلبٌ منذور لطاعته ولذكره؟

استغرقت تحدثه، واجتهد المطر في أن يغسل وجه الأرض. كان صوتها يصله غليظًا متحشرجًا، ولم يتبين ماذا تبغي من وراء ثرثرتها معه. أخبرته بأن الأم هي من ربَّت وتعبت، وبأن لا شيء أوضح عندها من هذا. بعقل نصف يقظ وببدن منهك، كظم غيظًا خفيفًا امتلأ به،

بدايات ثورة ليس الظرف مواتيًا لها.

ود لو يصرخ في وجهها بكل القوة التي بقيت له:

ـ أنا ابن ألف أمٍّ، لكن أريد أن تحدثيني عن أبي..

رأى دموعها تنزل ولم يفهم، وظن أنه يرد عليها فيما كان هذيان الحمى ينطقه بكلام لا ينتظم على خط من المعنى يفيدها. وضعت له منشفة صغيرة مبللة على جبينه، بعدما ناولته قرصًا مضادًّا للحمى، وتركته لينام.

كان عليها، في تلك الصبيحة، تمريضه وعمل الدار. تمد الخطو إليه ببطء كل دقائق، ثم تمضي بالبطء ذاته لتنهي ما كانت عاكفة عليه. بقيت تتردد في نفسها كلمات يحيى بشأن نيته في بيع البيت، تتألم لما تتوقع أن تخبئه الأيام. أخفت عن كمال كلامهما المتكرر حول ذلك، مخافة أن يقول إنهما طرداه ودم أمه لم يبرد بعد، وآملة في أن يغيّر شقيقها رأيه، بدافع من العاطفة والإيمان كما أحبت أن تفترض.

ليس بيع البيت أعظم ما عليها مواجهته.. فالله يحاسب المؤمن على أداء الأمانة، وقد شددت عليها أختها في أن تبلغه كل شيء. آن للسرِّ المكتوم منذ عقود أن يُفشى أخيرًا. ترمي إليه بالماضي دفعة واحدة، وليتصرف بعدها كما ينبغي لرجل ناضج ويقدِّر الأمور، مهما كانت مخاوفها من الفقد، ومن قسوة أحكامه المتوقعة.

من الأفضل له أن يمضي إلى حيث يسكن قلقه، وألَّا

يبقى معلقًا بالوهم، وبنيانه مهزوز بأصوله الهشة. هذا ما سمعته منها قبل أيام من وفاتها. أخبرتها أنَّ الحقيقة وحدها ملاذ التائهين، وأنَّها لا تريد أن تتركه ضالًّا بعد موتها. قدَّرت والدته أنَّ الوقت سيكون مناسبًا، بعد رحيلها مباشرة، لتنتهي كذبة سمجة أحاطوه بها وعمَّرت كل سنوات عمره.

بقيت حائرة. انفض المعزون، وصار لزامًا عليها أن تبلغه كلام أمه كاملًا. تخاف أن يتركها، ويقضي بقية عمره يلعن حظه والدنيا والناس جميعًا. ستفكر ألف مرة قبل أن يخرج لسانها موحيًا إليه ما يجب أن يُوحى. تود لو تحتفظ به سلوانًا للقلب، وأن تسمع دائمًا نبرات صوته الفخيم إذ يناديها فطومة. كيف ستحارب حرمانها بعده وبمن؟ ولمن تبذل المحبة، وهل ستنسى تاريخها معه، وهي التي اختلسته من أمه ومن الحياة اختلاسًا؟

ظل يعطس بين الحين والآخر. تعرَّض لبرد حادٍّ، وتلهَّى بمرضه، ومع ذلك اعترته رغبة في مغادرة الشقة إلى حيث لا يعلم. صار كل شيء ثقيلًا على خاطره، وخاله لم يطمئن عليه إلا عندما جاء يطلب منه الخروج لأحدهم إن استطاع.

زميل من أيام الدراسة الجامعية، كان طيبًا وودودًا آخر مرة التقيا، وبسبب جفوة حدثت بينهما، لم يتوقع أن يفي بوعده له بزيارته بعد عودتهما من تركيا. تذكر أن نبيل، الذي قدَّم له العزاء وقد علم لتوِّه بوفاة والدته، كان انطوائيًّا

أكثر مما يجدر بشاب في مقتبل الحياة عليه أن يجرِّب كل شيء، بسيط الهندام، يوحي مظهره بحالة إنسانية يصعب فهمها جيدًا، ربما عميقة، أو مبالغ فيها.

حاول التقرُّب منه وقتها، ولم ينجح كثيرًا لأنه ظل شديد الانغلاق. من جانبه، أثارته حالة إنسان يشبهه حدًّا من التشابه المثير للفضول. يصلي في مصلى الجامعة، وعندما يخرج يحكي له بتحفظ شديد عن مغامراته الفاشلة مع البنات، أسرَّ له حينها أن البدينات يستهوينه، وأنه يمارس العادة السرية لإخراج الفائض البيولوجي كما سمَّاه، مبررًا بأن ذلك شرٌّ أخف من الزنى. تفاصيل عابرة، وأكثرها تافه، أخرجتها الذاكرة عندما رآه، كما عادت إليه تلك الليالي التي قضاها عنده في الإقامة الجامعية مطرودًا بعد عودته إلى البيت ثملًا.

فرَّقت بينهما سبل الحياة بعد الجامعة، لكنهما التقيا ثانية في المطار متوجهين إلى إسطنبول. أعلمه بأن والدته مريضة، وشبه ميؤوس من حالتها، أعطاه العنوان لمَّا طلبه، ووعده بأن يزوره، وقد أوفى بوعده. سأله عندما التقيا للمرة الأخيرة أثناء سفرهما، إن كان ما زال يحب البدينات، فلم يجبه. بقي نصف صاحٍ وهو يسمعه يوصيه بالدعاء لها وبالصبر. بدا عليه سمت ووقار الناسك. لم يطل المكوث، دقائق معدودة وغادر مخلِّفًا وراءه بطاقة عليها بياناته. وعاد هو إلى سريره بقوى خائرة.

نام ليلته بعمق، وعند الفجر سمع يحيى وفطيمة يتهامسان،

أن لا بد من البيع، لكل شيء نهاية. اختلط حديثهما في عقله بهذيان الحمَّى. طلعت شمس دافئة بعد أسبوع مطير، وجعلت أشعتها تغتال ندى ورثه الصباح عن ليل بارد. صباح واعد، وهو لن يعيش الطقوس الجنائزية إلى الأبد، الأحياء أبقى من الأموات، يكرر بينه وبين نفسه، ليبرر مشاعره المتبلدة، وقراره بالخروج من البيت. يعلم ألَّا شيء يمكنه أن يبرر ما بداخله، حزنه عليها أقل بكثير مما ينبغي، وهو لا يفهم نفسه أبدًا.

انطلق إلى مقهى قريب وهمَّ بالدخول، ثم تراجع أن يلتقي بمن يعرفونه، فتحاصره عبارات التعزية والمواساة. خرج وهو يريد أن ينسى أن أي أحد قد مات. ليس في حاجة إلى أن يعذبه ضميره أكثر.. عانت في أيام مرضها كثيرًا وتألَّمت، ومع ذلك شعر براحة لرحيلها أكبر مما يُفترض أن شفقته عليها كانت دافعًا له.

ركب حافلة من الحيِّ إلى ساحة البريد المركزي، لم يتعافَ تمامًا، ومع ذلك قرر أن يكسر حصار الموت عليه، فمضى يتسكع وأشعل سيجارة استلها من علبة كان قد أخذ ثمنها من عند خالته. وقف أمام واجهة زجاجية للحظات، وأخذ يتأمل مظهره الفوضوي، ثم مرر راحة كفه على ذقنه الشائكة، رأى وجهه باهتًا وملامحه ذاهبة، وشعره لم يمرر خلاله مشط قبل الخروج. لم تكن له أسباب منطقية لأناقة لم يتعود عليها، ولا تناسب الظرف.

استأنف سيره على غير هدى، وأخرج هاتفه يبحث عمن

يمكن أن يقضي معه الصبيحة. تذكر قبل ذلك حقيقة بأنه لا يملك صديقًا حقيقيًّا واحدًا. رجل بلا أصدقاء، وفشله في التواصل وبناء علاقات حبيَّة مع الآخرين ليس له نظير. لكنه خرج لتوه من مصيبة ألمت به، أو هكذا يجب أن يقدِّر، وليس الوقت مناسبًا للندم على أي شيء، أو فيه ما يتيح فسحة لمراجعة الذات.

ما أبعد صباحه ذاك عن أن يكون ظرفًا مناسبًا لمراجعات أشبه بجلد الذات، في غرفة معتمة، لحياة تتعصَّى على التوصيف. تمنَّى أن تحضر آسيا، الجسد يتقن امتصاص الخواء، لكن الحزن، أو ما يشبهه، باقٍ شيئًا ما. يؤازره في منعه من طلبها لتحضر حياءً من الموت.. في حضرة الموت تتوارى الرغبات خجلًا.

هذا ما كان عليه، أو ما أحس أن من واجبه أن يكون عليه. ما بينهما أكبر من رغبة، وأقل من حب حقيقي، لم تتصل به، طلبت منه بنبرة العاشقة المتشوقة أن يخبرها بعودته من السفر فور هبوطه في أرض المطار عائدًا من إسطنبول، من المؤكد أنها لم تسمع بوفاة والدته، وتؤدي دور الحبيبة الغاضبة لأنه عاد ولم يكلمها.

ـ أناني وماتسواش..

ـ أمي ماتت.

توقع هذا الحوار المقتضب بينهما إذا كلمها. أحجم عن ذلك لأنه وجد في نفسه ميولًا غير بريئة تجاهها، أو لا

تتناسب مع مشاعر مفترضة للَّحظة. كره أن يشوه صورته في عينيه وفي عينيها. يفهمان أن كل لقاء بينهما يؤول إلى مواقعة جنسية، هكذا تعوَّدا. ليس راغبًا عنها، ولا مكتفيًا، لكن أمَّه ماتت قبل نصف أسبوع، ولن يتعرَّى أمام ذكراها القريبة، وأمام نفسه، حتى يبدو كائنًا مشوه العاطفة إلى آخر مدى. ومع ذلك استقل سيارة أجرة إلى حسين داي ومضى ليراها، بدافع من التعود، أو ليردم هوة الخواء التي كانت تلتهم صباحه.

دفع الباب الزجاجي بيده فوجدته واقفًا أمامها، كانت عندها في الصيدلية امرأة في نحو السبعين من عمرها تريد أقراصًا للضغط، أربكها وجوده وتسارع نبضها، مثل غريرة تجرب الحب لأول مرة، ظهرت مشتاقة إليه وفرحة بمجيئه غير المتوقع. عاشت حالة الدهشة الأولى.

كانا قد اتفقا على ألا يزورها في مكان عملها، لكن خرق الاتفاق يكون أحيانًا مفرحًا بشكل غير منتظر.. نظرت في عينيه، وبينما كانت تتبادل الحديث مع العجوز، تبين لها ما الذي يمكن أن يكون قد جرى.

التقيا على قارعة من الحرمان والتيه، وما هو أخلاقي في حالتهما بقي اعتبارًا مرنًا وقابلًا للتصريف في الاتجاه الذي لا يكون فيه معيقًا. قد يُطلب الأمان في هامش مختلَس ما دامت الحياة تبخل به شرعيًّا، وقد سكنت في هامشه بانتظار ما قد يجود به الحظ.

تعرف أن حظها في عطلة بطول عمرها تقريبًا، ولن تحتاج إلى برهان تقدمه لمن قد يحاسبها أكبر من أنها طُلِّقت بأمر من حماتها، بعد ثلاثة أشهر يتيمة من زواج تعيس. كان زوجها عديم الشخصية، تحركه أمُّه كما تشاء، وقد اكتشفت حقيقته، وحاولت أن تحثَّه على أن يستقلَّا بحياتهما، لكن خضوعه كان أقوى. تمضي الحياة رغم كل شيء، سمعت هذا دائمًا، ثم كان عليها أن تجرِّبه. وصمها لقب مطلقة في البداية، وأخفته عمَّن لا يعرفونها، ثم تصالحت معه.

لا تعترف الحياة إلا بمن يخوضون غمارها، وقد أصبحت مجازة في الصيدلة، وتجد في كمال حنانًا تعوزها سبل الارتواء منه في النور، إلا أن التعامي يمكن أن يكون آلية نفسية فعالة للظفر بشيء من مباهج الحياة دون منغصات اللوم الذاتي وتأنيب الضمير، والتخفيف من قسوة أحكامها التي يصعب مواجهتها بزاد ضئيل من العقل والإيمان.

ليست أنثى إلا معه، وامرأة معطلة في غيابه. تزهر عندما تراه وتزهو بنفسها، وتنسى حظها العاثر، بل تشكر بعض حظها الذي ساقها إليه، صارت تفهم أن الحياة وليدة التناقضات. كان أجمل من أن يكون حقيقيًّا، أو محل رغبة تملُّك أو استحواذ ساذج من أية امرأة حالمة أو مغرورة، لذا ما لبثت أن تخلت عن مطامعها الأنثوية بشأنه، ورضيت منه بالقليل الذي يروي ظمأ السنين، وقليله المسروق في غفلة الرقباء خير عندها من كثير يغريها

به الطامعون فيها.

ثمرة الخطأ أن يتعلَّم الإنسان كيف يتفاداه في المستقبل. لذا قررت ألا تعيد غلطة الأمس، تلحُّ عليها أمُّها وأخواتها عندما تعود لزيارتهم لتتزوج، ويستجلبون لها من يخطبها، فالزمن ينهب العمر الخصب، وكلما مرَّ كان هامش التفاوض ضيقًا، وهي في الأربعين وليست بكرًا تُقبل شروطها على سبيل الترضية والرغبة فيها، هكذا كررن على مسامعها مرارًا، وهي تعرف أنَّ الحق معهن على نحو ما، ولكنها تشعر أن تشرُّدًا عاطفيًّا مع مثله خير لها من وهم، قد يلبس وجه رجل بغيض، يجمعها به دفتر عائلي. علَّمتها التجربة وقد اختارت.. حياة النساء قاسية وهن وحيدات، غير أنها لن تسلِّم زمام أمرها لأيٍّ كان.

تقيم أختها نوال في العاصمة، متزوجة برجل سلفي، بلحية وقميص وسروال نصف ساق، عرض عليها صديقًا له يعمل تاجر أدوات كهربائية. رجل مقتدر وذو دين، هكذا وصفه، مشددًا في نصحها بأن المرأة، والمطلقة خاصة، لا يليق بها أن تبقى بلا زواج، لتحصِّن نفسها من الشيطان ولئلا يطمع فيها الطامعون.

لكن القلب له أحكام أخرى، هكذا تفهم هي، ولن تبيع جسدها تحت غطاء الشرعية، تقول لها أختها إنها واهمة وستندم على العمر المهدور، فتخفض بصرها ولا تجد ما ترد به، تلوذ بصمت العاجزة المهزومة، ناقمة على القدر وعلى كل شيء.

تنتظر، وتمنّي نفسها بأنَّ قلبه قد يميل إليها يومًا، أو يفتح عليها القدر بمن يعوِّضه. أما كمال فيحبُّ أن يصارحها بأنه لن يكون لها، يطرح عليها سؤاله الماكر بلهجة من يطلب التحلُّل من وعد لم يقطعه أبدًا، ويسألها عن أي جديد. تتجاهل سؤاله الحاد ذاك مرات، أو تنظر إليه مرات أخرى ملقية بابتسامة خفيفة مشيرة بأن لا، وتحمل في أعماقها أسى على نفسها وعليه كلما استعلم عن الجديد كأنه يستعجل الخلاص.

يمعن في طرح السؤال ليحبط اندفاعها إذا رأى شغفها يزيد. لا يريد أن يتركها معلقة، أو يوهمها بأن غدًا بعيدًا مشتركًا قد يجمعهما. قدَّر أنهما مثل مسافرين تائهين، التقيا في نقطة من الطريق، ولن يطول بهما الزمن حتى يفترقا، عندما يجد كلٌّ منهما وجهته الصحيحة.

انتصف يومه بشق الأنفس، وركن إلى طاولة في طرف بعيد بمقهى ضيِّق ومزدحم، يقع في زقاق يتفرع من شارع حسيبة. جلس إليه كهل كره مظهره، وبدأ بالشكوى من كل شيء دون مقدمات، لم يتجاوب معه، وتركه يكلِّم نفسه، فقام وبدَّل مكانه وكلاهما مشمئز من الآخر. وكان الرجل الذي يمسك بذراع آلة القهوة يكثر من الصراخ على الصبي الذي معه، ثم يعود ليعبر عن إحباطه من خسارة الفريق الوطني بالأمس، وخيبة أمله من الحكومة التي تحارب نادي مولودية العاصمة وأنصاره.

جلب معه صحيفتين وشرع يقرأهما، لم يفعل ذلك منذ مدة طويلة، لكنه طالع صفحاتهما سريعًا. لا جديد فيهما.. البلد هو البلد، والدولة تعالج كل أمراضها وانحرافها بالمال، وأحوال الناس في القاع أو في القمة، وثرثرتهم الفارغة والمملَّة، ومطامعهم الحيوانية في نهب كل ما تصل إليه أيديهم، وفساد عقولهم الخاوية، وأمزجتهم المكدَّرة دومًا بالسُّخط.. كل شيء كما هو. ولا شيء ينبئ عن حدوث تغيُّر ما. الحياة هنا عالقة خارج الزمن.

من الذي ارتكب جريمة اختراع «الأفضل» ثم ترك قلوب البشر وعقولهم تهفو إليه وتبحث عنه؟ لم يكن رجلًا ممَّن يتطلَّعون للأفضل، لا يوجد الأفضل مطلقًا في أيِّ أمر، وهو بالنسبة إليه ملاذ لخيال الحالمين، والشُّروط الضرورية لإنتاجه غير محققة. غير أنَّ انطباعات الماضي لا بد أن تصدر، وينسج العقل على منوالها أحكامًا تؤازر حالة النفس.

هل يحاول أن يثبت لنفسه، عندما يراجع عقله ذلك كله، بأنه عميق ومختلف، لا يستوعبه واقعه، ويكره الأحلام الفارغة؟ لا جواب محددًا لذلك. إنه لا يتطلَّع، ولا يأمل أبعد من المتاح واليسير جدًّا، ولا يبحث عن أشياء بعيدة وتقترب من أن تكون نقيض واقع ترسخ بمرور الزمن. التاريخ يتجمَّد، والناس يتخبطون رغم ما يبدو على كل واحد فيهم من حركة منذ أن يولد وحتى يموت.

يفتقد المعنى، وترهقه الإجابات الجاهزة التي يطعمونها

للإنسان هنا عندما يخطو أولى خطواته في الحياة، ويعمِّدون بها روحه قبل أن يُغرس جسده في جوف التراب دون أن يثمر شيئًا.

صباح قاحل. كفَّ عن تقليب صفحات جريدة الخبر، التفت من جديد إلى قهوته التي فقدت نكهة الغرق، ثم أخذ نفسًا طويلًا من سيجارته، لكنه لم يتسامَ مع دخانها الذي نفثه في الفراغ. لم يكن في يوم من الأيام ماهرًا في غرس المعنى على امتداد الزمن. كل ما أتى إليه أتاه بتلقائية ولم يبذل فيه ما يثبت جدارته به، وإن كان شرًّا، لم يرتكب ما يستحق عناء أن يُسلَّط عليه.

يميل غالبًا لتفسيرات أكثر عمقًا من الحديث عن الأسباب الضعيفة، بذاتها، مهما بدت قوية. يؤمن بأن القدر جبار إلى حد أن يتخلى عن اقتراف عبثية الإرادة، وعن التفكير فيها باعتبارها ذات وقع خاص على مسار حياته. لم يختر شيئًا على الإطلاق، هو ابن المشيئة وصنيعتها، أنجبته، وجعلت منه قريبًا من كل شيء، وبعيدًا عن كل شيء أيضًا. إنَّه لا يملك إلا أن يكون مطيعًا وممتثلًا لمن صنعه في البداية.

التفاؤل المجاني عواقبه وخيمة، ولحسن حظه أنه مقتصد فيه حدَّ الكفاف، شعر بأنه مرتاح، بعد أن خاض ذلك السبح الطويل في داخله، ومستسلم تمامًا، وروح التطلع لديه، أو حتى نزعة المقاومة، منبوذة في مكان قصيٍّ في أعماقه. أصبح يخاف أن يراكم الأمل فيرتد إليه ليهلكه

أكثر مما لو كان يائسًا من البداية.

طلبه خاله في الهاتف، لكنه قرَّر ألَّا يدخل قبل المساء. إذ ليس في خاطره فضل ليجترح المزيد من الحزن المزيف، أو جرعة زائدة من حداد بلغ مداه ويجب أن ينتهي. سيلتقيان، فيم يريده؟ لا يدري، غير أن في لهجته ما ينبئ عن خطب ما. لا يتصل به عادة ليطمئن عليه، أو يطلب لقاءه بمحض ودٍّ يشك في أنه حمله له يومًا. الحياة لا تمنح المسرَّات دائمًا، على أن الخوف لا يساوره بشأن أي شيء في المستقبل، وتلك نعمة حظي بها منذ زمن.

ما زالت كلمة ألقاها إليه، في لحظة غضب، راسخة، لم ينسها حتى بعد أن تعاقبت بينهما مواقف كثيرة وسنوات طويلة.. «يا فرخ». من يومها والسؤال الخبيث يطارده، يفكر في ألف إجابة ممكنة له، ويخاف أن يُسمع صداه. حيرة تحيط بكيانه كلِّه، مريرة ومهينة، والإجابة غائبة. من يكون والده؟!

ليس يقنعه ما كانت ترويه الراحلة عنه، إذ لا يمكن أن تُشفي غليل السؤال شذراتٌ من ذاكرة يفتك بها الشك كلما اقتربت من أن تُطاول في وثوقها اليقين، ولا صورٌ بالأسود والأبيض، مهترئة الحواشي، لشاب بربطة عنق، وشعر كثٍّ وشارب خفيف ولحية منسدلة.

لم يعد كمال إلى البيت مبكرًا كما طلب منه خاله. كان يحيى قد قفل راجعًا من جولته الصباحية مبكرًا، انتظره

طويلًا ولم يأتِ. الأيام القاحلة لم تدَّخر أيًّا منهما، وما بعد الموت قد يكون أصعب من الموت. ما بعد النهاية صعب دومًا. ستُرسم حدود وتُزال أخرى. في المساء، وبعد أن اضطرب في الشوارع والمقاهي بلا طائل، رجع وكان بانتظاره.

جلسا في غرفة أمه، وكلاهما ينتظر أن يبدأ الآخر بالكلام. التزم كمال الصمت، فهم أن ما بعد هذه الجلسة لن يكون أبدًا مستقبلًا يمتد على هدى من الماضي، سكنه يقين حاد، ظل يذبح شكوكه لزمن طويل، بأنَّه دخيل على ماضيه كلِّه، عاش حياة تحالفت في رسمها أقدار وأبيدت دونها أخرى.

«أريد أن أبيع البيت»..

قال يخبره، مثبِّتًا نظره عليه يريد أن يصل إليه المقصود، كما يريده أن يصل، قاطعًا ونهائيًّا. البيت باسم الوالد، جدِّه لأمه، استحوذ عليه بعد الاستقلال بسنوات قليلة. وصف يحيى والده الحاج عثمان بنبرة تقدير مبالغ فيها، بالمؤمن القوي الذي صنع مجده بيديه، وكافح طويلًا قبل أن يختاره الله إلى جواره.

ستسكن فطيمة معي وأنت أيضًا إذا أحببت، أفكر أن أزيد على ثمنه وأشتري قطعة أرض كبيرة في أطراف العاصمة، وأبني سكنًا كبيرًا يسع الجميع.. كبرتُ ولم أعد أحتمل فوضى باب الوادي وتلوثه. أراد أن يوحي له

بأن الأمر محل إجماع، لا يقبل اعتراضًا حتى من نجل وريثة كان لها نصيب معه، لو لم تتعجل في الموت وتتركه مستباحًا من قبله.

أشفقت عليه خالته ممَّا سمع، وبدت كمن تعرف لأول مرة ما أسرَّ به لها شقيقها طيلة نصف الأسبوع الفجائعي والصاخب ذاك. حوارهما المسموع كان أقوى من هذيان رجل محموم، ولم تكن نظراته له في الأيام الماضية لتترك للمفاجأة أيَّ أثر، أو ليتلقى ما سمعه منه للتوِّ كطرح غير مسبوق. رجَّح وهو يستمع إليه أنه اتفق مع أحدهم ليشتري البيت، وحدَّدا ثمنه، قبل أن تموت والدته أو أوكل الأمر لوكالة عقارية. اعتبر أنَّ موافقته تحصيل حاصل لا أكثر، وتلك حقيقة أخرى، ابتلعها بمرارة العاجز قليل الحيلة.

تُوفي الحاج عثمان وترك البيت لطفلته فتيحة يتيمة الأم، وليحيى وفطيمة وأمِّهما العليلة، التي لم تلبث هي أيضًا أن لحقت به، ليتولاهم لسنوات قليلة أحد الأعمام. سمع منه يحيى مرة أن والده ربما يكون قد ورث الموت المبكر من غير علَّة من والدته، إذ لم تكمل العقد الخامس من عمرها حتى وُجدت ميتة في فراشها، ذات صباح شتوي، مع أنها لم تكن تشكو من أيِّ سوء.

جاء موت عثمان مفاجئًا، ولم يوصِ بشيء، فاستقر رأي عمِّ الأولاد على إبقاء الوضع كما لو كان أبوهم حيًّا. ولمَّا كبُر يحيى استمرَّ الوضع كذلك، اعتبره أحد أمجاد والده، دليل نجاح لا يمكن التفريط فيه، وبعد أن عادت فطيمة

مطلَّقة، لن يكون لها مأوى إذا بيع البيت.

كان البيت في الأصل لمعمِّر من أصل إسباني، غادر في موجة الخروج الكبير للأقدام السوداء بعد الاستقلال.. فالأوروبيون الذين سكنوا الجزائر المحتلة لأكثر من قرن، خرجوا من البلاد تاركين كل شيء. كان الحاج عثمان ممن اغتنموا فرصة وضع اليد على الأملاك الشاغرة التي خلَّفها أولئك المعمرون. تاجر متنقل، ماهر في نسج العلاقات، وثوَّار الأمس كان فيهم أصدقاء، فاستطاع أن يسوِّي وثائق البيت، ثم قام بتهيئة بسيطة وأحضر عائلته.

بعد سنوات، راسله صاحب البيت، الفرنكو إسباني مسيو رافو، بكلمات مليئة بالحنين، يلتمس منه أن يعيد إليه بعض الصور القديمة لأسرته، كان قد نسيها أثناء خروجه السريع، في صندوق خشبي مميز في غرفة النوم بالطابق العلوي، وصور أخرى للسيدة العذراء وابنها، ومجسم نحاسي للمسيح على الصليب، ومخطوط حصل عليه بأعجوبة بعد الحرب العالمية الثانية من شيخ فرنسي مهتم بتاريخ شمال أفريقيا القديم.

استغرق مسيو رافو سنوات ليعرف الساكن الجديد لبيت كان لأسرته لأربعة عقود من الزمن. قال إنه يمكن أن يدفع له لقاء تعبه وسفره، وفوق ذلك سيكون ممتنًّا جدًّا لكرمه. تصرَّف عثمان في بعض الموجودات التي كانت بالبيت ولا تناسب ثقافته وتفكيره، قدَّم أغلبها كهدايا للقادة الجدد للدولة الثائرة، بعدما وجد أن كثيرًا منها لا

يصلح للبيع، وما يصلح للبيع تخلص منه سريعًا، وقبض الثمن كأي شيء لا يتعلق بماضٍ يعنيه.

رد عليه الحاج عثمان بطيبة قلب، وبعض الامتنان غير المعلن للحظ السعيد الذي حالفه بعد دخوله لذلك البيت بالذات. لا يشكو من شيء وصحته ممتازة، أطفاله يكبرون بلا سوء، وتجارته تزدهر. تواعدا لاحقًا والتقيا في فرنسا، وأخذ عثمان له ما بقي في البيت، ممَّا تركه ولم يستطع حمله معه عند رحيله.

كهل مسكون بالماضي، بكى أمامه شطرًا من حياته، وحياة أبيه وجده، واستعاد أمامه ذكريات من البيت الذي بُني بعد الحرب العالمية الأولى، في ذلك الشارع الفرعي من حي باب الوادي، عندما كانت مدينة الجزائر أوروبية بيضاء محرَّمة على الأهالي أو الأنديجان.

واساه عثمان ووعده بالحفاظ على البيت كما هو، وهو يضمر سعادة خفية، لم يحبَّ أن يلحظها عليه الآخر فيعتبرها تشفيًا، أو قطفًا لثمن جراحه وتقلُّب الزمن عليه، من هذا الأنديجان القذر الذي لا حدود لجشعه.

يحتفظ يحيى بسند حيازة البيت، يقفل عليه بابًا داخليًّا صغيرًا في الرف العلوي لجهة اليمين من الخزانة، ومعه بضع وثائق مهمة، بينها الدفتر العائلي لأبيه عثمان الذي أصبح حاجًّا قبل موته بسنوات قليلة. انقضت خمسون عامًا أو أكثر، جرَّب خلالها يحيى وفطيمة وفتيحة الحياة، وتقلبت

على كل واحد فيهم بطريقة غير متوقعة. تفرَّقوا في كل شيء، وجمعتهم خيباتهم وبيت الحاج عثمان.

فكَّر يحيى مرة أن جدران بيت الإسباني، الذي استولى عليه والدهم وعاشوا فيه حتى الآن، جعلهم أقرباء أكثر من رابطة الدم. واعتقد أن لعنة تسري في البيت وتتوعَّد كل من يسكن فيه، لا يغادره أحدهم دون عودة إلا لقبره، أو يرحل طويلًا ثم يعود حاملًا لخيبة أقسى عليه من الموت.

تُوفيت فتيحة، ورأى يحيى أن بعث الماضي واستمراره ليس سوى مبرر للَّعنة الخفية، وكلام أصهاره السابقين يوم العزاء لم يكن إلا إثارة لهواجس حقيقية كانت كامنة بداخله فعلًا. يجب أن يباع البيت، يساوي ثروة الآن، وهو يحتاج إلى المال ليبدأ بالتجارة، ولتذهب البنوك بمعاملاتها الربوية إلى جهنم. عاتب نفسه، في الليلة التي أعقبت دفن فتيحة، على تردده، ثم قبل الفجر صلَّى ركعتين واستخار الله، وكان كلُّ شيء قد حُسم في عقله.

٥

ظهر كمال أمام عبد القادر بن صابر مستويًا، كما ينبغي لشاب يتطلَّع إليه كلُّ أب. بعض الأخطاء لا يمكن تبريرها، وتصبح أكبر كلما مرَّ عليها الزمن. طلب منه أن يجلس إلى جواره، ثم سأله عن أحواله، وظل يمسك بيده بين كفيه. رحَّب به كثيرًا، وبدا أقل جفاء مما كان يظن بعدما تلقى مكالمته. قال إنه ودَّ لو تمكن من حضور جنازة فتيحة وتقديم العزاء. السيِّدة فتيحة صادقي.. وصفها، بصوت متعاطف وحزين، بالمرأة الطيبة والأمينة، وأضاف يؤكد له كم كان محظوظًا بها لأنَّها كانت أمَّه.

ساد الصمت للحظات، ثم قام ليحضر ما يضيِّفه به، فأعفاه من ذلك، وخاطبه بلهجة مشفقة: لا عليك، لن أشرب شيئًا، لكنه عزم عليه ليشرب شيئًا، ثم أخبره بأنَّ ابنته نادية غائبة، ودوامها ينتهي على الساعة السادسة.

بقي معه ساعة أو يزيد، وعُقد لسانه، فخانته الأسئلة. كان ينوي أن يعرف كلَّ شيء دفعة واحدة، وأن يطرح كل ما كان يقمعه منها طيلة سنوات حياته، وينقب في ذاكرة الشيخ عن جذوره المخفية، وعن تاريخ أبيه، ويضع الحوادث والعواطف في مكانها الصحيح. لكنه لم يقل شيئًا، بالكاد عقَّب بكلمات قليلة، وعبارات استزادة، واحتفظ بظرف الصِّور في يده.

اكتفيا بالثرثرة حول مواضيع بعيدة، المطر المنهمر على

ليون في تلك الأيام، ظروف إقامته في الفندق، العالم الذي صار مثل غابة وحوش، والرأسمالية البغيضة التي جعلت من المال إلهًا يُعبد.. أراد أن يجرّه للحديث عن أشياء مختلفة، وكمال يركز معه أحيانًا، ويتبرَّم في سرّه أحيانًا أخرى، وإن أعجبته قوة ذاكرته. ما زال يحتفظ بتفاصيل دقيقة، مرت عليها سنوات طويلة، ويُفترض أن يودي بها النسيان.

تحدَّث عبد القادر بن صابر عن نفسه كثيرًا، وعن أصدقائه القدامى جميعًا، من مات منهم، ومن بقي على قيد حنين يشده لماضٍ راسخ، وسمَّاهم واحدًا واحدًا. أما كمال فملأه الفضول لمعرفة من منهم والده، ما اسمه وكيف كان شكله، وما لون عينيه، كيف كان يتحدث وكيف كان يأكل ويشرب.. هل يشبهه؟ وسيل من أسئلة بقيت حبيسة في صدره.

ظلَّ يصغي إليه باهتمام وهو يحدثه عن رفاقه وبطولاتهم، ومنهم فرنسيون آمنوا بالثورة وبالقضية الجزائرية، وعن موريس أودان أستاذ الرياضيات الشيوعي البطل الذي أعدمته فرنسا. طاف في أرجاء تاريخ طويل، من الحركة الوطنية في العشرينيات إلى ما بعد الاستقلال.

كان من جيل يندثر مكتنز الأسى. الوطن باقٍ في صورة غير التي كان يحلم بها، شباب كانوا يحلمون، ثم أدركوا أن أحلامهم أثمرت خيبات وافرة. هذا وطن آخر، الجزائر بعيدة عن حلمه القديم، وتزداد بعدًا كل يوم.. اعترف

له. من يأبه له؟ لا أحد يهتم بشيخ يقتات بذكريات معتَّقة منذ أكثر من ستين عامًا. إنسان قديم، روحه رثة، وخياله مستنفد، وثوري يعيش خارج زمنٍ كان يسوقه مع رفاقه فينساق. هذا الزمن ليس له، وقد ذبل حلمه ومات، وقريبًا سيسقط هو أيضًا دون صدى.. كم من الحقائق المرَّة عليه أن يجابه في أرذل عمره؟

الثورة، الاستعمار، الحكومة المؤقتة، جيش الحدود، مصالي الحاج، فدرالية جبهة التحرير بفرنسا.. طُويت تلك الفترة الزاخرة، وأُجهضت الثورة، لم يُسمح لها بالاكتمال ثم سُرقت، وأصبح رفقاء السلاح والحلم رجال سلطة وثروة، وبقي انتماء النُّخب والناس موزعًا وهويتهم مجروحة وملفَّقة.. ضللنا الطريق ـ حتى قبل الاستقلال أدركنا ذلك ـ والمعالم طُمست، والنتيجة كما هي اليوم، مثل طفولة مشوَّهة كانت ثورتنا، وكان من الحتمي أن نصل إلى هذا.. والجزائري نفسه أصبح ممسوخًا، قال يخبره مملوءًا بالأسف والخذلان.

لم يكن يتوقع نهاية كهذه، دفع دائمًا بأحلامه إلى أقصاها، وآمن بأن الإنسان سيِّد مصيره. صودرت أحلامه وأحلام رفاقه، وبقي على الهامش عاجزًا ومنسيًّا. جاء آخرون وركبوا الثورة، فقط بعد انتهاء موسم التضحيات، أعلنوا أنهم مع الوطن. يوم وقف إطلاق النار ظهر ثوَّار لا يعرفهم أحد، ولو كان للتاريخ لسان لنطق بأسماء الأبطال الحقيقيين الذين صنعوه، ورسموا للجزائر

صورتها المجيدة.

أما هو فكان يجب أن يموت قبل أن يكون شاهدًا على هذا المآل، ويعرف أن رفقاء القضية، وقد اختلط المزيَّف منهم بالحقيقي، أصبحوا تجَّارا، وشيَّدوا الفيلات واستولوا على الأراضي، ونهبوا الخيرات، وصاروا معمِّرين جددًا. موته أرحم من أن يسمع من أحد الرفاق بأنه يحلم بأن يُكتب اسمه على جدار مدرسة نائية في عمق الريف المتخلِّف، أو بمدخل زقاق مليء بالقاذورات، ترتع فيه القطط ويتواعد فيه الشواذ.. السُّعداء هم من استشهدوا قبل الاستقلال، وكان عليه أن يموت معهم، فالموت يمنح قدسية للأبطال، أما الحياة فتبتذلهم، وتحولهم إلى متحسِّرين أو طمَّاعين ومتآلفين مع الخونة.

لم يفعل كمال المستحيل، ويأتي للقائه، من أجل أن يسمع كل هذا البكاء الذي فات أوانه، ولا يعنيه بصفة شخصية، ومع ذلك لم يقاطعه. جسمه متعب وذاكرته متقدة، التزم الصمت إزاءه، بما تفرضه لباقة الضيف. استحى أن يقول له أن يكفَّ عن اجترار الماضي، والحديث كمن جمع حكمة العالم كله، وأنَّ ذاكرته مجرد سجل من الخيبات المخزية. كان تحت رحمته في البداية، ثم نزلت وقائع تاريخه، وتاريخ أصدقائه، المسرود بردًا وسلامًا على قلبه المتعطش لأب مثابر ومجيد.

تمنَّى في خاطره أن يكون والده واحدًا ممَّن حكى له عنهم، رجلًا كبيرًا صنع التاريخ ورحل، وإن كان كذلك،

ما باله ترك تاريخ ابنه مطموسًا مثل حكاية مخزية يجب ألا يطلع على تفاصيلها أحد؟ فتُر حماسه وعادت إليه حيرته الأولى.

استغرقا الدقائق التي تلت ذلك في الحديث عن كل شيء، صارا متآلفين أكثر، وطلب من كمال أن يحدِّثه عن نفسه. رأى فيه صورة أبيه، وإن ليس على مقاس توقعاته تمامًا، ربما كان يشبهه كثيرًا، ولو عاد من الموت لكان قريبًا جدًّا من هيئته وتفكيره. كان كمال يذكّر عبد القادر بن صابر بشبابه، وجعله يحمل تجاهه عاطفة أخرى قدَّر أنه من غير الممكن التصريح بها أو استرجاعها. العواطف لا تمارَس بأثر رجعي. انقضى العمر، وهو على مشارف الثمانين، أرادت الأيام أن تسعده فجاءت به إليه بذرائع مختلفة، وحسبه من آخر العمر هذا العطاء، لينعم بعدها بموت رغيد.

ظل كمال يركز عينيه بإعجاب في وجهه المجهد، أبيض وعريض، يطبعه شارب كثيف كأثر من رجولة قديمة. عيناه المتلهفتان تقولان هيَّا يا سيدي أخبِرني شيئًا عن أبي، وقل لي كم كان عظيمًا ويصعب أن يتكرر.. مثلك تمامًا، سيرة مجد تمشي على قدمين. أخبرني أنك كنت تراه، وتثرثر معه دائمًا كما فعلنا أنا وأنت اليوم.. تلتقيان فتستعيدان كل ما فات بحنين واعتزاز، وأنكما كنتما آخر الأساطير الحية لثورة ماتت قبل الميعاد. بينما تجيبه عينا الشيخ بأن للعظماء خطاياهم أيضًا، ثم تزيغان وتقولان ما

لا يفهمه.

عادت ابنته نادية وصافحت كمال بودٍّ. رحبت به وتحدثا قليلًا فيما دخل والدها للصلاة. رفع عينيه إليها مرارًا وأخفضهما، استرق النظر إلى إحدى ساقيها تعلو الأخرى مكسوة بجورب أسود طويل، وإلى شعرها المنسدل. سألته عن أحواله هي أيضًا، ثم أخبرته أنها لم تزر الجزائر منذ كانت طفلة. كان عليه الانصراف، هكذا أحسَّ. صلَّى عبد القادر بن صابر المغرب، وعاد مقترحًا عليه البقاء معهما فرفض بأدب. كان يحبُّ ذلك لكن الخجل منعه. سأكون مرتاحًا أكثر حيث أنا، رد عليه شاكرًا عرضه، ووعده بأن يزوره كل يوم.

بقيت نادية معهما صامتة، تنظر إلى كمال، وعيناها هي الأخرى تقولان ما لا يفهمه، تتواطآن مع عيني والدها حول شيء يعرفانه وحدهما. طلبا منه اسم الفندق الذي ينزل فيه وعنوانه، وودَّعاه بحرارة تليق بزائر استثنائي، وانصرف منتشيًا، رغم أنه خرج من عنده بذات الأسئلة التي جاء بها.

كان يعتقد دائمًا أن ما يعرفه عن والده منقوص ومحرَّف، وقد بات أقرب إلى الحقيقة أكثر من أي وقت مضى في حياته. نام ليلته مترقبًا صباحًا يقربه منه أكثر. نهض وخرج من الفندق باكرًا، ومضى إلى عبد القادر بن صابر ينقِّب في تاريخه عما يستعين به في الوصول.

اتصل به وردَّت عليه نادية بلطف هذه المرة:

ـ يمكنك المجيء متى أحببت.. اعتبر نفسك واحدًا منا.

وجده سعيدًا بقدومه، وجلس الثلاثة في بهو الشقة، وتناولوا الإفطار. نادية تشبه أباها، بها مسحة من الجدية والثبات تجمعها به، وهو يشبههما. كل الناس متشابهون، إذا عفت عين الناظر عن التفاصيل الصغيرة، لكن في حالتهم كانت بعض التفاصيل الصغيرة هي من جعلت التشابه أكثر وضوحًا.

أسرعت بالخروج، وقررت أن تأخذ عطلة استثنائية للظرف الطارئ. لا تعرف كيف يمكن أن يتصرف، ولن تترك أباها وحيدًا معه. أوصته به، يبدو كمال هادئًا ومتزنًا، مثلهما، ومع ذلك عليها الاحتراس. دخل الشيخ إلى غرفته، سأعود، قال له بصوت مبحوح، وبقي ينتظره لدقائق طالت. ماذا يفعل؟ اعتقد أنه أثقل عليه بمجيئه مبكرًا.

قام وقطع خطوات في الشقة الواسعة، وقف أمام المكتبة، كانت صغيرة، لكنها تحوي كتبًا ثقيلة. مذكرات قادة وزعماء، مؤلفات عن الاشتراكية، وكتب عن الإسلاميات. وفي وسطها تمامًا، وبصورة معتنى بها جيدًا، وضعت نسخة قديمة للقرآن برواية ورش. نظر بعد ذلك من النافذة إلى ساحة الحيِّ، فرأى نادية تمشي باتجاه الشارع، وكان يُفترض أنها قطعت مسافة أطول. مرَّ على

ذلك دون اهتمام، وعاد ليجلس في مكانه، أما هي فبقيت تتكلم مع والدها في الهاتف، وتوصيه بأن يحذر وألا يثير غضبه.

خرج إليه وجلسا على أريكة طويلة. أخبره بأنَّه توقف عن القراءة منذ زمن، وبعدما انطفأت عيناه تقريبًا، صار يكتفي بالكتب الصوتية أو الاستماع للإذاعة. ساد صمت مثقل بالترقب، ثم طلب منه أن يحضر ألبوم صور من المكتبة فأحضره، وجعل يقلب أمامه صفحاته.

تاريخ طويل بالأسود والأبيض. هذا أنا، قال له، استعرض أمامه تاريخ كل صورة ومناسبتها، يحفظ التواريخ والأمكنة جيدًا، وزار مدنًا أوروبية عدَّة.. صور كثيرة جدًّا له ولأصدقائه، إحداها له وهو يقف مع بومدين، عندما كان وزيرًا للدفاع، وأخرى بعد صعوده رئيسًا مباشرة.

رجل نحيف وحاد البصر، إنسان أتى من عمق العدم، فصنع مع رفاقه ثورة وبنى دولة.

ثم علَّق بإعجاب كبير: هنا تكمن عبقرية الإنسان. وأكمل يقول عنه: اختلفنا معه واضطهدنا، كان مصابًا بنوع من التسلُّط الأعمى، وذلك هو السائد وقتها في أغلب دول العالم، ومع ذلك أقدِّر فيه رجولته، ولا أستطيع أن أرميه بقلَّة الوطنية. أخبره كذلك بأنه يقدِّر الرئيس أحمد بن بلة، لكنه أخطأ في نزعته السلطوية وارتمائه في أحضان عبد

الناصر، وكان يجب أن يزاح.

سكت قليلًا، ثم قلَّب الصفحة، وأراه صورة أخرى مع الرئيس الذي كان وزيرًا للخارجية مطلع السبعينيات.

منجم من الذكريات والحوادث، خاض في السياسة والتاريخ، كان مثقفًا وفي كلامه أثر تجاربه العميقة. أزهر شبابه عندما كان اليسار يعيش مجده. اليسار هو الوجه المشرق للإنسانية في القرن العشرين، قال له ثمَّ تنهد وأضاف: أما الآن فتحكمنا الأصولية والشركات.

كان يتعمَّد ألَّا يحدثه عن والده، ويريد أن يتركه معلقًا. لم يفهم لِم يفعل به ذلك. في لحظة ما كاد أن يثور في وجهه. من بين صور الألبوم كانت هناك صور تشبه الصور التي يحوزها، ونزلت من عينه دمعة لمَّا رآها. تجاهلها ومرَّ عليها سريعًا دون أن يعلِّق بكلمة، حتى لما قال بشكل عفوي في ما يشبه صرخة: «هذا أبي..!!» تظاهر كأنه لم يسمعه.

كانت الصور متطابقة مع تلك التي بحوزته، لكن صوره أقدم أو هي نفسها، لم يفهم شيئًا. التبس عليه الأمر، وغلب عليه الحزن والغضب. قالت أمُّه إنه رجل حقيقي، ولن يبخل عليه بالمساعدة، لكنه وجده يتجاهل ما أتى إليه من أجله.

حاجباه كثان، ظل يرفع النظارة، أثناء جلستهما، ويمعن فيه النظر، ثم يعود فيجيل بصره في الجدران أو تحت

قدميه. طلب منه أن يحضر قهوة وكوب ماء، فأحضرهما مستاء في صمت. كان يفهم الموقف ويمسك على خوف، ويجرِّب شعورًا جديدًا عليه حتى وهو في تلك السن، بينما شدَّ كمال على أعصابه، ثم ما لبث أن قال حانقًا:

ـ سامحني، يجب أن أغادر.

لم يتمخض أي صباح لاحق عن أسوأ ممَّا مرَّ به بعدما خرج من عنده. الباب موصد والأفق بعيد، وهو يستهلك مدة بقائه يومًا بيوم، ونقوده تنفد. لا يمكنه أن يتصل بأمّه ليقول لها إن الرجل، الحقيقي والطيب، تجنَّب أن يتكرَّم عليه بمعلومة واحدة عن والده، ولم يذكره بالاسم حتى، وأنه وحيد وفاقد للحيلة معه. تمنى أن يطَّلع الغيب، ثم يكون للغيب فسحة بوح، فيخبره بما كان ليرتاح.

مطر خفيف ينزل منذ الأمس، والسماء تغسل أدران الأرض. اشترى مظلة وسار على الأرصفة، تبلل حذاؤه وجورباه، كان ينظر في وجوه لا تعرفه، ولا يهتم أصحابها إلا بأنفسهم. شعر بالحاجة إلى تعاطف أي أحد، وإن كان من قبل يكره شفقة الآخرين عليه. رغب في أن يمسك أي إنسان من ذراعه، ويحكي له عن قصته. أفضل من يبوح لهم المرء غرباء التقى بهم مصادفة، ولن يراهم بعد ذلك أبدًا، شاب عطوف أو عجوز خبرت الحياة وتعرف مسالك الهروب من الأحزان.

طوى المظلة، واختبأ عن المطر عند مدخل أحد

المحلات، وذهب بعدها إلى مقهى. فتح هاتفه وكتب لآسيا ردًّا على رسائلها الكثيرة:

«توحشتك يا امرأة».

آسيا نفسها لا تفهم لِمَ تريده هو بالذات، قررت في نفسها أنه الحبُّ، لكن تداركت وفكرت أنها نضجت، وتجاوزت مرحلة التعلق الساذج الذي لا تجني من ورائه سوى الخسارة. كتبت له مرَّة إنها اشتاقت إليه، رغم أنه وغد وحيوان، ولا يستحق أن تفكر فيه لحظة واحدة. رجل يشبهها، تريده ليكتمل به نصفها المشوه. تسرح كثيرًا عندما يلفهما الصمت وهي معه، لا تعرف شيئًا، ولا تستند بشأنه لأي يقين.

قوتها رهيبة في طلب الأمنيات، ضعيفة مثله وهشَّة أحيانًا، لكنها لا تستسلم ولا تفشل. وكل ما تعرفه أنها تريده لتمتلئ به. مشوَّه هو الآخر، لكن حكم العقل لا يمنعها من أن تتمناه، تعتبر أنه حب حياتها الذي لا يعوض. لا تعرف إلام تنتظره. قد يخيب رجاؤها فيه، أصبحت كمن يسير في العتمة، وهو نقطة الضوء الوحيدة التي تسعى إليها وتسترشد بها، ونقطة الضوء تلاعبها، لامعة قريبة أحيانًا، ثم خافتة وبعيدة في أحيان أخرى. يعشقه قلبها، وتمنحه الجسد عسى أن يقترب من النفس. يحبها أيضًا، لكنه تائه ويغازلها بعينين زائغتين، وتسمع منه في نشوة غير مكتملة.

لا تدري إلى متى ستشهد شوارع العاصمة، وكافتيرياتها، لحظات حبِّهما السِّري. ألا تستحق أن يضمَّها معه بيت ليكون متاحًا طوال الوقت وفي متناول القلب والشفتين؟ كانت تقبِّله خلسة وتحتضنه خلسة، ثم إمعانًا في التعلُّق مضت معه إلى الفندق حيث إسكندر وأمه الساقطة، مثل امرأة رخيصة لا تستحق أن تعيش الحب في النور، كانت تمضي معه، بكت في المرة الأولى بحرقة، ثم استسلمت لقدرها معه.

وكتب لمريم، عرَّابة جرحه الأول، بأنه لم يُشفَ منها بعد، كان في قلبه شوق وحقد، ومشاعر ممزوجة بنكهة مريرة. يشعر بسعادة خفية عندما تشكو له حياتها الصعبة، وتخبره بأنَّها تعيسة.. يداوي جرحه بالتشفِّي فيها. كلَّم خالته بعد ذلك وألحَّت عليه في الرجوع. كان يعرف أنها لا ترغب في أن يطلع على أي شيء، وأن يبقى، كما هو، مغمورًا بالجهل وبالعذاب.

دخل إلى الفندق ثم خرج مرة أخرى، وحيدًا وتائهًا مثل ألف مرة من قبل، ومشتتًا لا يعرف نفسه من خلال نفسه ولا من خلال الآخرين. أي وجود هو وجوده؟ على الرصيف مشى خطوات، هذه المرة لم يأبه للمطر، ثم توقف. سار وئيدًا كمن يهرب من نفسه ومن ماضيه. أفادت التوقعات بليلة دافئة، لكنه أحس ببرد غريب يتسلل إلى بدنه. دخل إلى أول حانة مرَّ بها، واتخذ له مكانًا كيفما اتفق. جلس وتزحزح عن كرسيه قليلًا، ثم

تحول إلى أريكة في عمق البار، خُصصت غالبًا لمن ينوون قضاء وقت طويل.

أرخى أطرافه ومدَّ رجليه. تأخر النادل قليلًا في القدوم إليه، انتظره حتى يستقر تمامًا، ثم جاء بابتسامة لم ترُق لكمال، وأكثر من الثرثرة أو بدا له ذلك.. الكثير من البيرة والقليل من الكلام، كان هذا أقصى ما يتمنَّى حينها. ولحسن حظه، قادته المصادفة إلى مكان هادئ جدًّا، لكن صخبه الداخلي كان عاليًا.

تسلَّلت إليه مريم في وحدته المثالية تلك، حضرت واقتحمت أفكاره وعواطفه. بعدما قرأ رسالة ردَّت بها على رسالته: «لست بخير تمامًا، زوجي في البيت الآن، يمكن أن نتحادث لاحقًا»، وجدها تجلس معه وعلى ملامحها الكثير من الأسف، واكتفى بأن ينظر إليها نظرة غضب واحتقار، والقليل من الشوق لنفسه عندما كان يحبُّها. لم تعتذر له عن كل ما فعلته بقلبه، غير أن عينيها قالتا كل شيء. تلذذ بحزنها وانكسارها أمامه.

ساعتان أو أكثر وهي معه، ضاع منه الزمن، ثم انسلَّت هاربة مرة أخرى. بصق عليها أو هكذا بدا أنه يفعل، لتتطاير قطرات اللعاب فوق السطح الزجاجي لطاولة موضوعة أمامه، شهدت قارورات البيرة كم كان بحاجة لهروب عميق ولو مؤقتًا، يعقبه صحو أصعب وأشد مرارة.

لم يشفِ صديق خاله الحميم، عمي عيسى، غيظ صدره

ولم يداوِ يأسه حتى بكلمة. رحَّب به كثيرًا، ووجده دمثًا، واقترح عليه أن يقيم عنده، لكنه لم يبالِ عندما سأله عن عبد القادر بن صابر، ولمَّا ألح عليه هزَّ رأسه بالنفي وغيَّر الموضوع. كان يسكن قريبًا منه، ولا يفصل بينهما سوى شارع واحد، ومع ذلك أصرَّ عندما سأله عنه مرة أخرى على أنه يسمع بالاسم ولا يعرفه بشكل شخصي.

أخبره بأنه قصده ليسأله عن والده، قالت أمُّه إنه كان قريبه أو صديقه، لا يعرف طبيعة علاقتهما تحديدًا، ويمكن أن يفيده. لم يسمع منه أي ردٍّ كأنه يخاطب رجلًا أصم، التزم الصمت قليلًا ثم سأله:

ـ وماذا قال لك؟

ـ لا شيء، تجاهل الأمر تمامًا، وأنا موقن الآن أنه يتعمَّد ذلك..

عندما رآه تذكَّر أنه التقى به من قبل، أو بمن يشبهه كثيرًا، لكن نسي متى وأين. خانته ذاكرته وحاول أن يتذكر دون جدوى. بادره عيسى بالقول: لا تتعب نفسك، لقد رأيتني في المقبرة يوم جنازة والدتك. تذكَّره، جاء يومها ومشى في جنازتها، وقدَّم العزاء بحرارة، ثم بقي معهم يتلقى التعازي كأنه واحد منهم والميتة تعنيه مباشرة.

تناول الغداء معه. زوجته من بسكرة، عجوز شديدة النحافة، حاذقة وودودة جدًّا. ظلَّت ترحب به طول مدة بقائه معهما. قالت إنها تعرف أمَّه، ومدحتها أمامه بقولها:

فتيحة امرأة ليس لها مثيل. لم يفهم إن كانت تعرفها حقًّا أم أنها أثنت عليها مجاملة له. لم يعد متأكدًا من أي شيء.

حدثت بين عمي عيسى وزوجته جفوة في بدايات زواجهما، ثم انفصلا لسنوات، فذهبت عند أقرباء لها في مارسيليا، وبقي هو وحيدًا في هذه الشقة. أثناء أعوام القطيعة معها كان يكثر من النزول إلى البلاد، وراودته رغبة قوية في العودة النهائية لبوسعادة. وبقيت هي على ذمته معلقة أثناء ذلك، لا متزوجة ولا مطلقة. تصالحا أخيرًا، وخمَّنت أن كثرة أسفاره إلى البلاد كان سببها امرأة يذهب عندها هناك، ثم لمَّا وصل معها إلى طريق مسدود، عاد إليها هي.

كان تخمينها في محلِّه، وتأكدت من ذلك بعد سنوات، كانت قد أنجبت له الأولاد، وصار بُعده عنها مستحيلًا حتى لو أراد، فتسامحت مع وجود أخرى تقاسمها إياه على الورق فقط. لم تطلب منه أن يطلِّقها، ما دام لا يذهب إليها سوى مرة كل سنة أو سنتين. التقت بها كثيرًا أثناء زياراتها للبلاد ولم تكرهها، فقط شعرت بالزهو لانتصارها عليها.

بقيت الغيرة بينهما مخبوءة، وتحدَّثتا أحيانًا مثل صديقتين مقرَّبتين. تبادلتا المزاح دائمًا بشأن عيسى وقد كبر، وأخبرتها أنها يمكنها أن تتنازل لها عنه بكل رضا، لكنَّ الأسد شاخ وصار بلا أنياب ولا مخالب، ولن ينفعها بشيء.

كان عمي عيسى يعمل رئيس ورشة في مؤسسة تهيئة الطرق والجسور، ثم تقاعد قبل سنوات، ويقضي يومياته في قراءة الجرائد، وفي الجلوس مع أصدقائه، بمقهى غير بعيد يرتاده مهاجرون جزائريون. وهو من أقدم سكان الحي، ومعروف بينهم بالبوسعادي.

ترافقا إلى الفندق وجلبا حقيبته، أطال الحديث معه عن الجزائر، وعن أهله في بوسعادة. أخبره أنه يشعر بالوحدة، أبناء جيله هنا يترصَّدهم الموت واحدًا بعد الآخر، وزياراته للبلاد صارت متباعدة في السنوات الأخيرة، وقد انقطع عن النَّاس هناك، وأصبح معارفه فيها محدودين جدًّا. خرج من يأسه، وإن لم يعرِّجا على الموضوع مرة أخرى، وفي العشاء حضَّرت العجوز طبق ثريد حار بالدجاج والبيض، وكان يذوق تلك الأكلة لأول مرة.

استقر عيسى بفرنسا أواخر الستينيات، عندما كانت بحاجة للعمالة الجزائرية في فترة سُميت لاحقًا بالثلاثين المجيدة. عمل في البداية بمصنع لقطع غيار السيارات، وانتهى إلى متقاعد يزور البلاد، كل عام أو عامين، لا يعطله عنها شيء. أولاده بعيدون، لذا يعيش مع زوجته وحيدين، ويحلم معها بالحج وزيارة قبر الرسول.

لا أحد يحمل وزر أحد، وكلٌّ وذنبه، الجميع يعلم هذا، ومع ذلك لا يخبر أحدًا أن والده كان حَرْكِيًّا، خائنًا، متعاونًا مع الاستعمار.. (وباقي تلك التسميات الفظيعة

التي تجرح الشعور الوطني). كان مجنَّدًا في ميليشيا رافقت الجيش الفرنسي في التمشيط والمداهمة في منطقة «الحُضنة». يخيَّل إليه أن العالم كلَّه أصبح يتآمر على الحقيقة، أي حقيقة كانت، والنهاية غالبًا ما تكون محسومة. لذا لم يعد يهمُّه حقًّا أن يصدِّق الآخرون أنَّ أباه تعاون مع فرنسا مرغمًا، هاربًا من الفقر، ومن ذلِّ أبناء العمومة الذين بخلوا عليه حتَّى بكيس شعير، يصنع منه خبزًا لأولاده ولأمِّه الكفيفة، وانتقامًا لشرفه من عمِّه الذي تحرَّش بزوجته، ولما صدَّته اتهمها بمراودته.

كان أبي يحبُّ المجاهدين، ويساعدهم بما يتاح له، وأسدى لهم خدمات جليلة، وتستَّر عليهم.. مجاهدو المنطقة يعرفون من هو بلقاسم الشَّار (الدبَّابة) ويعترفون بفضله. يقول ذلك دائمًا. لن يصدقه أحد، الإثبات صعب، والعدالة في مكان آخر، وبعد انقضاء العمر أصبح الأمر لا يستحق العناء.

كره بعضهم الثورة، وعمل على إفشالها من الباطن، وفي الأخير أصبحوا يُعدُّون من الثُّوار. يقول لمن يعرف قصَّة والده، إنه ليس نادمًا على شيء، الظروف حكمت، لكنَّ قلبه بقي معلقًا بوطنه.. ويضيف:

ـ وهؤلاء الذين ينهبون البلد اليوم، ويتسلطون عليه، كيف نصِفهم؟

ظل يطوف على مجاهدي المنطقة، ليشهدوا معه بأن

والده بلقاسم الشَّار كان في الظاهر مع فرنسا، ويخدم في ميليشيا تابعة لها، لكنَّه قدَّم لإخوانه المجاهدين ـ من موقعه تحت راية الجيش الفرنسي ـ كل ما يستطيع. أبلغهم عن مواعيد عمليات التمشيط، وتحركات لفيف المجنَّدين الجزائريين والأفارقة، وتكتم مرة على مخبأ سري داخل بستان، كان به ستة مجاهدين، وصرف الأفراد التابعين له عنهم، ثم أخلى لهم السبيل للهرب، وخدمات أخرى جليلة لن ينساها له الله حتى لو أنكرها الجميع. بلقاسم الشار كان طابورًا خامسًا لصالح الثورة.

تجاوب مع عيسى بعض المجاهدين، لكن لم يعرف في البداية كيف يستفيد من شهاداتهم تلك ويوثقها. وآخرون فهموا أنه يسعى لذلك فقط ليحصل على منحة المجاهدين، سمعوا عن والده لكنَّ أمره بقي ملتبسًا عليهم، ولا يمكن أن يجزموا بشيء.

بعد جهد كان يقوم به في كل صيف يزور فيه الجزائر، لم يتحقق له شيء يبعد به عن والده تلك السمعة السيئة، ويئس من محاولات تبرئته. ظلت واقعة مقتله على يد أحد المجاهدين بعد وقف إطلاق النار، عقبة في سبيل ذلك، رغم أن العملية لم تعدُ كونها انتقامًا رخيصًا من رجل حاقد. عندما كان عمي عيسى يعود إلى بوسعادة في كل مرة، كانوا يتهامسون، يضحكون من جهده العبثي، ويقولون إن ابن الحركي ـ العميل، المتواطئ، الخائن، عدو الشهداء ـ قد جاء ليزيِّف التاريخ، ويمحو عار والده.

صار ضباط فرنسا أسياد البلاد، الكل رضي بماضيهم، وقال الناس إن الضرورة هي التي تحكم المواقف، ليبرروا لهم خدمتهم في صفوف الجيش الفرنسي، وقمع إخوانهم، قبل أن ينضموا لجبهة التحرير بعد أن وضعت الحرب أوزارها، إنهم مجاهدو ربع الساعة الأخير، الذين خوَّنوا الجميع فيما بعد، وقطفوا ثمار تضحيات لم يقدموها.

استعان بومدين بالهاربين من الجيش الفرنسي، والذين لم يطلقوا رصاصة واحدة لصالح الثورة، في بناء جيش عصري. أولئك تكوَّنوا كعسكريين محترفين، يعرفون معنى الانضباط، أمَّا المجاهدون ـ أبطال حرب العصابات ـ فيصعب ضبطهم والتحكم فيهم، وكانت الأولوية إبعادهم عن مراكز القرار بعد الاستقلال، وقد حدث. ألف اعتبار أُخذ في الحسبان من أجل أولئك وهؤلاء، ووالده فقط من يجب أن يحاكم، أخلاقيًّا ووطنيًّا، رغم كل ما قدَّمه للثورة في الخفاء، وكان عليه أن يكون رجلًا خارقًا لا يهزمه الجوع والفقر واحتقار العائلة، ونتعالى مواقفه عن شروط الواقع وحكم الضرورة.

استغل ابن عم بلقاسم الشَّار فرحة الناس ليلة الإعلان عن نتيجة الاستفتاء حول الاستقلال وأجهز عليه، بمطرقة على رأسه، بدعوى الانتقام من الحركى والعملاء وتطهير البلاد منهم. كانت واقعة لها آثارها في المنطقة، وإن حدثت حالات مشابهة في جهات أخرى من البلاد. أما الدافع الحقيقي لجريمته فهو حقده عليه، تمرَّد بلقاسم الشَّار

على سلطة عمِّه، وأهانه لما حاول النيل من زوجته. كان قليل حظ، كما يقول عنه ابنه عيسى أحيانًا، ثم يتذكر مقولة كان يرددها والده كثيرًا: «الرُجلة قتَّالة».

فشل ابنه في إظهار الصورة الحقيقية لوالده أمام الناس، بينما لم يطل الوقت حتى تولى القدر القصاص له من قاتله، ولقي حتفه مقتولًا هو الآخر. انضم إلى أتباع العقيد شعباني، وصُفِّي بتهمة التمرد على القيادة الجديدة للدولة الناشئة، وزرع الفتنة، وتقسيم البلاد.

لعمي عيسى البوسعادي ثلاثة أولاد وبنت واحدة، سلك كلٌّ منهم طريقه في الحياة. اكتفى بأن يقول لكمال إنهم لم يحققوا أي نجاحات تذكر، وفي الحقيقة لم يكن الفشل فقط ما يلاحقهم، وإنما اثنان منهم كانا يخزيانه بأفعالهما، أما البنت فلم يتحدث عنها أمامه بكلمة واحدة.

إلياس هو أصغر أبنائه، والأقرب إلى قلبه، رغم أنه بعيد عنه. اختار إكمال دراسته في أمريكا، ثم استقر فيها، وتزوج هناك. كلَّفه أموالًا كثيرة، لكنه أثلج صدره بتفوقه. وقد أرسل إليهما منذ أيام صورة لطفله الأول من زوجته الأمريكية. أما البقية فهم، حرفيًّا، مجرد كلاب ضالة، ناكرون للخير، ويجلبون له العار. حُكم على أحدهما بالسجن لاعتدائه على فتاة قاصر، والآخر يبيع خولته لعجوز شبه منتهية تنفق عليه، وهذا بالذات كان أمله فيه كبيرًا، ابنه البكر وسماه على اسم والده، وكانت خيبته فيه بلا حدود.

أمَّا ابنته الوحيدة هاجر فطردها من البيت، واعتبرها ميتة، فضَّل البقاء وحيدًا على أن يصبح ديوثًا. عندما وُلدت كان سعيدًا بها أكثر من سعادته بولادة أي من إخوتها الذكور، وكبرت وهي المفضلة لديه عليهم جميعًا. كان قريبًا منها في كل وقت، ومشبعة من عاطفته الأبوية، وبقي كذلك حتى تخرجت من الجامعة. ولمَّا كبرت أخذها معه للجزائر مرات عديدة، وتمنَّى لو يجد لها ابن بلد، شهمًا وأمينًا، يأتمنه عليها، ويساعده هو في المقابل بما يستطيع.. انتهى كل ذلك إلى لا شيء، تمرَّدت، وحاولت أن تفرض عليه قيمًا وممارسات لا يؤمن بها، أرادت أن تهزمه بحبه الكبير لها، ففشلت ولفظها من حياته كأنها لم تكن.

أخبره إلياس بأن أخته أخطأت لما تجاوزت سلطته عليها، وكسرت قلبه بالعقوق، لكنه بالغ من جهته في تقدير إساءتها، وقبل ذلك في تقييدها في مجتمع مخالف لما تربَّى عليه هو. كان رأي إلياس أنَّ شقيقته إذا أرادت أن تكون حرَّة وتتصرف كما يحلو لها، بغض الطرف عن رأي والدها، فذلك يتوافق تمامًا مع العصر والمجتمع اللذين عاشت وتربَّت فيهما.

وعده بأن يتحدث معها، ويطلب منها أن تتنازل، أما ما يحتاج إليه والده فهو أن يحطِّم الصورة التي في رأسه عن المرأة. خشي أن يجرحه بالقول إنه قطعة من الماضي، ولا يعيش الآن في زمنه، بل في زمن الآخرين، ولا يمكن أن

يفرض شروطه عليهم.

لم يفهمه جيدًا، ومع ذلك سوف يسامحها إذا عادت، ويمنحها فرصة ثانية، لتكون بقربه وعلى عينه، ولا تبقى فريسة سهلة للكلاب الضالة. رفع ابنه رأسه عاليًا، يحبُّه ويعرف أن نصيحته له نابعة من القلب. أضحى يفكر جديًّا في العفو عنها. الخطأ وارد دائمًا، وإذا قبل اعتذارها فلن يعني ذلك أن يكون رخوًا أو رجلًا بلا شرف ولا حرمة، إذ يمكنهما أن يتفقا على البدء من جديد.

قلب أمِّها غاضب عليها أيضًا، ومع ذلك تحثُّه على ذلك، دون أن تضغط عليه، تعرفه إذا عاند وركب رأسه. وبعد أن أسعده إلياس بصورة أول حفيد له، قرَّر بينه وبين نفسه أن يسامحها. تبقى هاجر ابنته التي يكن لها حبًّا خاصًّا، وهو يفتقدها كثيرًا ويسرُّه أن تعود إليه.

لا يعرف من أين ورثوا ذلك. لم يكن عاصيًا لوالده، وقد مات بلقاسم الشَّار وهو راضٍ عنه. منذ وعى على الدنيا حتى تُوفي أبوه مغدورًا، بطريقة بشعة، لم يرفع صوته أمامه، ولا حدَّ فيه النظر يومًا. حدَّثه إلياس ذات يوم عن تأثيرات الوراثة في تكوين الشخصيات، فبحث في ذاكرته عن حكايات ووقائع محتملة لدى أقاربه وأسلافه البعيدين، بالذات عن الفاسدين والساقطين منهم أخلاقيًّا، واتجه تفكيره لا إراديًّا نحو بيت عم والده وأولاده الأنذال.

كان من الأحسن لو عاد إلى بوسعادة وربَّى أولاده

هناك، الوقت تأخر الآن، قال لكمال بحسرة، الأولاد كبروا واستقلوا بأنفسهم، والأهل هناك ماتوا أو تفرقوا، وبيتنا القديم تهدَّم، والقرية نفسها أصبحت مجرد أثر. نزحوا كلهم إلى المدن. سأكمل بقية عمري في الغربة، أضاف بأسف كبير، والأرض كلها لله عندما أموت.

كانت زوجته ترمقه بنظرات حادة، وهو يحدِّثه، كلما سمعته يوشك أن يبوح بأكثر مما هو مسموح به، الشماتة على الهرم مهينة، وهما يحتاجان إلى الستر. لم يشكُ له جفاء الذكور، وفسوق الأنثى المنفلتة، هم بخير يزورونا، يقول بلسانه وقلبه ينفطر. عار الأبناء يلبسه الآباء، ولا أحد يسب الابن ويدخر أبويه.

«أخذتهم الدنيا»، هكذا أجابت المسكينة لما سألها كمال عنهم. الكتمان يثقل صدرها، والتصريح واستجداء العاطفة مهين ويجرح أكثر. يتوجع قلباهما ويسكتان. من العيد الماضي لم يزرهما أي واحد منهم، بقوا نصف ساعة ثم رحلوا، للنكران ضروب وقد جرَّبا أمرَّها على النفس. هي وزوجها وحيدان إلا من الله. أخبراه بأنَّه أسعدهما بزيارته، وأحبَّا أن يمكث عندهما أطول مدة، إذ يحتاج صمت الشيخوخة أن يُكسر بحكايات النهار والليل، يتوقان إلى من يحدثهما ويسمع منهما، ويستعيدان أمامه سابق العمر وكيف عاشاه.

يظل كمال موبوءًا بالماضي ومريضًا به دائمًا، ويرهن مستقبله له. ما الذي يريده من المستقبل؟ لا يعرف على

أي أرض يقف، لقيط، زرع شيطاني، يتيم، عديم النسب، مهمَل.. كل ذلك يخطر على باله وأكثر. حيرة كبيرة تغذيها أسئلة تتوالد على نحو بغيض وتفتك بسلامه الداخلي. القادم مجهول كما هو الماضي، وهو ابن اللحظة، ابن يومه الممزق بين بين.

عبوات البيرة لم تعد تفعل شيئًا، يحتاج إلى غياب أعمق وأطول ليس متاحًا أمامه. قد تتمخض لحظة التيه التي يعيشها عما يزيل الحجب كافة، ما زال أمل خافت يراوده بأن ينتظر شمسه المضيئة أو المحرقة. ومع ذلك ينتظرها، ليس لأحد غيره أن يعرف كم تعذب العتمة قلبه وروحه. أي نهاية ستكون أهون عليه من اللانهاية، وأخف وطأة من عذاباته التي طالت وعمَّرت سنوات عمره كلها تقريبًا، واستهلكت كل صبره.

٦

ذكَّره مجيء عناصر الشرطة بوجوههم الحديدية، ودخولهم من الباب الكبير، بتلك المداهمات التي تعرَّض لها البيت أيام كان يحيى «مجاهدا»، وبعدد الصفعات والركلات التي أكلها نيابة عنه. أمَّا الآن فيحيى، وليس أحد غيره، هو من استعان بهم، وابن أخته هو المطلوب. كان قد خرج يجري قبل وصولهم وبقي يراقب من زاوية وراء المحلين المؤجرين. سُمعت ضوضاء وشتائم وأبواب تغلق بعنف، وحضر بعض الجيران يتقدَّمهم الحاج بشير، أقرب أصدقاء خاله. ليس من المعلوم إن كان هذا الأخير على علم بالمقدمات التي قادت للصدام بين يحيى وكمال، في اليوم الرابع وحسب بعد وفاة فتيحة، لكنها كانت فضيحة، والناس يحبون الفضائح. رأى كمال الشماتة في عينَي الحاج بشير، يعرف أنَّ حقده عليه قديم، متورم كالفقمة، وفي حكم المؤكد أنه هو من تولى إبلاغ الشرطة. يرافق خاله في ذهابه وإيابه للمسجد، ويعتبران نفسيهما الوكيلين الحصريين لشركة التقوى المحدودة في الحي.

استعاد مشهد هروبه ذاك أكثر من مرَّة، واستغرب كيف أن المواقف تعاد في حياته معكوسة. ومع ذلك هذا يوم آخر، وهو يقبع في شقة نبيل مختبئًا، والحياة لن تتوقف من أجل أي شيء. تكمن قوة الحياة في قدرتها على الاستمرار بأشكال مختلفة، دون أن تستنسخ نفسها خطيًّا مع الزمن. لكن أشياءها تتغير أثناء تقدُّمها، وما كانت فيها

ثوابت لا يمسها التغيير قد تصير من الماضي. من أجل هذا كله، قام كمال ينعى أشياءه القديمة أو ما كان يعتقد أنها أشياؤه. هل كان يشعر بالحزن على أي شيء فقده وينتابه الحنين إليه.. وما الذي كان له حقًّا ثم فقده.. أم أنه ناقم على ماضيه المزيف والمكذوب؟ لا يعرف شيئًا، فمنذ تلك الجلسة ثم الصدام العنيف مع خاله، وما تلاهما، لم يعد له ميل إلى الإجابات القاطعة، ولا للمقولات الجاهزة التي يعتبر نفسه في الأصل عدوًا لها.

اللامبالاة درع نفسي قوي في مواجهة تكالب الظروف وآثارها عليه.. مملوءًا بها، ومانحة إياه أخيرًا هدوءًا نفسيًّا، لم يكن يتوقع أن يحققه في تلك الأيام بالذات، فتح نافذة الغرفة ليتيح للصباح، شبه الربيعي، أن يعلن عن قدومه بجرأة أكبر.

يتوجب عليه التوجه للمطبخ وتحضير الإفطار، ومن ثم النزول إلى مقهى الحي ليجلب قهوة في فنجان من البلاستيك المقوى، يستعين بها على المكوث في الشقة ليوم طويل. يحب قهوته مركزة وحلوة، وعلبة السجائر لن تكون بلا أهمية بالنسبة لرجل خائف، ويكبت قلقًا عميقًا، يعيش متخفيًا أن يُلقى عليه القبض في أية لحظة. يقتني جريدتين أو ثلاثًا، ثم يصعد ليعود للخروج آخر النهار، قبل مغيب الشمس، لدقائق متوخيًا الحذر في حركته وما يصدر عنه، فالحي أمنيٌّ وأغلب من يرتاد ذلك المقهى هم عسكريون.

يتكرر ذلك منذ شهر، أصبح مثل شيخ لا يرقب أية

بداية جديدة، في الظاهر على الأقل، يحاول أن يتسلى ببرامج تافهة في التلفزيون أو يقرأ الصحف، أو يركن إلى النوم الطويل بعد أن يطهو بيضتين أو ثلاثًا ويلتهمهما مع مثلثات الجبن. كان كمن ينتظر غودو، وغودو يعبث بخصيتيه في غابة بعيدة غير عابئ بشيء.

يتناول أحيانًا كتابًا أو رواية من مكتبة نبيل ويقرأ، بصورة عشوائية، ليملأ وقته. يعيش تلك التفاصيل القليلة والمكررة، حذِرًا من أن يلفت انتباه أي أحد من الجيران، ناهيك عن إثارة المشاكل معهم، كالتطلع إلى نسائهم وهن عاكفات على التنظيف، وينفضن الغبار، أو في الشرفات عندما ينشرن الثياب المبللة. هذا تحديدًا ما وقع فيه مرة ثم نهى نفسه فانتهى.

حفظ القواعد وطبقها كما ينبغي لها أن تطبق، تمامًا كما طلب منه نبيل من أول يوم لجأ فيه إليه بعد الحادثة.

«لن أضعك في سجن بديل، وفي المقابل يجب أن تكون لطيفًا كالظل وألا يشعر بوجودك أحد».

صدَّق على أوامره بالصمت، ولم يجرؤ على أن يعده بالتزام صريح.

وجد نفسه مجبرًا على اعتياد الروتين، وصارت كل يومياته يلفُّها الملل. كان في حاجة للتسكع في الشوارع، وتأمل وجوه الناس وحركتهم. وتلك هواية قديمة يحب أن يمارسها، كما افتقد آسيا، واشتاق لطعم حلمتها في فمه،

مثل ثمرة حلوة لا تضاهى. أحب أن يشاكسها كما تعود أن يفعل عندما يجدها ناقمة عليه ليسترضيها فترضى، ويضربها على مؤخرتها وهو يحدثها عن الوزن الزائد. فكر كذلك في فطيمة خالته كيف تعيش من بعده، وما الذي وقع بعد أن غادر البيت وهي ترجوه أن يهرب قبل أن تصل الشرطة.

من كانت نشازًا فيمن تذكرهن، وأحبَّ أن يحادثها ويكسر حلقة السأم التي تشتد عليه كل يوم أكثر، هي مريم. مشاعر معتقة تطفو دون مقدمات.. «تبًّا لها أزهقت عواطفي بمكرها» يقول في نفسه، ثم يتمناها كأنها المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تستحق مشاعره. لا يشدُّه الحنين إليها، إذ ليس رجلًا مريضًا بالماضي، هذا ما يجب أن يقوله لنفسه، ليتبرأ من تهمة أن جزءًا من عواطفه ما زال مرهونًا لديها. من كانت؟! لا شيء تقريبًا، هذا ما ينبغي أن يقتنع به أيضًا. كانت بالنسبة له كل شيء في الماضي، ماضيه القصير معها الطاعن في الألم والمشبع بالخذلان.. أما هذا فلا يساعد على التجاوز النهائي، ووضع مسافة تسمح بإطلاق أحكام نهائية منصفة.

ما جدوى الأحكام النهائية والمنصفة؟

يسأل نفسه، وهو يتنقل بين الغرف يسحب رجليه، مرتديًا سروالًا قصيرًا وحافي القدمين، وقلبه طافح بالضجر. قد يكون عليه قتلها في اللاوعي أولًا، وفي جذور عاطفته التي آمنت بها نبيَّة للحب. على الأقل ـ وهذا كثير

في حالته ـ لن يعيِّر نفسه بها، أو تعيِّره بها آسيا كلما نشب بينهما خلاف واحتدت عليه. النساء القويَّات يمضين إلى العداء الصريح، والضعيفات منهن غير جديرات بحب حقيقي.

يصبح قلبه وليمة للندم كلما تذكرها. يخجل من نفسه كيف كان سهلًا للخداع والتلاعب كأنَّه مراهق لم يخض تجربة واحدة يتعلَّم منها في حياته. شعر بغبائه عندما كان مندفعًا إليها كثور أعمى، وبغباء أكبر وهو يشتاق أحيانًا لرؤية من ذبحت حبه لها بلا إشفاق. هل كانت تحبه؟ وإلى أية درجة؟ يهرب من أن يصارحه عقله بأنه لم يكن بالنسبة لها أكثر من محطة عابرة، تجربة مسلية هربت إليها من تجربتها الأصلية التي أدركتها الرتابة والركود. الإنسان ملول وهذا يحدث دائمًا. يؤلمه هذا ويجرحه مجددًا، ويشتعل حقده عليها كجذوة لا تخبو.

الحب تجربة يجب أن يخوضها العاشق بكلِّه، دون حسابات مسبقة أو نية مشوبة بألف قصد مخاتل. وهي كانت، أبعد من كسر الملل، تفاضل بين رجلين وفرصتين، وقد اختارت.

لن يقدم لنفسه مواعظ في الحب بعد كل هذه التجارب، وتجربته معها بالذات، النساء فواكه ولا شك أنها كانت فاكهة محرمة عليه. القدر اختار بألا تكون له، والباقي كله أسباب واهية ما كانت لتكون ذات أثر لولا أن الله أراد ألَّا يجتمعا. يقول ذلك أحيانًا ليبرر خديعتها له، ويخوض

معارك كثيرة بداخله ضدَّها ومن أجلها، وتكون الخسارة من نصيبه دائمًا.

لا يتساهل الله في الحب، ويعاقب كل قلب توجه لغيره، لهذا السبب ربما لا يتحقق الوصال بين المتحابين، أو يتحول الحب إلى غير ما كان عليه عندما بدأ. أليس هذا ما يقع أحيانًا في حالات متطرفة كحالته؟ إلام تحول حبه لها؟ شغف يشتعل ويخبو بامرأة صورتها غير واضحة في ذاكرته بعد كل ما مرَّ من الزمن، تشكو له في رسائلها زوجًا باردًا لم يهيئ لها ظروف العيش الرغيد، وتهجره في الفراش، فيدرك أنها نادمة على اختيار خاطئ أكثر من جزعها لأنها ضيعته، ويضمران رغم ذلك ـ وتحت سطوة شهوة آثمة ـ رغبة في الالتحام وتحقيق وصال عاكسته الأقدار والنوايا.

ألهذا يطلب المستحيل ويلحُّ عليها لتأتي ويراها.. ناقمًا ونادمًا، وحاملًا ما لا يحصى من المشاعر المتداخلة والمتناقضة؟ تسوِّل له كرامته أن يستدرجها ليجعلها في مرتبة الزوجة الخائنة، امرأة غير شريفة، محض خليلة ينتقم منها ثم يتجاوزها لغيرها. أي وعاء هو قلبه حتى يحمل كل هذا تجاه امرأة واحدة؟ أو ليقول لها بألف طريقة بأنها لا تستحقه، وتعيش الجحيم بعدما تخلت عنه، وكل ذلك الكلام المكرَّر، ليطعم كبرياءه الجريحة من التشفِّي المضمر؟

ما زال صوتها في ذاكرته وسمعه، وصورتها باقية كذكرى خالدة ونقش قديم على جدار القلب. يتصل بها على

فترات متباعدة، تطلب منه الحذر، فيؤمِّن على قولها ويتواطآن في لعبة عبثية وقاتلة. يلوم نفسه عندما ينتهي من محادثتها، لأنه يضع زوجها في دور المغفل الذي يجري الماء من تحته دون أن يدري، ويشعر بالذنب في حق رجل لا يعرفه ولم يسئ إليه بشيء، لكنه يعود فيأتي الفعل ذاته بإصرار أكبر في مرة قادمة. نصف الألم وخطايا العالم سببها حب أخطأ وجهته، والذاكرة حليفة دائمًا لكل حب لم يلفظ القلب نبضاته الأخيرة، وتطيل عمره حتى يشيخ، ويصبح مشوَّهًا قبل أن يموت.

محادثات افتراضية رسَّخت تعلُّقًا واضحًا وكان للخيال دوره، والتعلُّق تمخَّض عن فرصة حبٍّ قد يكون حقيقيًّا، وموعد اللقاء كان تتويجًا لأسابيع من الثرثرة اللذيذة والغرام. مضى إلى مدينة بعيدة والتقيا. مصادفة نادرة صنعت عاطفة أتت دون مقدمات ظاهرة، ونضجت سريعًا. قصة بدت كأنَّها من زمن الأحلام، ثم ما أسرع ما تحولت الأحلام إلى ضدها.

أخبر أمَّه بأن وحيدها قد عثر على امرأة حياته، وبأنه سيتزوجها متحديًا الظروف التي تعاكسه. أيُّ فرح لأم مريضة بورم خبيث، ومثقلة بسرِّ ولد اختطفته من الحياة ملغم البدايات والنهايات. أصابتها نكسة بعد أن تراجع عنها قائلًا: «لا تهتمي يا أمَّاه.. اكتشفت أنها لا تناسبني». ما أسهل أن يخدع غيرها بقول كهذا، أما هي فخبيرة بما يكفي، تعرفه وتعرف بنات حواء. لم يكن شغفه بها -

كما رأته ـ لينطفئ بتلك السهولة لولا موجة خذلان عارم. تألمت، وتمنت على الله أن يعوضه بأحسن منها قبل أن يوافيها الأجل. وافاها الأجل، وما زالت أمنيتها معلقة، هل تموت الأمنيات برحيل أصحابها؟

لا شيء أسهل على شبح الغرام من أن يتلاشى، يختفي، ليصبح كل ما شهدته الليالي الطويلة التي قضاها هو أمام شاشة الحاسوب أضغاث أحلام. اختفت الماجي بوك (Magi book) فجأة كما ظهرت فجأة، القبول بمنطق البداية يقتضي بالضرورة القبول بالنهاية، والحياة ليست كريمة حتى تقدم دروسًا مجانية لأحد.. سأل نفسه غير مرة عن الدرس الذي تعلَّمه من تجربته معها. أمَّا بالنسبة للثمن فيعرف جيدًا ما دفعه ويدفعه حتى يومه ذاك، فقد كان حسابه مع نفسه ثقيلًا. انتهى الدرس، وهو بغبائه يرفض أن يستوعبه كاملًا بعد.

الوهم جبَّار في سطوته، وربما لا يحب أن يعترف بأن حبَّه لها كان محض وهم قاتل، عندها يكون قد تألم بعمق، ودفع ثمنًا باهظًا جدًّا من أجل أن يرى نفسه غبيًّا ومخدوعًا فقط لأنَّه كان صادقًا.. أو اكتشف أنه لم يميز في الوقت المناسب بين الحب والنزوة، أو الرغبة في ممارسة الجنس تحت غطاء المشاعر المفتعلة. الوقت المناسب: ساعة يتيح الانسحاب أو التراجع فرصة تقليل الخسائر.

الاعتراف عمل بطولي، شاق ومُجهد، سيساعده على وضع الأشياء في مكانها الصحيح، والتجربة التي خاضها تمخضت

عن هباء خالص.. لن يقول ذلك لنفسه حتى، فضَّل المكابرة متحملًا الاستمرار في دفع الثمن إلى آخر قسط، بدل أن يواجه عقله ويصارح قلبه، ويعالج ذاكرته المعتلة بها، بأنَّ التجربة لم تثمر سوى حكمة متأخرة لا حاجة له بها.

دفع أثناء الأيام التي عاشها معها، وبعدها، أثمانًا باهظة مقابل درس يرفض أن يتعلَّمه رغم قسوته، وتحمَّل آلامًا مجانية إلى حدِّ السخرية، إذا تجرأ وأعاد على أحدهم قصته في يوم ما، وهو ما لن يقدم عليه أبدًا، بعد أن أفشى لآسيا بعضًا منه.

ندم على إخبارها بقصته، ربما اعتبرها مجرد عابرة يلتقي بها مرة أو مرتين، ويمكنه أن يبثها خيبته دون خوف من أن تستخدمها ضده في يوم ما. أصبحت تذكِّره، تنكأ جرحه وتعرِّيه أمام حقيقة أنه ليس الرجل الاستثنائي الذي لا يمكن لامرأة أن تستغني عنه أو تتلاعب به، وأمارات السذاجة بادية عليه، إذ لم يستطع حتى أن يرسم الحدود المناسبة بين الشهوة والغرام.

كان هشًّا ولا يحسن تقبُّل الهزائم القاسية. الإنسان تنحته التجارب، وقد صار بعدها حكيمًا بما يكفي ليفهم ذلك. أبلغته مريم بأنها ستتزوج، أرغموها على القبول برجل آخر، وناضلت من أجل التخلص منه، لكن لقدرة النساء هنا حدودًا ضيقة، هذا زعمها له في سهرة صيفية حزينة، وهذا ما أحب أن يصدقه. أما في داخله فكان يرفض من

البداية ذلك الاتجاه المبالغ في دراميته، راجعه عقله بشأنها بأكثر من حجة، ومع ذلك أودى به عماه.

لا يهدر الدموع حتى في الظروف التي تستدعي ذلك، هذه المرة، كان الظرف يستدعي وزيادة، والحب يهزم الرجال. دعا الله من قبل أن تكون له، وأن يتسامح هذه المرة مع قلب تعلَّق بغيره، ولم يتساهل معه. فيه شيء من نقاء وطُهر جديرين بأن يحميهما الله حتى بإيلامه حد الوجع. «ما زلت لا تعرف النساء يا ولدي» تقول له أمه، علمته تلك التجربة وإن كان يكابر ويرفض الاعتراف، وقد آن له أن يعرفهن.

يشيح بوجهه عن والدته، ولا يلبث أن يمضي خارجًا كلما تعاطفت معه، مظهرًا أمامها ـ كأنه ليس مجروحًا بعمق ـ قدرًا ضئيلًا من اكتراث يحميه من شفقتها عليه. نبهها بألا تخبر أحدًا، إذ لا حاجة له في أن يعرف الآخرون كم هو غبي ومخذول. تسكع في الشوارع كل يوم مجتهدًا في النسيان، كانت أبعد من امرأة، وكان أبعد من حب ذي وجهة واحدة.. وأقرب من كل شيء.

حضر عرس أحد الأصدقاء، باذلًا جهدًا آخر للنسيان والتجاوز، ذهب إلى العريس مهنئًا، ثم وقف ينظر إلى أهله والمدعوين في القاعة الفسيحة. أحضر مريم وزوجها المخدوع هو الآخر، وأجلسهما مكان صديقه وعروسه، وأقام لهما حفل زفاف جديدًا بحضوره هذه المرة، ثم وقف بعيدًا بكامل حزنه على مشاعره التي أخطأت

الاتجاه. تساءل كثيرًا، أثناء حفل الزفاف الذي أقامه لهما، إن كان القدر قد حرمه منها أم رحمه من امرأة مزيفة عاقب بها غريمه؟

امتنع عن الأكل واكتفى بقهوة في فنجان كبير، ولما انتهوا من الطعام وتقديم الهدايا، علت الموسيقى والأغاني التي تضج بالحب وبالاندفاع الأهوج، وجرفه التيار. رقص كثيرًا، حرك جسمه كيفما اتفق، وتلاشت كآبته في زحمة الأصوات والحركة، شباب كثر تناوبوا على وسط الحلقة. كان يفعل ذلك لأول مرة، لا يبالي، الرقص يداوي الجراح، ويجعلها تنام لبعض الوقت، أو يدفع ألمها ليبلغ مداه.

أراد أن يلفظ من ذاكرته كل يوم عاشه معها، وأن ينسى صوتها وصورتها وتعوُّده عليها، لتصبح عنده كأنَّها شبح مرَّ والسلام. اخترقت الموسيقى والصخب طبقات حزنه، وخرجت آلامه المكبوتة من أزمنة غابرة من مسام جلده، كالسموم، مثل أفاعٍ ترفع رؤوسها وترقص معه، وتلف وجوده في ذلك الوقت غير المحسوب من الزمن.

سمرتها الخفيفة، خصلة شعرها تحت الخمار الرمادي الداكن، عيناها الحاذقتان، أنفها اللطيف ونحافتها المغرية واستسلامها الظاهري.. يغيب كل ذلك ويعود. انتشى بالرقص وتخفَّفت روحه. تخلَّص من عبء الأب الغائب، أو المغيَّب، ومن محنة حب مهدور، وجعله دخان سيجارة محشوة، ناوله أحدهم إياها، يتسامى أكثر.

للنسيان ألف طريق سالكة، وقد اكتشف إحداها. عاد نائيًا وأبعد ما يكون عن نفسه، يضحك مقهقهًا ثم يبكي دون دموع، وصوت خاله الذي يعلو مستنكرًا ومحذِّرًا من العودة لمثل ذلك لا يصل إليه. غضبت أمه لكنها لم تكن ناقمة عليه، أمَّا خالته فغلبت شفقتها عليه كل شعور آخر، واستعاذت بالله وهي تنزع له حذاءه، ثم وهي تطوقه بذراعيها وتدسُّه في الفراش.

عندما أفاق من نومه متأخرًا، برأس ثقيل، لم يتذكر سوى حلقة الرقص التي كانت تعجُّ بوجوه لا يعرف أصحابها. تدلت يمينه واهنة، ثم امتدت لتتناول ورقة وقلمًا من درج صغير بجانب سريره العريض ذي الألواح البنية العتيقة والأرجل العالية. اعتدل في جلسته وكتب على الورقة بخط سيئ: «أنا لم أرقص فعلًا سوى مرة واحدة في حياتي، كان ذلك في عرس صديق بائس لا يعني لي شيئًا، كنت جائعًا ومهزومًا مثل ابن آوى فقد أنثاه في القطيع».

يعرف نبيل من قبل أنه يكره القيود، ومع ذلك طلب منه عندما أحضره ألا يستقبل أحدًا في الشقة، وألا يغادر الحي إلا بإذنه. ربت على كتفه كمن يعزيه، ساخرًا، في المدة التي سيقضيها عنده، قبل أن يكون الخروج متاحًا بالنسبة إليه. وأضاف: هناك أثمان يجب أن تُدفع يا صديقي.

لم يشأ خرق القاعدة الأولى، لكنه خاطر بالخروج من

الحي دون علمٍ صاحبه وذهب للقاء آسيا. بالفندق ـ المرقد ذاته حيث تعوّدا أن يلتقيا في كل مرة يغلبهما فيها الشوق، هيأت نفسها له وجعلت تنتظر، اشتاقت للمسته الحانية وشغفه بها. اهتمت بكل التفاصيل التي يحبها، أقراطها الطويلة وعقدها الذهبي حول عنقها الناصعة، الشعر القصير الذي يحبُّه، القليل من الماكياج، والعطر الذي طلب منها مرارًا ألا تضع غيره أبدًا.. اشترت منه زجاجة أخرى من أجله، لكنه غاب طويلًا وانقطع عنها. سافر إلى تركيا وعاد، ولم يخبرها، ثم فاجأها بزيارته السريعة إليها في الصيدلية، ليخبرها بأن والدته قد رحلت.

وقفت تحاول أن تنظر إلى انعكاس صورتها في المرآة بعينيه، رسمت ابتسامة مزيفة، كأنها تستدعي الفرح بعودته إليها وجرعة أمل بألا يكون إلا لها. انتابها وهي تفعل كل ذلك، وتحسب الوقت الضروري لوصوله دقيقة بدقيقة، قلق سابق لأوانه من خيبة تمنت ألا تكون وشيكة. ليس في يومها ذاك على الأقل. كان هناك حاجز قد صار بينها وبينه، ربما لطول انقطاعهما بعضهما عن بعض، لم تكن متأكدة من شيء، لكنها اجتهدت في أن تبعث في اللقاء الحيوية الجديرة بحبيب وحبيبة أضناهما الفراق طويلًا.

بادرته بعناق طويل وقبلة حارَّة عندما وصل، وأدركت في اللحظات التي أعقبت ذلك أنها لم تكن تتوهم، وأن حدسها الأنثوي قد يخطئ أحيانًا بشأنه لكن ليس إلى درجة أن يضللها تمامًا. لم يلتقيا بحميمية كاملة سوى ثلاث

مرات طيلة عام كامل، اعتذر عن شروده وانقطاعه عنها في المدة الأخيرة، فسمعت منه دون تعليق، كظمت غيظها، ولم تعرف كيف تتصرف. وفي أقل من دقيقة خبت نارٌ ظلت مشتعلة في جسمها منذ اللحظة التي طلب فيها منها أن تأتي ليراها.

أحسَّت أنه لم يأتِ، أو لم يأتِ كاملًا على الأصح، جاءها منقوصًا وقد ترك قلبه خلفه، وبريق عينيه اللتين كانتا تلتمعان عندما يراها، انطفأ. كان كمال معها دون أي حبٍّ. تتذكر أول مرة جمعهما سرير واحد، مضى وقت طويل منذ عاشت معه سعادة الدنيا كلها في يوم لا تنساه أبدًا. أيُّ معجزة يجب أن تحدث كي يتكرر ما يشبهه؟

منذ كانت يافعة يسكنها يقين بأن حظها في الدنيا لن يكون موفورًا، وعليها أن تكتفي باقتناص القليل من الفرح كلما واتتها الفرصة، والقليل دومًا خير من لا شيء، أو هكذا أقنعت نفسها لترضى به كيفما جاءها.. شاردًا وباردًا وخائفًا قبل أن يخرج متعجِّلًا. بالكاد سمعت منه كلمات قليلة، بنبرة لا حرارة فيها، كررها دون إحساس كمن يستظهر مغازلات مبتذلة لا يقصدها حقًّا، ثم ارتدى ثيابه وغادر الغرفة. رغم أنها حصَّنت قلبها من خيبة الأمل بأن تقتصد في توقعاتها بشأن هذا اللقاء إلى أدنى حد، غير أنها لما ذهبت ووجدته ينتظرها في البهو، وسارت بعدها خلفه، كانت تتربَّع بداخلها صحراء ممتدة بلا حدود.

واجه تعاطفًا عارمًا من قبلها، بعينين مصوَّبتين إلى كل

شرطي يمر، ثم سمعها تقترح عليه أن يتقاسما أعباء المرحلة العصيبة ـ وكان هذا خارج دائرة تفكيره عندما مضى إليها. نقص المال، الخوف من الشرطة، قلَّة الناصر والصديق.. وحيدان ويجب أن يكونا على قلب واحد، أكملت تخاطبه، علينا يا حبيبي أن نستأجر شقة صغيرة تؤوينا، بغرفة واحدة إذا تطلب الأمر.. ليس عليك أن تتحمل شيئًا، فراتبي الشهري يكفي وزيادة، كل ما ينقصنا بعض الاحتياجات وسنلبيها كيفما اتفق. راحت تبالغ في قدراتها وتهوِّن له من المتاعب المنتظرة، وتمارس عليه الكذب الحلال. ليس هذا ما أراده تحديدًا، لحظة قرر خرق القواعد، كما ليس من عادتها الاصطياد في الماء العكر، لكنها تبقى امرأة، إنها تريده ولن تدخر وسيلة في سبيل ذلك.

يفهم أن نيل بعض المطامع يتطلب ركوب الخطر، وهذا واضح في ذهنها، وليست غبية أو غافلة عن تبعات ما تقترحه. من جهته، لم يكن ذلك ما أراده ـ كرر بينه وبين نفسه للمرة الثانية ـ بل سعى لمجرد ارتواء عاطفي عابر لا أكثر.

اعتقد أن الناس ينظرون إليه كمشتبه به، فاقترح عليها أن يلجآ إلى صالون شاي قريب، زيادة في الحرص. تبعته، وهي تخبره أن قميصه غير مكوي وأن منظره شبه مزرٍ إجمالًا، ثم أردفت: سلِّم إليَّ نفسك وسترى. ما زالت تحاصره بحبها وبتضامنها، ولن يستطيع أن يشرح لها الموقف، أليس يحتاج، هو بالذات، أن يشرح له أحدهم

ما يحدث له؟

تخلفت عن الذهاب إلى الصيدلية لما طلبها، اعتذرت له عن غيابها عن جنازة والدته مرة أخرى، مرجعة السبب إليه إذ لم يخبرها في حينها، ولم تنس أن تلومه على إهماله لها في الأسابيع الأخيرة، قبل أن تعرف منه ما جرى. قص عليها ما وقع، ولم يحب أن يتعرى أمامها تمامًا فلم يسهب في التفاصيل. ارتسمت له في ذهنها صورة أخرى، وشعرت أنها أضحت، فوق حبها له، تشفق عليه، ويملؤها نحوه شعور بالأمومة ورغبة في الاحتواء.

رجل يائس ومحاصر ووحيد، في لحظات غضب وتهور، ضرب خاله على وجهه، قد يكون أنفه كُسر نتيجة ذلك، لا أحد يعلم، ثم ركب فوقه، وانهال عليه.. الكدمات وآثار الضرب تنبئ عن درجة القوة التي استخدمها ضده، ثم.. ثم ماذا؟! لا شيء تقريبًا، فعلته مبررة، ولا أحد قال إن العقل يجب أن يكون بلا حدود، وهو ليس عدوانيًّا بالفطرة، بيد أن الظروف حكمت عليه بأن يردَّ بعنف في ساعة أدار عقاربها الشيطان.

شكرت الظروف في سرِّها، وفهم هو ذلك، ظلت تخفي ابتساماتها واجتهدت في إظهار كَمِّ دهشتها مما حدث وتضامنها معه. رأت أنه يوشك أن يعلن لها عن استسلامه وموافقته، وفكرت في التخلي عن المبيت عند أختها - بالقرب من ساحة الشهداء - ليبدآ معًا حياة جديدة. ستساعده على الاختباء عن أعين الشرطة، وربما لن يتقدم

خاله بأي بلاغ ضده. أراد التخلص منه ونجح، فيم يفيده حبسه؟ وتبقى رابطة الدم قوية مهما كانت الخلافات، وسيستولي يحيى على كل شيء مقابل تلك اللكمات المتتالية التي تلقاها من ابن أخته.. ثمن عادل، هكذا رأت، ولا شيء بالمجان.

اجتمعت في ملامحه كل آي الأسف والاعتذار الصامت، فوق الشعور بالخوف والرغبة في العودة إلى الشقة. رأت هي ذلك، لكن لسانها كان لا يزال يسوق الحجج والمبررات، ويزين له فكرتها بالأماني. العين لا تكذب، توقفت عن إقناعه فجأة، تغيرت تعبيرات وجهها، ولبست مسحة من لون قيامة أملها الذي كانت تربيه منذ الصباح.

خاطبته بحدَّة:

ـ ستبقى أنانيًّا طوال حياتك وضالًّا كالكلب، لم أعرفك اليوم فقط.

أمسك بيدها وحاول أن يهدئها أن تثير الانتباه، يعلم أنه عمل عبثي إذ يعرفها حين تغضب، واختفت لامبالاته مفسحة المجال لمشاعر تناسب اللحظة. رد عليها يريد أن يخرج من المأزق:

ـ سأفكر في اقتراحك.

ـ لا تتصل بي مجددًا، أعرف أنك ما زلت تفكر فيها وتحنُّ إليها.. لا عجب فأنتما من طينة واحدة، تركتك مهانًا

وفضلت عليك رجلًا آخر، وما زلت تحبها؟

ـ تأدبي وإلا صفعتك..

لم تكترث لتهديده، وأكملت تقول:

ـ تتواصل مع امرأة متزوجة على الهاتف وفي الفيسبوك.. هي خائنة وأنت ماذا؟ عشيق افتراضي! أهذه أقصى أمنياتك.. هل تعي كم أنت نذل وبائس الآن؟

في المساء، عند ساعة الذروة بعدما خرج الموظفون من الدوام، كانا قد قطعا شوطًا طويلًا سيرًا على الأقدام، متكاتفين وصامتين، يفهمان أن كلًّا منهما كذراع مبتورة اليد، يملؤهما العجز وقلة السند. لم يلههما تدفق البشر المتوجهين إلى محطات الحافلات والقطار، وهما يسيران عكس الاتجاه، عن الالتفات إلى بعضهما من حين لآخر وعن التفكير الصامت، وكانت شاردة أكثر منه.

بدا أنهما متفاهمان أفضل من ذي قبل، في الصمت تتضح الأفكار والنوايا. ضعيفان وتائهان، مشيا ببطء. توافقت ذاكرتاهما، واسترجعتا بشكل متزامن، ما حكى لها.. ليس رغبة في ترتيب الماضي القريب، وإدراجه نهائيًّا في خانة ما قد يُسترجع في المستقبل جاهزًا دون تدخل أو تعديل، بل بسبب أن ذلك الماضي أقرب من أن ينتهي بالسرعة المرجوة، حيث ما زالت ظلال ذلك اليوم العابر تطاردهما. يتخوَّف من خاله ومما يمكن أن يفعله به، ولا يعتبر أن السجن أعظم ما قد يواجهه، غير أنه

كره الدخول إليه بتلك الطريقة، دون تخطيط أو حساب، ومظلومًا فوق ذلك.. وفعلت هي بدافع التقمُّص، كانت تحبه، وتغوص في تفاصيله وتسرح فيها برغم شجارهما المحتدم.

لم يخطط كمال للاعتداء على خاله برغم إحساسه بأنه يريد أن ينهب حصته. طلب نصيبه نقدًا عندما أخبره أن البيت يجب أن يباع.. علا صوتاهما، وقلب خالته يضمر الخوف والترقب. لا ينبغي لرجل منصف أن يعتبر يحيى رجلًا لِيِّنًا، دون أن يقصد ألا يكون الحق بجانبه، خاصة إذا برر نزوعه لتهميش كمال بأسباب لا يمكن الإفصاح عنها، وأن الضرر المتحقق على ابن أخته جراء معرفته للحقيقة أكبر، بما لا يقاس، من أي مال قد يصيبه.

كل «ظالم» يجد ما يكفي من الأعذار ليبرِّر ظلمه للآخرين، هكذا علَّق نبيل في البداية عندما سمع القصة من كمال. في المقابل، لعنته آسيا بقدر خفيف جدًّا، إذ أتاح لها ذلك احتمال أن يُظلها مع كمال سقف واحد. ما زالت تظن، مثل بعض النساء، أن المال يغير الرجال، ومن الأفضل لها أنه يرفض أن يعطيه شيئًا من نصيبه في الميراث.

سحبته خالته من يده، بعدما قدَّرت أنهما سيتحولان إلى العراك.

ـ أنت رجل مصلٍّ.. ألم يوصنا الله بصلة الرحم وأداء

الحقوق لأهلها، مشيرًا بأصبعه إلى صدره..

هكذا خاطبه مصدومًا من موقفه المفاجئ.

ـ أهلها.. هل تمزح؟! ثم إنك عاطل وفاشل، وتتعاطى المنكرات فوق ذلك، وستضيِّع المال..

لحظت عينا كمال لمَّا بلغه المعنى، وأراد أن يستخرج منه أكثر، فسأله:

ـ نعم أهلها.. ألست منكم.. أليست أمي وهي أختك؟!

لم يجبه، وقد تحولت إليه أخته ترجوه بألا يقول شيئًا.

ـ أعطني نصيبي نقدًا، وليذهب كلٌّ منَّا في طريقه.

ـ لا حق لك في شيء يا فاشل.. فلتذهب ولتسأل عن والدك.. هذا أفضل لك.

بالكاد كان قد أنهى عبارته تلك، حتى قفز إليه من وراء طاولة خشبية مستديرة، وكان جالسًا فوق السرير. هجم عليه فسحبه وطرحه أرضًا، وضربه مستجمعًا كل قدرته على الإيذاء لينتقم لسنوات من القهر وكظم الغيظ. ركب فوقه، وأطبق يديه على عنقه، وكاد يخنقه ليستوفي منه حق ماضٍ مليء بالشك والعداء المضمر.

«أنت تطعن في أمي يا منافق..».

ظل يكرِّر ذلك بحنق وبعدوانية نافذة. أحكم قبضته على طوق معطف صوفي، اشتراه يحيى من على رصيف

يصطف على طوله الباعة الفوضويون قرب محطة آغا للقطارات عائدًا من إحدى زياراته المعتادة لابنته، ثم أمسك برأسه وضرب وجهه على البلاط. كانت خالته تشده من قميصه حتى تمزق كمه الأيسر، تداعى إلى رأسه جنون الدنيا، وترك دمه على ثيابه وعلى البلاط.

لم يخض عراكًا مشابهًا منذ كبر أبدًا، لكنه ضرب مرة زميله في القسم عندما تكلَّم باستهزاء عن والده أمام جمع من التلاميذ، وسب أستاذته لما وبخته لرد فعله العنيف.

ـ أمك؟!

قال يحيى مقطوع الأنفاس والدم يسيل من فتحتي أنفه.

كانت فطيمة قد نجحت في رفعه عنه، فقط لما أخرج الشحنة الأولى من غيظه، وجرَّته إلى غرفته ترجوه ـ باسم أمه ـ أن يكف عما يفعل. وحيث كان الصندوق الخشبي الذي قضت فيه أخته ليلتها الأخيرة قبل الدفن، بقي يحيى ممددًا قبل أن تعود فطيمة باكية، وتعينه على النهوض وتمسح دمه، وقد أغلقت على كمال في غرفته. خرج إلى البهو يجرُّ قدمين تحملان جسدًا منهكًا وكبرياء جريحة، ثم خاطبه من خلف الباب متوعدًا: سأدخلك السجن يا فرخ.. وأضاف، متأففًا يمسح دمه، بنبرة قاطعة: نبتة شيطانية يجب قطعها.

عاد يحيى للتماسك، وذهب إلى غرفته وحاول أن يفتح عليه الباب. ضربه بقوة وكمال خلفه، وأخذت فطيمة

تصرخ. حدثت جلبة وجاء بعض الجيران. حسنًا.. يمكنك أن تحبس نفسك في غرفتك كالجرذ إلى أن تأتي الشرطة وتعرف كيف سوف يربونك، قال له يحيى متوعدًا، والحاج بشير يقف إلى جانبه، يصب الزيت على نار غضبه. اعتبر جارهم وصديق خاله أن فرصة الانتقام لشرفه، ولابنته لويزة التي أغواها ذلك الشيطان قد حانت. ارتبك كمال للحظات، وربما انتظر ليتأكد من جدية تهديده بالشرطة والحبس، ثم فتح الباب بسرعة خاطفة ودفعهم عنه، وخرج هاربًا من الاحتمال الذي تصاعد في رأسه.

أفادت المعاينة الطبية بعد ذلك أنه سبَّب له أذى كبيرًا في أنفه، وترك كدمات على وجهه، وكُسر طقم أسنانه.

بات ليلته بمرقد تعوَّد أن يعاشر فيه آسيا ولم يدفع حق المبيت. إسكندر ابن صاحبة المرقد معجب به، وطمع أن يستخلصه لنفسه، وابتسم ابتسامة من أُهديت له غنيمة كبرى لما رآه يدخل ثملًا ووحيدًا يبحث عن غرفة شاغرة. ذكَّر آسيا أول مرة رأته فيها بطليقها، المخنَّث، ضعيف الشخصية أمام أمِّه حدَّ الانسحاق، فاشمأزت منه، وضحكا بعدها وتهامسا بشأنه. وبينما كانت في إحدى المرات تنتظر كمال الذي خرج لشراء السجائر اقترب منها، وأطرق برأسه قليلًا، وقال متنهدًا: أنت محظوظة به جدًّا يا امرأة.

أحمر الشعر والبشرة ومتورد الخدين وردفاه ممتلئان، يبدو كأنثى متحولة، كانا يعرفان صديقه الرجل الضخم ذا الشارب الأبيض. بعد طول مجاهدة خضعت أمه لواقعه.

رأت أن القدر عاقبها به، جمعت حصاد عمرها واشترت بناية متهالكة وهيأتها لتكون نُزُلًا متواضعًا. عرفت والده عندما كانت تعمل في ملهى بسيدي فرج، أعجب بها وتزوجها، وتوقفت عن بيع جسدها وأصبحت سيدة بيت مثالية، ثم لم تلبث أن سرقت منه كل ما يملك وهربت. جلب البغايا لبيتها، فعاقبته وانتصرت لكرامتها، ثم اختفت لسنوات. كتم زوجها ـ الرجل المبجل في دولة الرجال المبجلين الغارقين في خدمة وطنهم ـ الخبر خوفًا من الفضيحة، ثم لما سمعت بموته ظهرت من جديد.

ليته ولد أنثى وليفعل بعدها ما يحلو له، هكذا جاهرت لكمال يومًا بخيبتها، وقال لها إن الأماني لا تغير الواقع وغالبًا ما يدخرها القلب دون طائل.

لم يُرد كمال وآسيا كسب عداوته، كان يوفر لهما مأوى لحب شريد ولد وعاش على الهامش. لم يطالبه يومًا بالحساب ولا انزعج من مبيته كلما جاءه متضايقًا يريد أن يعتزل كل شيء دون أن يدفع دينارًا. وقد رغب في تلك الليلة ربما أن يحصِّل مجمل ديونه عليه. دق على بابه بإصرار ولم يفتح له، وعند الفجر تسلل كمال مغادرًا دون أن يراه. تجاوز كمال وإسكندر بعد ذلك التباس البدايات وصارا صديقين.

قطعت سيرهما الصامت مشاجرةٌ نشبت بين كمال وبين أحد المارة، مدَّ الشاب يده يتحرش بها، فصفعه بلا تردد. لا يملك مجالًا للتفاوض في أمور مشابهة مهما كانت

العواقب. علَّمت أصابعه على الوجه القصديري للمتحرِّش الصفيق، وتجمَّع حولهم الناس، ثمَّ فضهم شرطي أسمر البشرة من الجنوب. أصابتها سعادة طارئة بسبب غيرته عليها. لم يثر يومها هباء محضًا، التقت به وشبعت عيناها منه ثم رأته يدافع عنها، كان اليوم ليكون أفضل لو أنها اكتفت بالقليل الذي تناله منه في كل مرة، ولم تلح عليه في أن يسكنا معًا تحت أي غطاء.

هكذا عزَّت نفسها وهما يعودان على أعقابهما عند نقطة لم يحدداها من قبل، بعشوائية رجعا، وبسرعة أكبر. يجب ألا يعود نبيل إلى الشقة فلا يجده، قبَّلها مودعًا، ورأى تلك الدمعة المحتبسة في مقلتها من ساعتين تنحدر على خدها أخيرًا.

اجتهد في العودة قبل المغيب، لكنه تعطَّل بسبب الازدحام، وغروب مارس قريب. كان نبيل قد رجع قبله وأحضر معه عشاءً. عندما دخل لم يكلمه، عرف كم هو متعب وفاقد للوجهة، وسأله بعدها في السهرة إن كان قد ذهب إليها، فأومأ له برأسه بالإيجاب. فهم أن الأمور لم تسر كما خطط لها، وليس هذا وقت لومه على خرقه للقواعد دون طائل.

شعر نحوه دائمًا بشيء من الود، تجدد بعد أن التقيا في رحلة الذهاب إلى اسطنبول، ومع ذلك لن يتساهل معه، بعد أيام سينجح في إنقاذه من ورطته ليصير حرًّا، وقبل أن يتحقق ذلك سيطلب منه مرة أخرى الالتزام بما طلبه

منه. عمله حساس، وقد خاطر معه بأن آواه. سيشرح له كل شيء، أو قد يفهم وحده لاحقًا.

٧

توقف المطر عن الهطول، وسار كمال مع نادية في شارع يعج بالحركة والأضواء، تصطف على جانبيه محلات بلا عدد. دعته للخروج معها نخرج، بدأ يسأم بقاءه معلَّقًا بمزاج رجل يرفض الإفصاح عمَّا يعتقد جازمًا أنه يخفيه عنه. توالت جلساتهما الصباحية، وكثرة كلام والدها عن ماضيه لم تنفعه بشيء.

رأى صحته معتلَّة وجسمه واهنًا، لكنَّه لم يتوقع أن يموت قريبًا، هكذا أخبره حدسه. ما زال صبره عليه طويلًا، وينوي البقاء، إذا لم يتوصَّل لما يريد، حتى لو انتهت مدة تأشيرته. سيُرحَّل ويُطرد مثل حيوان دخيل، هذا أقصى ما يمكن أن يفعلوا به إذا قبضت عليه الشرطة، وقد صار خبيرًا بالتخفي.

قرَّرا الدخول إلى قاعة سينما، واقتنيا تذكرتين، ثم ذهبا للتجوُّل في الجوار إلى حين موعد بداية العرض. كانت كل علاقته بالسينما في الماضي أن يرافق صديقة له إلى فيلم الظهيرة، حيث القاعة فارغة، ليجدا معًا فسحة للتلامس وتبادل القبل.

في فترة مبكرة من شبابه، جعل جميلات السينما العربية والأجنبية كلَّهن طوع أمره، ومعهن لويزة أحيانًا، يأتي بها في البداية أو كفاكهة الختام. يخرجهن من أفلامهن ومشاهدهن، ويضعهن في طابور طويل إمعانًا في

إذلالهن، وهو ملك في خياله، ثمَّ يستلذ أجسادهن العامرة بالخيرات.. يتجوَّل معهن ويذهب برفقتهن للتسوُّق حيث ينفق عليهن بسخاء، وقد اكتشف خيانة بعضهن، وعاقبهن أشد العقاب، وأشعل نار الغيرة في قلوب الأخريات بالمفاضلة بينهن. لم تتعصَّ عليه أي واحدة منهن، كان بمثل جاذبية عمر الشريف أيام مجده، وتوم كروز لم يكن سوى نسخة مقلدة عنه، مسألة سحر وتوهجٌّ، وقد منح لنفسه منهما الكثير، أما ليوناردو دي كابريو، الذي بدا له دائمًا كأنَّه مغموس في حوض مملوء بصفار البيض، فلم يحب يومًا التشبُّه به.

حدَّثته نادية عن الفيلم الذي شاهدته هي من قبل، وعن السينما الإيطالية وتفرُّدها. كانت تملك معلومات جيدة لكنها خارج اهتمامه. كلام النساء كثير، أخيرًا صارت مثلهن، وتخلَّصت من صمتها وتحفظها معه، وعادت لطبيعتها كامرأة. كنت جافة وبلا طعم، قال لها، ضحكت كثيرًا، وأخبرته أن حبيبها يجدها ثرثارة، أو على قوله: تستفيض في الشرح أكثر مما ينبغي.

توالت أمام ناظريه مشاهد الفيلم، بينما بقي ذهنه معلقًا بشيء آخر. إنَّ حياته ملغمة بسرٍّ يأبى الانكشاف، تعب في سبيله، وأتعب معه آخرين، أولئك الذين يحبونه دون مقابل، مثل آسيا، ما الذي يُرجى من رجل ضائع مثله؟ مات رجاؤها فيه أخيرًا، وصارت تعاقبه بصمتها ولا تطارده برسائلها، تعرف حاجته إليها، وتنتقم لكرامتها لأنه

أهملها طويلًا.

ظلَّت نادية تتأمَّله، لا تكفُّ عن النَّظر إليه بين دقيقة وأخرى وتبتسم، حتَّى في عتمة القاعة كان يمكنه أن يلاحظ ذلك. أمعجبة به؟ نظرة غريبة ليس فيها من الإعجاب الذي يعرفه شيء، في نظرتها سرٌّ يحيره، وحياته يلفُّها ما يكفي من الغموض. بينما كان همُّه أن يعرف الماضي ويحدد موقعه فيه، أرادت نادية أن تعرفه أكثر.

تخاف على والدها منه، شيخ في النهايات جدير بخوف ابنته الوحيدة التي لم تجُد عليها الدنيا بأقارب غيره تحبُّهم ويحبُّونها. تراهن على حدسها، وكمال القادم من خلف الكتمان، بدا لها مسالمًا ومتفهمًا، ومع ذلك كان خوفها منه كبيرًا.

في الشارع مشت إلى جواره كتفًا بكتف، واعتقد أن حنانًا لم يتوقعه يمكن أن يرمِّم هشاشته، جاوزت في تعطُّفها الحد، وهو ظمآن قد يحسب السراب ماءً.

ـ ليتك كنت في حياتي من قبل.

قالت له، ثمَّ أضافت: كان سيكون لها معنى آخر.

ليس في قلبه ولا خاطره فضل لامرأة أخرى، لكنَّه ضعيف أمامهن وهي تبدو مختلفة، وإن كان قلبه قد مال إلى كلِّ واحدة بطريقة معيَّنة، فإنَّ نادية تركت في نفسه أثرًا لم يختبره من قبل. فكَّر إن طاوعها، وكانت تمشي ملتصقة به وتتحدَّث بلا توقف وتداعب بأصبعها أنفه

أحيانًا، أن تتسلَّل إلى عواطفه في أيام ضعفه تلك، ثم تؤول إلى اسم آخر يضاف إلى قائمة من مرّن بحياته مرور الكريمات أو اللئيمات.

جرَّب الشغف لأول مرة مع لويزة، فتاة تسكن قريبًا منه وتكبره بأعوام، وكان في الواقع قد وصل لتوِّه سن البلوغ. ضمَّها كثيرًا وتحسس ثدييها الصغيرين، قبل أن يكتشف والدها مخبأهما السِّري. كانا يتواعدان في غرفة مخلوعة النوافذ، بمبنى مهجور خلف بيتهم، إلى أن افتُضح أمرهما. اشتكاه إلى خاله، فصفعه الأخير حتى سقط أرضًا، واحتضنته أمُّه دون أن تلومه.

كبرت لويزة ولم تتصالح مع ماضيها، تزوَّجت وصارت تصرف نظرها عنه، وتتجاهله إذا رأته وهي عائدة من بيت الزوجية لزيارة أهلها، تنزل من سيارة ألمانية آخر طراز، وقد عرفت كيف تحصل على أفضل عرض بعدما فاوضت بإمكانياتها جيِّدًا. ظلت تشيح بنظرها عنه كلما تقاطع معها، ولا تلقي عليه التحية، وتمرّ عابسة الوجه دون أن تبدي له أي امتنان، كأنَّها غير مدينة بشيء لمن علَّمها أبجديات العاطفة والجسد.

كانت لويزة، وهي تكبر والزمن ينحتها أمام عينيه وفتنتها تأخذ مداها، طيلة سنوات مراهقته وما بعدها، مرجعيته لقياس الجمال والأنوثة والقدِّ وسحر العينين ودرجة الامتلاء. فتاة الحي الخجولة في الظاهر، والتي تبادل معها مرة وعدًا ساذجًا بأن يبقى كل منهما مع الآخر إلى الأبد، بقيت

أثيرة في خياله، ومرجعًا يعود إليه دائمًا. كل النساء، بعيدات وقريبات، مررن بميزانها.

عندما يشرد بذهنه أحيانًا، يفكر بأنَّه كان ضحية دائمًا لـ«المعيارية». حاول عندما كبرا استمالة فتاته الأثيرة من جديد، وذكَّرها بالوعد القديم كأنَّه يؤمن به حقًّا، وأخبرها بأنَّها كانت المرأة النموذج بالنسبة إليه، فأوحت له بأنَّها تعقَّلت، تجاوزت التجارب الصبيانية غير الناضجة، وتبحث عن رجل غني وناجح، يسعدها ويلبّي طلباتها. دخل معها مرَّة إلى قاعة سينما وشاهدا فيلمًا، حدث ذلك منذ زمن بعيد، وأدخلها بعد ذلك فيما لا يُحصى من السيناريوهات والمشاهد.. حتى في الحقيقة كانت بطلته المفضلة، بينما لم يرقَ دوره هو في حياتها إلى أكثر من كومبارس شبه صامت، مجرد شاب فاشل ـ جمعها به الشغف والمكان ـ شاركها بدايات لا يعول عليها، ثم سقط من حساباتها نهائيًّا.

وصلت لنادية رسالة نصيَّة من حبيبها: «سامحيني.. لم أكن أقصد»، ليعتذر عن سوء تفاهم وقع بينهما في الصباح، شابٌّ تونسي يعمل في شركة للتأمينات، أتى إلى فرنسا طفلًا، كان والده ناشطًا حقوقيًّا وهرب من تونس إلى فرنسا، واتَّخذها منفى اختياريًّا. بعد سقوط الرئيس، قالت له صار ممكنًا أن يعود إلى بلده وقت ما يشاء، وكما ترى، أضافت، فالتغيير الذي حدث ليس شرًّا كله. نحن نخطط لزيارة تونس هذا الصيف، إنه رجل ذكي ومثابر

وسيعجبك، سأعرّفك عليه في أول فرصة ممكنة.

فكرت قليلًا، ورأت أن الفرصة متاحة حينها، فكلّمت محسن وطلبت منه أن يأتي لتراه. عندما حضر محسن وجلس معهما، وكان على قدر من اللباقة، بدا متحفظًا أمام كمال. لا يملك خلفية عنه، وهيئته لا تبعث على التفكير بسهولة في اقتحام عالمه. أما كمال فلم يستطع أن يكوّن انطباعًا عنه، ليس فيه ما يريب، حدّث نفسه أخيرًا بعد أن التبس عليه أمره. لم يملك يومًا فراسة لمعرفة الشخصيات دون مخالطة.

استمع إليها وهي تقدمه إليه، ثم وهما يثرثران حول يومياتهما. اكتفى بالصمت، تأملها، وربما ابتسم، كانا منسجمين، خُلقت من أجله وخُلق من أجلها، نصفان متكاملان. ساورته شكوك في البداية قبل أن يبدو له أن الأمر غير منطقي، في أن يكون لمحسن علاقة بما أتى من أجله هو إلى فرنسا. أوهام البشر بشأن مؤامرة يحيكها العالم كله ضدهم مرض شائع منذ القدم.

طلبت نادية من محسن المجيء لتتفادى أن يحاصرها كمال بأسئلته، وليفهم كذلك أن تودُّدها إليه بعيد عما يمكن أن يذهب إليه تفكيره. كان ذلك أساسيًّا في ترتيباتها. قدمته لخطيبها بوصفه قريبًا للأسرة، قالت تؤكد لمحسن، وفي الحقيقة له هو: تستطيع أن تقول إنه مثل أخي. التقط كمال معنى قولها وإن بالغت، وعذرها، لم تخطئ تمامًا فيما يمكن أن يفكر فيه إذا بقيا وحدهما.

حاول محسن استدراجه للحديث عن نفسه، أو لينخرط معهما في أي نقاش، فتجاوب معه قليلًا من باب المجاملة. كانت عباراته متقطعة، وأفكاره بحاجة لربط منطقي تكاسل عن القيام به، وترك لهما سدَّ ثغرات الكلام والمعاني. استعاد محسن زمام الحديث لما رآه زاهدًا في ذلك.

بدا فارق الشخصية ومستوى التكوين بينهما واضحًا. أُعجب كمال في البداية بطريقة محسن في طرح أفكاره، والتعبير عن أحلامه، بشأن المستقبل الباهر لتونس. كان مهذَّبًا وأنيقًا، يجيد عرض آرائه والدفاع عنها، ويحفظ التواريخ والأسماء، ويطالع الصحافة الدولية وآراء الخبراء.. ومعلوماته كثيرة ومتنوعة.

مكث معهما محسن نحو ساعة ثم غادر. وعندما شرد كمال قليلًا أثناء مشاهدة الفيلم، قدَّر أنه أفضل منه في أكثر من جانب، فشعر بالغيرة، وصار يرثي حاله. وقع في مصيدة المقارنة.. يعرف أنها زائفة ومضللة، لكل إنسان خصوصيته، والمفاضلة مجحفة لمن لم تسعفه ظروفه وبيئته، ومع ذلك استصغر نفسه، وأحس بالتضاؤل وقلة الشأن.

عشوائي، نزق وشهواني، عاش حياته يلهث وراء السراب. لم يكن الماضي هو الذي يسجنه، بل هو من كان يسجن عقله وقلبه عنوة في ذلك الماضي، الذي تخيَّل أنه في صورة أخرى غير تلك التي رويت له. يسعى ليعرف

من كان والده.. ذاتٌ مريضة بالبعد عن شبهة العبث والانحراف، هل كان سؤالًا عن الأصل أم أوهام النقاء المعنوي والمادي؟

وضعه محسن بحضوره وكلامه، ودون أن يقصد على الأغلب، في إطاره الصحيح. مرَّت عليه دقائق شعر فيها بالخزي من نفسه. خذل نفسه وخذل أمه حتى تُوفيت بحسرتها عليه. صار الأمر واضحًا بالنسبة له، تهرَّب من مواجهة ذاته، ومن قصوره وعجزه، بأن يكرِّس حياته ليجيب عن سؤال اخترعه وجعله كبيرًا، سؤال من الماضي، قادم من حياة آخرين، لينقل أسباب فشله إليهم وإلى زمنهم. يدَّعي بأن جذور إخفاقه قديمة في الزمان، تمتد لما قبل بداية وجوده في هذا العالم، ولذلك فهو ليس مسؤولًا عن أي شيء. ظل الاعتراف صعبًا عليه دومًا، رغم أن هناك مجالًا للتدارك، وما كان يجب أن يركِّز عليه حقًّا هو حياته.

عاد من هذيانه لحالته الأولى، ووجد أن الفيلم قد اكتمل، ونادية تحثه على القيام للمغادرة. قرر أن نعته لنفسه بأنه فاشل هو حكم قاسٍ وغير مبرر. من يحلمون كثيرًا، المهووسون بطموح تغيير العالم، ليسوا في الحقيقة سوى جماعة من المخطوفين ذهنيًّا، يتعالون عن الواقع، والعالم يكمل مسيره إلى وجهته النهائية غير عابئ بهم. وعلى هذا الأساس هو قريب من الحكمة أكثر من الفشل.

هذا ما توصل إليه في ثوانٍ. لم يكن فاشلًا أبدًا، وكل

ما هنالك أنه لم يشأ أن يقضي حياته يلهث وراء الأشياء، والوقت يلاحقه مثل كلب مسعور، والانتظار يهلكه من أجل شيء مختلف في كل مرَّة. اختزل المشوار، وترك الطموح لمن يكابرون، ولا يريدون رؤية الوجود على حقيقته، ويتخذون من الأحلام دعامة واهية ضد سقوط حتمي ينتظرهم. تاريخ الإنسان هو تاريخ هروبه من السقوط، وهو قرر أن يكون مختلفًا، لا شيء أقوى من الحتمية وسينجرف معها بكامل ضعفه واستسلامه. عندما يموت سيكون قد عاش حياته دون شغف تقريبًا، لكنها لن تكون في النهاية حصيلة من الأوهام والخيبات المروِّعة.

رجع والد محسن إلى تونس، يريد أن يعيش الحلم ويراه يتحقق أمام عينيه، لا أن يسمع عنه في الإعلام أو يقرأ أخباره في الصحف. هكذا أخبرهما يوم قرَّر العودة، أما ابنه فيفكر بالالتحاق به، إذ لا يرغب في البقاء بعيدًا عنه. تحمَّس للتجربة غير المسبوقة، ومنحه رجوع أبيه للبلد حافزًا إضافيًّا. يعتبر أباه أكثر من والد، رمزًا من الرموز التي صنعت وتصنع تاريخ تونس الجديد. يتقاسم معه آراءه السياسية كلها عدا أن ازدهار الديمقراطية يتطلب إبعاد بعض الأطراف، يؤمن بالتعايش، وبخصوصية المسار الجديد والفاعلين فيه، أما أبوه فلا يرى غير اليسار قادرًا على حمل قيم الثورة وحمايتها.

تسمع نادية نقاشهما الطويل في الهاتف عن كلِّ ذلك، وعن التغيُّرات التي تعصف بالمنطقة، تنصت كثيرًا

ونتدخل قليلًا. لا تشعر أنها تنتمي لفضاء تحدُّه جغرافية جنوب غرب المتوسط، وتنحته سنوات التاريخ لا تزال، فرنسية المولد ولا تعرف عن الجزائر إلا ما سمعته من حكايات والدها عن ثورة التحرير، أو من حديثها مع أبناء المهاجرين من جيلها. هويتها مهجَّنة، ومستقبلها لا يمتد إلى أي اتجاه ماضوي، تسكنها عقدة انتماء، وهي ضحية تاريخ تشعَّب وأضاع مساراته الأصلية.

تتحدث عن حبيبها بانبهار، وتلمع عيناها وهي تنطق باسمه، لكنَّها تكتم خوفها مما تحمله الأيام. تعيش علاقتهما تحديًا كبيرًا، وسيكون على محسن الاختيار بين البقاء معها وبين الالتحاق بوالده، أما هي فتتعلق به في حدود إيمانه بالحبِّ الناشب بينهما، وبقاؤها مع والدها ليس محلًّا للتفكير.

أما كمال فأربكه تناقضها في البداية، إذ تحبُّ رجلًا آخر وتتقرب منه هو. غريرة، قال عنها في نفسه، مندفعة نحوه بلا روية، لم تجرِّب كيف أن الحب قد يذبحها. لا يتمنى لأي إنسان أن يكون ضحية مثله، ومع ذلك لم يعد يأخذ قصص الحب دائمًا على محمل الجد، مجرد مشاعر تأتي وتذهب، أكثرها تسقيه الشهوة وحب التملُّك. كلٌّ منشغل بما يراه صائبًا أو بما يقدِّر أنه مناسب له، الخاسرون والفائزون في لعبة الحب ينزعون إلى التعميمات الجائرة.

عندما ردت نادية على رسالة محسن، أخبرته بأنها ستعتبر ما حدث مجرد سوء تفاهم، إن تاب ولم يكرر غلطته،

ورآها كمال ترسم على شفتيها ابتسامة، ثم تزيح بيمينها خصلات شعرها الأسود، وهي تعلمه بأنها مع قريب لها جاءهم زائرًا.

دخلت نادية إلى الجامعة وتخصصت في علوم الكمبيوتر، وقد عرفت محسن في سنتها الأخيرة وهي تدرس. لم تكن من المتفوقات يومًا، كما أنها لم تفشل فشلًا نهائيًّا في أي شيء. أخبرت كمال أنها من ذلك النوع من الناس الذين لا يملكون قدرات خاصة، ويتقدمون في حياتهم ببطء ومشقة، لكنهم يتقدمون، وقالت له إن ما يعجبها في محسن هو نجاحه وثقته في نفسه. تملك مكتبًا صغيرًا مع فريق من زميلتين لها من أيام الجامعة، يقدمن من خلاله خدمات تصميم مواقع وإعلانات للشركات الناشئة، ومساعدتها على استخدام أفضل لعالم الإنترنت والوسائط.

ممتلئة قليلًا وجذابة، تجاوزت الثلاثين بسنتين، حاسمة ولا تعوزها القوة لعمل الشيء الصحيح من وجهة نظرها. هجرت صديقها الفرنسي لأنها تأكدت أن والدها لن يقبل به أبدًا تحت أي مُسمى، وقد أحضرته مرة معها إلى البيت فطردهما معًا. مثل والدتها، واقعية ولا تنزع للعاطفة كثيرًا، حسابات العقل مقدَّمة عندها دومًا على اعتبارات القلب.

اعتبرت قرار والدها تعسفيًّا وغير مبرر، ولم تفهم تحديدًا لماذا يرفضه، ومع ذلك خضعت لإرادته. قال لها إنَّه ليس مسلمًا، وحتى لو أشهر إسلامه من أجلها، فلن

ينجح ارتباطهما في النهاية. كانت تثق فيه، وتؤمن بحكمته وبخبرته في الحياة. تعرف من قبل مزاجه وتقلُّباته، إلا أنها وجدت رأيه في هذا الأمر أقرب للصواب. زيجات كثيرة بين عربيات وفرنسيين آلت للفشل، وتجربة الزواج كانت بالنسبة لها لا تحتمل المغامرة. لديها طموحات كبيرة في أن تصبح مديرة لشركة حقيقية، كبيرة وناجحة، ولها حضورها في قطاع الأعمال، ولا تحبُّ أن يعطلها شيء.

لم يخبرها أبدًا أي أحد بالأسباب، وكل ما تعرفه أن والدها، وفي منتصف سنوات السبعينيات تقريبًا، دخل في أزمة أفكار، انتهت إلى أن ينزوي اليساري الذي بداخله بعيدًا في البداية، ثم يختفي تمامًا، ويصبح من العائدين إلى الله. حدثتها أمها دائمًا أن زوجها عبد القادر بن صابر كان كافرًا، وقد صُدمت عندما سمعت ذلك منها أول مرة، ثم تحوَّل من البحث عن العدالة في الأرض إلى البحث عن الله، وتجلَّى فيه تجليات جميلة كما أخبرتها، فابتعد عن الكحول والسجائر، وإن عاد للأخيرة فيما بعد قبل أن يتعب قلبه ثانية ويقلع عنها مرغمًا.

بدأ يصوم، ويواظب على الصلاة خاصة في رمضان، ومضى يكمل الانقلاب الذي أحدثه في حياته إلى النهاية، وحاول أن يمسح أفعالًا سابقة، كان يرى فيها أخطاء ثقيلة، لا تتوافق مع توجهه الإيماني الجديد. كان ذا شخصية حديَّة، فلم يتوافق مع زوجته الأولى، وصلا إلى طريق مسدود وانفصلا، وتوفيت هي بعد ذلك بفترة

قصيرة.

تزوَّج عبد القادر بن صابر من أم نادية، وأنجباها قبل أن ينقطع الدم بقليل عن «بنت البلاد» التي اقترحها عليه أبوها، فوافق دون رؤيتها. كانت ذكية بما يكفي، وقادرة على احتوائه بطريقة تدهشه، والفتاة الريفية الجاهلة كانت قد طورت نفسها بمرور السنوات، تعلمت القراءة والكتابة بالفرنسية في الحد الأدنى، وحصلت على رخصة سياقة. دخلت للعمل، وفهمت أشياء كثيرة، وصارت ندًّا له، وتفوقت عليه دائمًا في حسن التدبير.

والدها مهاجر من «الأصنام»، يعمل في فرنسا لعام كامل ويزور أولاده لشهر، أحضر معه ابنته وزوَّجها له. كانت صغيرة، بالكاد بلغت العشرين عندما صارت أرملة، ثم لم يتقدم إليها أحد. واعتبر عبد القادر بن صابر فيما بعد زواجه منها بأنه اختيار إلهي، ليس الاختيار اضطرارًا دومًا، أو قد يكون المرء مضطرًّا أحيانًا ويحصل على الأفضل.

ظلَّ يقول دائمًا إنه مدين لها بكل شيء. كافأه الله بها بعد عودته من ضلاله.. وبعد وفاتها أصبح يشك بأن الله قد غضب عليه ثانية فأخذها منه. لم يكن متأكدًا من أن زوال النعم سببه سخط الله، لكنه عاش من بعدها فاقدًا للابتسامة، شيخًا بلا سند.

بقي الشيوعي شيوعيًّا يحب العدالة، لكنه عاد للإيمان

ليعالج خواءه وأمراضه العميقة. صار تشي غيفارا يباع على القمصان، مبتذلًا من الجميع، وأصبحت فلسفة كاملة لإنقاذ البشر مختزلة في جيل من الهيبيين، ومرضى دمويين يريدون السلطة، وينهبون أموال شعوبهم ليضعوها في بنوك رأسمالية غربية. ما من سبيل لصناعة عالم أكثر عدلًا لا يُسحق فيه الفقراء، وشعوب بأكملها، من أجل أن تبقى الحياة تبتسم لأصحاب الأموال والصناعيين للأبد.

سخر الرفاق دائمًا وقالوا إنه أحمر يخفي إيمانه. عند الشدَّة كان يدعو الله بقلبه، ليس دائمًا، لكنه فعل ذلك كثيرًا. عندما كان طفلًا دفعه أبوه، العياشي بن صابر، إلى «الجامع» ليحفظ القرآن، وبقيت بعض السُّور في صدره، قبل أن ينتقل إلى مدرسة اختلط فيها أبناء الأنديجان أو الأهالي مع أبناء المعمِّرين، ليتعلموا بأن فرنسا هي وطنهم جميعًا. بعد الاستقلال، وفي نشوة النصر، قال إن الله محض حالة عاطفية لا تضر ولا تنفع، وما لا يمكن إثباته بالعقل يصعب اتباعه، وأن الإنسان صنيعة ظروفه.

ورغم كل جهود التثقيف الذاتي، فإنه بقي أميل إلى النضال الميداني من البحث عن استيعاب الأفكار والتشبُّع بالفلسفة، يعترف للرفاق بأنه ليس قارئًا جيدًا لماركس ولما كُتب عنه، ومع ذلك يبالغ بالقول أمامهم بأن قوة رغبته في تغيير العالم تجعله ماركسيًّا أكثر من ماركس نفسه. كان يتغاضى عن موقف ماركس المخيِّب من احتلال فرنسا للجزائر، ويذكر بسخرية أنه حلق لحيته عندما

زارها.

أما بالنسبة للجزائر، فالطريق بعد الاستقلال كان مرسومًا والكتلة الشرقية هي المثال، هكذا رأى، شارك في الاحتفالات بخروج فرنسا، وبقي لسنوات يناضل من أجل ذلك الطريق. سرعان ما اتضح له أن الواقع الجديد يتشابه مع أحلامه مجرد تشابه، وأقرب لنسخة مشوَّهة، تعتريها ممارسات تقود إلى الفشل الأكيد.

عاد إلى فرنسا وتزوَّج، الوقائع والزمن علماه أن يهدأ قليلًا، ثم تعرَّض لأزمة قلبية حادة وهو لم يكمل الأربعين، نجا من الموت، وظهر له، بعد ذلك الظرف الصعب، أن الله أكبر من كونه دعامة نفسية يؤازر بها البشر وجودهم الإنساني الهش.

توافقت تلك المرحلة مع عودته مرة بعد مرة إلى الجزائر، استمع إلى بعض الشيوخ، وفكَّر في الذهاب إلى مكة من أجل العمرة. المراجعات تلاها تصحيح المسار، أو ذلك ما بدا له، وبذل أقصى ما يمكن ليقنع زوجته الأولى بأن تشهر إسلامها، ولو اسميًّا فقط، كإعلان حسن نية لله لعله يهديها لاحقًا فتكون مسلمة بالفعل.

في بداية التسعينيات كان متحمِّسًا بقوة للجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويدعم سعيها من أجل تخليص البلد ممن استأثروا بالسلطة باسم الشرعية الثورية والتاريخ. جبهة التحرير الوطني، أفلان (FLN) الثورة والتاريخ، صار جهازًا

للنخب البيروقراطية، وأولئك العسكر المتغطرسون.. من يستطيع أن يزيحهم غير هؤلاء؟ ثم أصبح يرى حكمة بالغة في إلغاء المسار الانتخابي. أصوليون متطرفون سخَّروا الدين لاختطاف البلد والشعب، ولحسن الحظ وقف لهم الرجال الوطنيون في الوقت المناسب.

تلوَّن فيه الزمان، وانتهى إلى شيخوخة يدافع فيها عن الشيء ونقيضه. وطني، مهاجر، ثوري، مناضل أممي أحمر، عربيد، مسلم، زاهد.. ثم شيخ ينتظر الموت، وإذا سئل من كان في الدنيا فلن يعرف بما يجيب.

خرج كمال من قاعة السينما يتبع نادية، وهو لا يذكر عنوان الفيلم، قرأه مجددًا على لوحة الإعلانات في بهو القاعة، وجد أنه يتقاطع مع رواية طالعها قبل زمن طويل. قصة خيانة بين امرأة، متزوجة من ثري يسافر دائمًا، ورجل أعمى، انتهى أبطال الفيلم إلى نهاية مخزية لم ترقه، تطيَّر منها، وانتهى هو إلى أن يسأل نادية، وبلهجة مستجدية، لماذا يرفض والدك أن يكلمني عن أبي ويخبرني أي شيء عنه؟ هذا الأمر يعني لي الكثير، ولم يبقَ لي غير أسبوع.. ساعديني رجاءً.

ضعفت قليلًا لكنها بقيت هادئة، ثم نصحته بأن يصبر عليه وألا يتعجَّل بدعوى أنَّ والدها لا تسعفه الذاكرة دائمًا. ذاكرة والدها حديدية وعذرها واهٍ، وبعد كل هذه السنوات تطلب منه ألا يتعجل. لم تعرف بأن قلبه يحترق وهي تجيبه بكلمات تخنق تطلعه الكبير، ولم تحمل جرعة

أمل أو فرجًا قريبًا، ثم تلوذ بالصمت هاربة من نظراته.

فهم أنها اكتفت وتريد العودة، وهو لا يملك سببًا آخر ليبقى معها أكثر. رآها تمادت في الصمت، فقرَّر ألَّا يلحَّ عليها مرة أخرى. سوف يغادر ويعيش حياته. نوبة لامبالاة عادت فانتابته، كان مجروح الكرامة وضعيفًا، لماذا عليه أن يجري خلف حقيقة قد لا تنكشف إلا بإذلاله؟ كذبة يصدقها الجميع خير من حقيقة ملطخة بذلِّ من تحالفوا ضده. قطع على عقله سبل التأويل لئلا ترهقه الظنون، وقرر أن يرمي كل شيء وراء ظهره لينجو بنفسه.

قد يهدأ خاطره إذا اطلع على الحقيقة، لكنَّها قد تكون حقيقة أقل إقناعًا بكثير مما توقع دائمًا. حكاية تشبه قصة الفيلم الملفقة التي لم تثر نهايتها أحدًا من المشاهدين، رغم أنها حقيقية، وعايشوا وقائع تشبهها على نحو أو آخر، كأن يُقال له إنه ابن رجل عاشر امرأة في الحرام وأنجبته، ثم هرب منها أو مات أو قُتل.. ألا يحدث هذا كل يوم؟

فقد التركيز مع ما تقوله له وهما عائدان، وقال لها إنه لا يشعر بالجوع، عندما دعته للعشاء في مطعم يقدِّم أطباقًا شعبية جزائرية. دخَّن كثيرًا وظلَّ شاردًا، وعلى وجهه تعبٌ من أرق الليالي السابقة. تماوجت أمام عينيه أضواء السيارات وأعمدة الإنارة وواجهات المحلات التي كانت تفتك بالليل، وعجت ذاكرته بقصص حقيقية وأخرى مزيفة، وبقايا رائحة المطر والسجائر فاقدة للنكهة، وصدى نداء بعيد لا يدرك ماهيته.

يجمع مشاهد من حياته فلا يصل إلى شيء يفيده. عالمه كذبة كبيرة لن يتمكن وحده من كشفها، وحياته مسلوخة عن فيلم رديء كالذي شاهده لتوه، وخرج مملوءًا بحيرة لا تنتهي، وهذيانات ترقص في صمت على رأس لسانه.

رغب في أن يركض بعيدًا، ويدخل أول حانة يجدها ويشرب حتى لا يصحو أبدًا، يشرب نخب خيبته وعلته القديمة، يسكر من أجل أن ينسى كل شيء، ومن أجل قلبه الواقف في كل باب يرقب أن يفتح لتخرج منه حقيقة تشفيه. أمسكت نادية بيده تطلب منه ـ أو تفرغ فيه ـ عاطفة مشبعة بدفء بدايات طفولية لم تعشها. نظرت إليه النظرة ذاتها ممزوجة بحب وإشفاق، هي عكسه تمامًا، ترى أن الحقيقة ستوجعه إلى حد لا يطيقه. رجل رقيق القلب رغم صلابة يحاول أن يتصنَّعها، يبحث عن حقيقة تعرف أن سقف توقعاته مجرد عتبة لها.

خافت على والدها، أشياء كثيرة كانت ستتغير، وقد لا يتحمَّل في شيبته الموقف الصعب. أي ردِّ فعل غير محسوب سيودي به حتمًا. ببطارية في القلب، يكفيه ما نالت منه الحياة والظروف المعاكسة. بعد أن جاء كمال، صارت تخاف عليه هو أيضًا، تشفق عليه وتشفق على نفسها كذلك. لم تكن يومًا صلبة بما يكفي لتواجه تحديًا عملاقًا كالذي وجدت نفسها تواجهه.

كان يسير بجانبها، يلوذ من الخيبة بالصمت والشرود.. ما ذنبه؟ نصحها خطيبها بأن تترك الأمر لأبيها وألا تتصرَّف من رأسها، رجل مثله خبير بالحياة وبالنفوس. ترى كمال محاطًا بأشخاص يكتمون عنه حقيقة يعذِّبه غيابها، وهو أكثر من يحتاجها وأولى بمعرفتها من أي أحد. حصرتها الظروف والزمن، ووجدت أن دائرة الاختيار باتت تضيق أكثر فأكثر، والتصريح بأسرار بعمر أصحابها لن يمرَّ دون عواقب.

في طريق العودة، من محطة المترو حيث نزلا، وإلى المبنى الذي به شقة والدها، ترجلا ببطء. جعلا يخوضان غمار صمت يثقل عليهما، ويتواطآن عليه بنظرات تائهة ومنهكة من قبِله، وأخرى منها تبحث عن تأويل أو تبخل به. يحقد على والدها دون أن يقوى على المجاهرة أمامها بذلك، وتخاف أن يرحل يائسًا، وتشفق على قلبه من كل ما سيلاقيه. رغبت في أن تتحرَّر من الصمت، ويُكسر الحاجز الذي يصدها عن الكلام. في أعماقها ألف عاطفة تدعوها لأن تبدأ بالحديث، كانت تتحلى بالشجاعة للحظات، ثم لا تلبث أن تحجم وتمسك لسانها قبل أن ينطلق.

عرض عليها أن يوصلها إلى مدخل المبنى فوافقت، ودعته للمبيت عندهم فرفض. ثمَّ كلمها أبوها في الهاتف ليطمئن عليها فطمأنته. إنه أبي، قالت له، رجل استثنائي وستحبه بلا شك، هكذا كنت أراه ولا زلت. تظنه كذلك بعيدًا عن إعجابها التلقائي به كأب، وترى أن سيرته

تدعو للفخر.

أمسكت بيد كمال ومشت بتثاقل لتطيل من ماضي والدها الذي عاد مركزًا في تلك الدقائق من ليلتهما الباردة. كان والدها ينظر إليهما من زجاج نافذته، ينتظر ما سينجلي عنه لقاؤهما، وكَّل ابنته بأن تتولى التعامل مع كمال، أو تفهمه على الأقلِّ، لم يطلب ذلك تصريحًا، لكن بعض التضمين أوثق من القول باللسان. كانت تفهم أباها، وعليها أن تبرَّ به بعض البرِّ بأن تتحلى بشجاعة خانته.

انخرط عبد القادر بن صابر في الحزب الشيوعي الجزائري عندما كان صغيرًا، ثم انفصل عنه تنظيميًّا، وانضمَّ لجماعات الإسناد وحاملي الحقائب بفرنسا. اشتغل في مخبزة، ثم عاملًا وأحيانًا حارسًا ليليًّا بمطبعة بـ«الأبيار» تملكها امرأة من المعمِّرين الجدد، أصلها من مقاطعة الألزاس، تُدعى مدام إيمانويل، طالما حدثته عن جرح كبير تركه الاحتلال الألماني في نفسها، بعد اجتياح قوات الجيش النازي لبلدهم.

بعد انتهاء الحرب، قرَّرت مدام إيمانويل أنَّ تذهب إلى الجزائر. اختارت العودة إلى مسقط رأسها، حيث ولدت وعاشت جزءًا من طفولتها في آلجي، ولتستطيع تجاوز الآثار النفسية للحرب. باعت البيت والأثاث، وعادت مع ابنتها لتمارس مهنتها القديمة. ساعدت بعض المناضلين اليساريين بداية الخمسينيات، وطبعت لهم المناشير، واعتُبرت من مناصري الحركة الوطنية.

بعض الحب قد يكون باهظ الألم أحيانًا، وتتبعه تضحيات مزمنة، وليس مجرَّد أمنيات من أجل من نحب نطيِّرها مثل الفراشات، أو أحلامًا ترقص على صفحة الخيال. بعد بداية الثورة بسنتين هاجر إلى فرنسا برغبة من والده. مات شقيقه الأكبر تحت التعذيب، أُلقي عليه القبض في حاجز للجيش الفرنسي في منطقة «الأربعاء»، وبحوزته مسدس، وثياب عسكرية، لجنود فرنسيين قُتلوا قبل أسبوعين في كمين نصبه المجاهدون.

سعى والده ليبعده عن الثورة فأصبح مجاهدًا من المهجر. شاب في وعيه وعنفوانه لم يكن منتظرًا منه أن يسلك طريقًا آخر. حياته كانت منطقية أكثر مما اعتقد والده. كان العياشي بن صابر رجلًا وطنيًّا، من البرجوازية الصغيرة التي عاشت في المدن، وشكَّلت حاضنة للحركة الوطنية وللثورة بعدها، وترشَّح أيام انتخابات المجالس البلدية المختلطة بين المعمِّرين ـ السكان الأوروبيين والمسلمين. خاف أن يفقد ابنًا آخر فأبعده طلبًا لنجاته. فتَّش الجنود بيته، وسألوه عنه بعد ما شكُّوا أنه قد التحق بالجبل، فأخبرهم بأنه هاجر ولا تصله أخباره.

يسرد عليها أبوها قصَّة من الماضي في كل مرة، وقد سجَّلت كثيرًا من أحاديثه، وتنوي أن تقوم بتفريغها، ثمَّ تنشرها في كتاب. بقي بلا زواج لسنوات طويلة، ثم تزوج من ابنة صاحبة المطبعة، مدام إيمانويل التي خرجت مع والدتها من الجزائر بعد وقف إطلاق النار، ورحيل

الأقدام السوداء، واستقرتا في تولوز. أما والدها فلم يُعرف عنه شيء قط، هذا ما أخبرته به دومًا زوجته الأولى في بداية تعارفهما. لكن والدها اغتيل في تفجير بالخطأ قامت به الـ(OAS) التي كان أحد المنتمين إليها. هكذا اعترفت له والدتها مدام إيمانويل عن ظروف وفاة زوجها، وكانت تخجل من انتمائه للمنظمة السرية الخاصة التي أسسها معمِّرون متعصبون، وأقدم أعضاؤها على اغتيالات وتفجيرات بالجزائر العاصمة لإفشال مفاوضات الاستقلال.

رجع بعد الاستقلال، ونال في البداية حظوة عند ثوار الأمس، لكن النظام الجديد الذي أرساه بومدين سرعان ما ضيق على الشيوعيين، فسُجن وعُذب ثم هرب مع الهاربين. أخبر ابنته بأن هروبه كان مريرًا ومؤلمًا على النفس، لم يسهل عليه أن يهان، ثم يخرج مضطرًّا من بلد ناضل من أجل استقلاله بالأمس القريب. أصبح قلبه باردًا، وعندما يتذكر ما حدث لآخرين تنطفئ ناره، إذ انتهت دولة الاستقلال مثلًا إلى نفي «أبي الاستقلال» مصالي الحاج، وأين هو منه، حيث تُوفي الرجل في الخارج وأُعيد جثمانه ليلًا ودُفن تحت جنح الظلام.. دون اعتبار لتاريخه. الكبير أخطاؤه كبيرة، لكن ألم يكن على قادة الدولة الوطنية ـ ثوار الأمس، وهم تلامذته، أن يتحلوا بالتسامح مع شيخ في سنِّه كرَّس حياته كلها للوطن، فأصاب وأخطأ كأي بشر؟ كسر الرموز ليس في صالح روح الأمة.. ختم يقول لكمال.

كان السجن مكانًا مناسبًا للمصابين بإيمان مفرط، أو بتخمة في الوطنية والإيديولوجيا، وعبد القادر بن صابر لم يكن ذا أهمية خاصة حتى يعامل كرجل فوق العادة. عاش خيبة أمل أخرى، وحزَّ في نفسه أن يرى بعض الرفاق يبدلون مواقفهم، ويميلون بها إلى من عنده القوة، أو يصبحون وشاة بمن بقي منهم وفيًّا لنظرته الأولى.

كانت الوشاية راسخة عند بعضهم، وانتهى البعض الآخر من وراء نضاله المزيف إلى مغانم قليلة، ونسي ما كان يدعو إليه. وفي كل الأزمنة هناك دومًا من يخون عند أول منعطف، أما هو فيستحق أن يوصف بالصادق والوفي، برغم أنه يعيش منسيًّا في الغربة وغير مقدَّر في بلده.

الزمن كفيل بتصحيح اختلال المقامات والأوزان.. عزاء انتظره لعقود لكنه تأخر، والعمر لا ينتظر أحدًا، وهو تخفف من أي رغبة أو مطمع، الزمن يهزم الرغبات. الناس ينكرون فضله، أو ينسبونه لغيره بهتانًا وتزييفًا، أو لا يعترفون لذلك الجيل بأي فضل. لا أقسى على النفس من النكران، وحياته مشبعة به، بالكاد قلة من رفاقه القدامى يتذكرون اسمه، وقبل سنوات سجَّل مؤرخ شاب شهادته واطَّلع على أرشيف صوره، ثم نسي أن يدرج اسمه في متن كتاب وضعه عن مناضلي جبهة التحرير ونشاطها في فرنسا، اتصلت به نادية فاعتذر منها، وقال إنه لا يمكنه سحب النسخ من المكتبات ليورد فيها اسم رجل سقط سهوًا.

استرسلت نادية أمام كمال دون أن يقاطعها بكلمة

واحدة. أحبَّ أن يتعلم من التاريخ الذي كانت تسرده، وتساءل لاحقًا عندما استعاد كل ما سمعه منها، ومن والدها عبد القادر بن صابر ومن عمي عيسى، عن قوة الماضي الحاضرة فيهم. عانقته بحرارة لا تتناسب مع ما سبق، وسمعها تقول له إنها تحتاج إليه جدًّا، لكنَّه كان مشتت التركيز في آخر دقائق اللقاء، وعجز عن فهمها على النحو الذي أحبَّت أن يفهمها عليه.

عندما كان واقفًا معها، رآه يخرج من المبنى، فعرفه وبقي ينظر إليه وهو يحاول أن يسرع، ولمَّا التفت إليهما ارتبك وتظاهر بأنَّه لم يره، ثم أكمل طريقه حتى غمرته العتمة.

٨

طال مكوثه عند نبيل على الرغم منه، وكان عليه أن يواجهه ككتاب مفتوح. كره غموض نبيل وانغلاقه، في مقابل رغبته هو في أن يقول له ما يجول في ذهنه، ويثقل على صدره. أحبَّ أن يطلب منه العون، ولو بالاستماع له، لكن عُقد الماضي لا تُحلُّ بقرار آنيٍّ مهما كانت شجاعته. يحتاج الكلام في ذلك إلى شجاعة استثنائية، وهو لا يجرؤ عليه في الوقت الحاضر. يعجز عن التعرِّي الذي يمارسه كثير من الناس، عندما يتحدثون عن شؤونهم الخاصة لأول عابر طريق يقابلونه، ويتوقع حجم المهانة التي سيلحقها بنفسه إذا فعل ذلك.

كتم ما ظلَّ يجرحه لسنوات طويلة. منذ تفتح وعيه على وجوده المبتور، دفن بعيدًا عن الجميع أحزانه العميقة وهاجسه الأول. تحلَّى بفضيلة الكتمان، وأخفى ما يجب إخفاؤه. تلك الأسئلة المؤرقة والحيرة الفاضحة، كلها بقيت دفينة. تاريخه مع الكتمان لا يمكن أن يُمحى بسهولة، حتى في لحظة ضعف يوشك فيها أن يتداعى.

لا جدوى من أن يخبره، ثم يبدو في نظره كالأبله، بأنه يشعر منذ سنوات طفولته بأن خدعة كبيرة تطوِّقه وتلغِّم حياته. ربما يخفف عن خاطره قليلًا، لكنه سيجد نفسه مكشوفًا أمامه إلى آخر مدى. لا شك أنه سيقرأ في عينيه الدهشة، ثم الشفقة، وحتى لو بلغت مداركه حدود

السماء، سيقول عنه في النهاية إنه لقيط، أو يطلق عليه في سره تسمية أكثر لباقة: مجهول النسب. لن يقتنع رجل مثله بالوثائق الرسمية، هو نفسه غير مقتنع، ويعتبر ذلك كذبة يجب عليه أن يقنع الآخرين بتصديقها.

مرَّ إلى المرحاض، ورأى غرفته مضاءة، وصوت التلفاز كان عاليًا بالنسبة لرجل نائم. لم يستطع أن يتدفق أمامه، ويريح نفسه بأن يفشي سرَّه لأحدهم للمرة الأولى في حياته، ماذا يعرف عنه ليقول له أمرًا جليلًا كهذا؟ نبيل.. نسي حتى لقبه، من بوسعادة، من مواليد ١٩٧٦، ولا شيء آخر. طمع أن يفضي له بكل شيء، عسى أن يجد عنده النصيحة والتخفيف، لكن موانعه كانت أكبر. يخترع لي تاريخًا جديدًا، أو يخدرني بكلام تافه من قبيل أن الإنسان بفعله وليس بأصله.. قال يسخر مما قد يسمعه منه.

دخل وتبول قطرات، لم تعد القهوة تجعله حاقنًا كما كانت تفعل أول عهده بها. اجتهد ألا يثير انتباهه بصوت ماء الحنفية أو بوقع قدميه على الأرض. عاد واستلقى على السرير، مرتديًا بجامة صديقه. خرج من بيت أمه بسروال جينز وسترة صوف وجاكيت ثقيل، منتعلًا حذاء رياضيًّا، وهو من أعطاه ثيابًا أخرى، ومنها قميص جعل منظره يبدو مزريًا إجمالًا، كما أخبرته آسيا في النهار. سبب أكثر وجاهة يمنعه من أن يقول له ما يثقل عليه. يكره أن يكون محلًّا للشفقة مرة أخرى، كما منعه خوفه من إشفاق

الآخرين عليه، أن يعيد عليه ما تفوَّه به خاله أمامه ودفعه لضربه.

التقيا في إسطنبول، ثم تواعدا عندما كانا خارجين من مطار أتاتورك، «أولاد بلاد»، جمعهما السفر أكثر من صداقة قديمة، نسيها كل منهما بعد أن باعدت بينهما السبل. لم ينتظر كمال أن يكون لديهما الكثير للحديث بشأنه، باستثناء الثرثرة لسد فراغات الذاكرة، وسؤال كل منهما للآخر عن مشواره بعد التخرُّج من الجامعة، واستعادة الماضي لن تكون سوى محاولة بائسة لن تنجح إلا قليلًا في كسر ثقل اللحظة الفاترة التي جمعتهما.

لا شيء يدفع رجلًا هاربًا من كل شيء أن يتحدث لآخر ـ لم يره منذ سنوات طويلة ـ عن حياة لا تعترف به وتلفظه. لم يتوقع أن يكون ظهور نبيل من جديد في حياته حاسمًا، هكذا افترض في البداية، وفهم بعد ذلك كم أن حياته كانت مليئة دائمًا بالافتراضات الخاطئة.

تجاوب كمال مع دعوة صديقه القديم للخروج عندما طلبه في هاتف الفندق. بات ليلته الأولى أرِقًا، وكان من الواضح أن محاولته للهروب من شبح الموت، الذي يحوم حول والدته، قد فشلت حتى قبل أن تبدأ، لكنه أراد أن يبدد وحشته قليلًا بالثرثرة مع الإنسان الوحيد المتاح له.

سارا على جسر فوق مضيق البوسفور، تبادلا تعليقات عابرة، سأله نبيل عن صحة أمه فأجابه بأن الله كفيل

بشفائها. هاتف خالته عصر ذلك اليوم ليطمئن عليها، قالت له إنها على حالها كما تركها، وطلبت منه أن يستمتع برحلته مثلما أوصته فتيحة.

أعاده السؤال إلى حيث لا يريد أن يعود، وندم على إخباره بالأمر، وهو يتجاهل نظرته المستهجنة التي تشبه نظرة خاله يحيى، عندما تقاطع معه في المستشفى، وتبادل معه تحية باردة. كيف يترك أمَّه وهي تحتضر؟ لا أحد يفهمه، ولا هو يفهم نفسه. ملأه الخزي، مع أن نبيل لم يعلِّق، واكتفى بأن يتمنى لها الشفاء أو الرحمة من الله، أما هو فعاف نفسه، وإن بقي بداخله ما يخبره بأن سفره ليس جريمة، وأنها سوف تعيش حتى يعود، وربما أطول مما يظن الجميع، ويصير هذا العار، وكل تلك المرارة التي في حلقه، من الماضي.

نظرا إلى صيادين كثر، مصطفين على حافة الجسر، يمد كلٌّ منهم صنارة يطمع أن يلتقم طُعمها سمكٌ أكثر وأكبر، ورائحة السردين تفوح من دلائهم، غير عابئين بالسيارات، ولا بالسائرين على الرصيف خلف ظهورهم. تناولا العشاء في مطعم من سلسلة مطاعم تصطف في الطابق السفلي للجسر، وتقدم أطباق السمك.

بقيت الظلمة الشديدة تحجب وجه البحر، وانعكست الأضواء الكثيرة لامعة على صفحته في أشكال مختلفة، وغير بعيد كانت البواخر والقوارب تمر مزمجرة محركاتها في الماء وكاسرة استواءه المؤقت. بقي من الليل وقت طويل

ليتكرر ذلك حدَّ الاعتياد، وقتل الإبهار، عند رجل يرى المشهد لأول مرة.

أحكم عليه الليل قبضته أكثر، وظلت أسئلة رفيقه، غير المنتظر، في رحلته المخزية تلك، تتوالد بطريقة مزعجة. سأله مصطنعًا التلقائية، عن العمل بعد الجامعة، والدته، الزواج، وعن كتب قرأها وبرامج وأفلام يحب مشاهدتها، وإن كان قد نجح في بناء صداقات جديدة أم لا.. وهو يجيب بتعريض أقرب للكذب والرغبة في الإفصاح القليل. لم ينتظر أن يتحول صديقه الوحيد، أيام الجامعة، إلى رجل على تلك الدرجة الغبية من الفضول.

كانا صديقين، قبل سنوات بعيدة، أو ما يشبه ذلك، لكن الزمن يبني الحواجز، ويظهر الجفاء بطول الانقطاع، وكان يجب عليه أن يصبر قليلًا، ويكتم فضوله، حتى يتآلفا من جديد. توقَّف نبيل عن النبش في حياته منذ انقطعا عن بعضهما. كانت طريقته سيئة ولم يوفق معه، وظن أنه قد دفعه للارتياب. أما هو فلم يذهب تفكيره إلى أبعد من أن الفضول كان دافعه، ولم يساوره أيُّ شك فيه، لكن أصابه شيء من النفور منه، وإن لم يبدِ تذمره أمامه، واستغرب ما صار عليه نبيل، وكيف أن الزمن يغيِّر البشر أو يخرج أسوأ ما فيهم.

ليل إسطنبول بارد، ربما ذلك ما جعلها تحتضن كل الوافدين، كأنها تبحث عن دفء فقدته منذ الأزل، السياح والتجار والفسَّاق والمهاجرين والهاربين والحالمين والمغرر

بهم.. لم يكن مغررًا به، ولا من أولئك الذين يتحرَّى عنهم صديقه القديم، كان نبيل يعلم ذلك من البداية، توقف عن استدراجه، بعدما ظنَّ أنَّ المصادفة قد جمعت كمال ببعضهم، أثناء السفر أو بعده، وعرف شيئًا.

عرض كمال، بعد العشاء، أن يقصدا حانة ارتادها بالأمس تقدم بيرة معقولة الثمن، فقرَّر بشكل شبه قاطع أنه كان يضيع وقته مع الشخص الخطأ. لم يكن مجبرًا على الشرب إذا رافقه ودخل الحانة، لذا وافق على اقتراحه. احتاج نبيل دائمًا إلى صديق لا يبالي بأي أمر، ولم تتح له شخصيته المنغلقة، ولا طبيعة عمله، أن يبني صداقات خالصة من شوائب المصلحة والحذر.

كانت تلك المرة الأولى التي يرتاد فيها نبيل حانة. جلس نديمًا من غير كأس، يجول ببصره في أرجاء المكان شبه المظلم، الذي يضم خليطًا عجيبًا من الناس، ثم يعود ليتأمل نفسه. كيف كان ثم كيف أصبح الآن. أيُّ تجارب عاشها جعلته يقبل بكل يُسر أن يتواجد في مكان مثل هذا؟ طالما دعاه، وهما طالبان، إلى الذهاب معه إلى مصلَّى الجامعة أو ليرافقه لإحدى ندوات الشيوخ، داعيًا إياه للعودة إلى الله، مؤكدًا له أن الطريق المؤدية إليه واحدة، وهي نهج السلف الصالح. غارقًا في الصمت، في التيه وفي التأملات الفارغة، كان نبيل يرى كمال في تلك السنوات البعيدة التي عرفه فيها، وطمع أن يقوده إلى الهداية.. ثم جمعهما القدر، بعد أعوام لم يُحصِها أيٌّ منهما، ووجد نفسه

يتجسس عليه أن يكون ممن أتوا إلى تركيا للسفر إلى بلاد الشام بزعم الجهاد المقدَّس.

لزم الصمت، وخيِّل إليه أن كمال ابتسم له، أو قرأ ما يدور في خاطره.

الحياة من هذا الوجه أشبه بحجر النرد، عشوائية وغير متوقعة، لكنَّ قانونًا لم يُكتشف بعد يحكم عشوائيتها تلك، أو هو العقل يميل إلى اعتبار أن كل شيء يجب أن يخضع لمنطق ما.

في الحديث الجدي الوحيد الذي دار بينهما طيلة ثلاث ساعات، ظهرا باهتمامات متباينة، ومتناقضين أحيانًا، مع أن نبيل لم يتكلم بتلقائية، أو ببراءة تامة، فقد حاول أن يستدرجه من جديد، لما قال إن المؤامرة وحدها هي التي توجه أجندات المنطقة، وأن الجزائر تعلمت من تجربتها، ولن تخرب بيتها بأيديها مرتين خلال جيل واحد.

بدا نبيل ناطقًا بلسان الشيطان عندما أخذ يدافع عن موقف الجزائر، وينتقد الإعلام الذي يؤجِّج الفتن، ويثوِّر البسطاء وفاقدي الوعي، ذلك الوعي المفقود بالذات، كما قال، هو ما حرَّك شعوبًا كاملة، دون نخبة تقودها ودون حكمة، ودفعها لتدمير أوطانها، وأن يصبح جزءٌ منها لاجئًا ومشرَّدًا، يستعطف الهيئات الدولية أن تطعمه وتتفضل عليه بالمساعدات.. وأنهى مرافعته تلك بأن قال: «ستدفع تلك الشعوب ثمن فعلتها لعقود طويلة».

الشيطان يكمن في التفاصيل، هكذا يقول البشر، ثم يلقون بخطاياهم على كاهل الشيطان، ويثقلون ذمته بالمزيد منها كل يوم (والشيطان سعيد بهذا، على الأرجح، لأنه فعل شيطاني على نحو أكيد)، لأن التملص من المسؤولية يعفي من تبعات الأخطاء التي يرتكبونها وسيتحملها بالضرورة آخرون.

هذا ما قدَّره بشأن حديث مرافقه، ملقيًا بالسمع إليه، وبالنظر أحيانًا إلى ثلاثينية سمراء تتحدث بلهجة شامية وتشاكس صديقتها، وتبادله النظر إعجابًا أو بيعًا للوهم.

استثقل وجوده وندم على القدوم إليه، وفي لحظة ما استجمع إرادته وتركيزه، واستأذن أن يغادر. أراد أن يذهب لـ«سوكة»، فتاة في الخامسة والعشرين أو أكثر قليلًا، تعرَّف عليها في ثاني يوم بعد وصوله، تعمل نادلة في مقهى ملحق بمطعم، بالقرب من محطة المترو بساحة أكسراي. جزم بأن الجلوس معها سيكون أمتع من كلام صاحبه القديم الذي يجرُّه للحديث في السياسة جرًّا. كل ما أراده من ذلك السفر، أن يكون نفسه فقط، بعيدًا عن كل شيء.

لم يكن مهتمًّا بالسياسة في يوم ما، كما قد يفترض أحدهم فيه، وما أقلقه حقًّا ليس الانتصار لأي رأي، لا يعرف تحديدًا عما يتحدث عنه نبيل سوى ما تلقاه من نشرات الأخبار التي نادرًا ما يتابعها، وإن حدث ذلك، فيكون بالمصادفة.

اتصل بسوكة ولم ترد فبقي معه. استحسن نبيل تلقائيته أكثر، وأصرَّ على أن يلتقيا مرَّة أخرى. استغرب كمال طلبه ذاك، بعد وقت باهت قضاه معه انتهى للتو بتذمُّر واضح، وقطع كل أمل بإعادة بعث صداقتهما. لا يشبهه فلماذا عليه أن يراه من جديد؟!

ارتاد نبيل المساجد، ثمَّ عبر صحراء الصمت، وعاش ضياع الوجهة، لسنوات كانت حاسمة في تكوينه. كانت طفولته بلا مشاكل، إلا أنه قضى فترة المراهقة مرتبكًا، بشأن كل شيء، أشد الارتباك. وفي سنوات دراسته الجامعية استوعب الحالة السلفية. كان قريبًا جدًّا منهم، تابعًا في البداية، ثم لمَّا قرأ كتبهم وأعمل فيها عقله بالرفض والطعن، أُخرج من الجماعة، وكفر بكل شيء تعلمه منهم.

الدين سماحة ومحبة، والقرآن ليس قانون عقوبات يترصد كل حركاتنا وأقوالنا بالعذاب، هكذا علَّمه أبوه. تلقَّفه بعد ذلك ضابط أمن داخلي متقاعد، واقترحه على أصدقائه في الجهاز. بدأ عميلًا سريًّا في الجامعة، ثم تخرَّج وصار له دوام رسمي وسكن وظيفي.

لم تكن أول مهمة يؤديها في الخارج، وكان مقرَّرًا لسفره ذاك أن يدوم لوقت أطول حتَّى يتمَّ مهمَّته، يتحرَّى ويعرف بعضًا مما يحدث وسط المقيمين والسيَّاح من الجزائريين في تركيا، جارة سوريا الشمالية وجنة الجهاد الجديدة في الشام والعراق. استُدعي للعودة لأمر خاص برؤسائه في الجزائر

وقطع سفره، التقى بكمال لدقائق، بعد إصرار، وذاب الجليد الذي خلَّفه نقاشهما في تلك الليلة.

ودَّعه قائلًا: كن بخير يا صديقي.

كتب عنوانه، ورقم هاتفه، على ظهر علبة سجائر فارغة أخذها من عنده. التفت إليه وهو يهم بالنزول إلى محطة مترو إلى المطار، راجعًا إلى الجزائر، وأخبره بابتسامة عريضة، بأنه سيزوره عندما يعود.

يظل في شقة نبيل محبوسًا ليوم كامل، يقتله الفراغ وقلة الحيلة، وينتظر رجوعه من العمل ليثرثر معه. بعد عودته في مساء ذلك اليوم، جلسا في الصالون، بقي المصباح مطفأ وظلمة خفيفة تغشاهما. لا يكترثان إلا قليلًا للتلفزيون الذي يبث أخبارًا، وتحليلات في العلاقات الدولية والاقتصاد، من كل بلاد الدنيا. بقيا يتبادلان أحاديث عابرة في كل اتجاه. ظل كمال يسمع أكثر مما يتكلم، ويكتفي بتعليقات أو أسئلة للفهم.

ليس في يومياته ولا في ماضيه ما يستحق الإعادة، أو هذا ما يظنه حقًّا، عندما يستمع إلى نبيل وهو يحكي له عن أهله، عن حيهم في بوسعادة القديمة، عن فتاة أحبها ثم أُشبع ضربًا بعد أن قبَّلها بلا مقدمات، وكانت على عكس ما يحب نحيفة إلى درجة ما، عن معلم الفرنسية في مدرسة البنين وكيف شوهد آخر مرة، وهو ينزف، بعد أن لكمه أحد الأولياء على أنفه، بحجة أنه يقوم بتعنيف التلاميذ،

وابنه معهم، ويعاملهم بقسوة أكثر مما ينبغي، وعن أمه وأبيه وأخواته. حياة دون خوارق أو استثناءات لكنها زاخرة.

أنصت كمال باهتمام لاستفاضة نبيل النادرة أمامه، أمسى يعتبره صديقًا حقيقيًّا، حدَّثه عن زواج أبيه من امرأة أخرى، وذهاب أمه لبيت والدها مجروحة الكرامة. استعاد أمامه، مبتسمًا وبحب، وقائع شجارهما، وأوَّل يوم عادت فيه أمه للبيت، وكيف كان أبوه يتودَّد إليها، بينما تقابله هي بتعالي من يصعب أن يحظى بعفوها. كانت متطرفة في ترميم الكرامة، وتظهر البأس الجدير بامرأة قويَّة.

بدا نبيل شخصًا مختلفًا، وهو يسرد عليه كل ذلك، الحنين يصبغ الإنسان بلون آخر. ومع ذلك لم يكشف لصديقه عن الجانب المظلم من القصة.. هنالك دومًا حدود للحديث عما يخصُّنا، نقطة نتوقف عندها كأنَّ المرء يقول: إلى هذا الحدِّ ويجب أن أصمت، لا أتحمَّل أن أكون مكشوفًا أكثر من هذا. اختفت زوجة أبيه بعدما تخلى عنها أبوه مع ابنتهما ذات الأعوام الأربعة، وحتى هو تعامى عن الأمر. تجاهلاهما لسنوات، قبل أن يسألا ويجداهما تسكنان في بيت بحي فوضوي. الأم عاملة نظافة في عيادة خاصة وأخته، واسمها شريفة، مصابة بمرض نادر في الدم.

تعرضت شريفة للاغتصاب قبل عامين. كان خروجها من البيت نادرًا، وفي إحدى المرات القليلة التي خرجت

فيها اختفت، عادت أمها من العيادة ولم تجدها، ثم بحث عنها السكان لليلة كاملة دون أن يجدوا لها أثرًا. وعند الفجر، ألقتها سيارة على طريق زراعي يقطعه الفلاحون والرعاة، رأوها فأبلغوا الأمن، ونُقلت في جرَّار للمركز الصحي بالقرية، ومنه إلى مستشفى المسيلة. شهد وشم على فخذيها بموسى حلاقة، وأثر جمر سيجارة في لحمها، على نفس مريضة سامتها العذاب.

فتحت مصالح الدرك تحقيقًا، ولم يتوَّصلوا إلى أي معلومات مفيدة، وأما شريفة ففقدت القدرة على الكلام لفترة طويلة. ناشدت أمها نبيل أن يدفن الحكاية ففعل مرغمًا، تحت وطأة نظرات تدينه هو ووالده، الذي دفعته شراهته الجنسية إلى أكثر من زواج مثل هذا، بالمشاركة فيما حدث لابنتها بالإهمال. قصص النساء في تجرع المهانة، صامتات خوفًا من العار، قديمة وتعاد دومًا. باعت كوخها لنازح آخر قادم من الصحراء، وسكنت بعيدًا هاربة من كلام الناس، ابنتها جميلة وشهية، برغم المرض، والضحية تحمل وزر كونها ضحية كذلك، سمعتهم يلوكون قصصًا مشابهة، وصارت تفهم كيف يفكرون.

انقضت أسابيع وأشهر، وظُنَّ أن الحادثة نُسيت، لكن نبيل ظلَّ عازمًا على الانتقام. لا أكثر من المشبوهين والمسبوقين لاستخدامهم في مهمات قذرة. كان قد تحرَّى عن الفاعل الرئيسي، ووجده شابًّا في السابعة والعشرين، عقله تحت تأثير الحبوب أغلب الوقت، ولا يفيق إلا نادرًا.

تمَّت عملية الثأر بحرفية جديرة بالإعجاب، بطريقة نظيفة، وبلا أثر أو دليل. أشرف نبيل على أدواته البشرية، التي استدرجت الشاب، دون التعامل معها مباشرة.

حزوا ذكر الجاني، ودقوا خصيتيه، لتختفي علامات الرجولة لديه. استيفاء الحق بالذات يشفي الغليل أكثر، ولم يكن سجنه أو حتى إعدامه ليجعله مرتاحًا. نزف حتى الموت، وُجدت جثته في المكان نفسه، على الطريق الزراعي، حيث عثروا على شريفة منكوبة بسبب أنوثتها وتخلِّيه هو ووالده عنها. كلفته مالًا وجهدًا، لكن عينَي أخته الشريفة البريئتين تستحقان عدالة ناجزة.

أما شريفة فلازمها الخوف أبدًا، عاشت تجربة عذاب قاسية، خلفت لديها آثارًا مستديمة وتشوهًا نفسيًّا فوق تشوه البدن، ولم يسعفها إدراكها المعطَّل بعد ذلك أن تستوعب ما حدث لها أو تتجاوزه، غير أنها فهمت أن الإناث يدفعن ضرائب مضاعفة للحياة فقط لأنهن إناث.

ودَّ نبيل لو يُقتل المجرم بألف طريقة مختلفة، ليطمئن إلى أنه قد انتقم لها حق الانتقام، ولئلا ينصفها بعدالة منقوصة فتُظلم مرتين. أشفق على والده، وقد حطَّمت الحادثة كبرياءه وعناده، وفهم أن ضعفه أمام زوجته كان خطيئة. تمنى لو يستطيع أن يقتصَّ لشريفة أخته من نفسه، لأنه طاوع أباه وتخاذل في حمايتها، ومن والده كذلك، حامل لكتاب الله، رمى لحمه للمرضى والذئاب تنهشه. تعلَّم بعدها أن الأخلاق تحتاج إلى الشجاعة، وألا

إنسانية للجبناء.

كنا نذهب أنا وأبي إلى زاوية الهامل، ولا ننقطع عنها أبدًا، قال يخبره، أبي مريد فاشل وقليل المثابرة، لكنه محبٌّ كبير لعائلة القاسمي، نسبهم شريف. ابتسم كمال لما سمع ذلك، لا يفهم جيدًا هذه الأشياء، ربما كان النسب عُروة الشرف الأولى لقرون طويلة، قبل أن يصبح المال هو النسب والقوة. حفظ والدي القرآن هناك، أكمل يقول، ودرس شيئًا من الفقه واللغة. شباب لا يحصون تخرَّجوا منها، وأصبحوا أئمة أو معلمي قرآن في كتاتيب قراهم بعد عودتهم إليها. عمل معلم قرآن بمسجد الحي لعقود من الزمن، وتقاعد بأجر زهيد قياسًا لكثرتنا وغلاء المعيشة.

في أيام الجُمع خاصة يكون هناك زوَّار كثر، يفدون من كل جهات البلاد، آتين لرؤية شيخ الزاوية، طالبين البركة والدعاء، أو متحاكمين عنده أو طامحين لمكانة أو وظيفة ينالونها بتزكية منه، أو مقدِّمين للزاوية أوقافًا قربان محبة وولاء. يتحلَّقون حول جفان الكسكسي واللحم، وأواني المرق واللبن، المصفوفة في خط طويل. تُحضَّر في الزَّاوية، لكن يجلب الزوار معهم المواشي وكل ما يلزم للوليمة الكبيرة.

لا يمكن للمرء أن ينسى مدينة احتضنت طفولته ومراهقته. استذكر أمامه زقاقهم الترابي، عبث الصغار فيه، ودهشتهم عندما يعود مهاجرو المدينة إليها من فرنسا في

الصيف، حاملين معهم اللَّعب والأجهزة الإلكترونية. في زمن مضى كانت بوسعادة وجهة سياحية مهمة، أخبره، ثم تأسَّف أمامه لأن ذلك أصبح من الماضي. تغير كل شيء بعد الأزمة الأمنية، وازدادت المدينة انغلاقًا، وصار الجزائري يخاف من الأجانب أكثر. يتذكَّر نبيل، إلى نهاية سنوات الثمانينيات، كيف كان الأجانب - ومنهم يهود - يجوبون أسواق المدينة وأحياءها. وقد كانت بوسعادة حاضنة قديمة لليهود في الجزائر.

ثم قال يؤكد لصديقه في تلك السهرة:

- أظن أن مجتمعنا فقد قدرته على قبول التنوع والاختلاف حتى داخل اللون الواحد.

انتهى حديثه الطويل عند ذلك الحدِّ، كان يتثاءب طيلة السهرة، لكنه أراد أن يتحدث ويهرب إلى الماضي. مضى إلى سريره، وترك كمال وحيدًا في الصالون، تغشاه العتمة ولا يكترث بغير نفسه، وإن نغصت عليه وأحزنته دمعة آسيا، التي نزلت على خدِّها وهو يودعها، كأنَّها انسكبت في قلبه.

في أول ليلة لجأ فيها كمال إلى نبيل للاختباء، وجد والده عنده. ردَّ على ثرثرته الطويلة بكلمات قليلة، وابتسامات متكلفة. أطال الاستماع إليه دون تركيز كبير، ووصفه بينه وبين نفسه بالرجل الذي يحب الاستعراض كثيرًا، دون أن ينكر كم هو موهوب في شدِّ انتباه من يستمع إليه.

استفاض في الحديث أمامه عن كل شيء تقريبًا، عن رئيس لا يقدِّر الشعب نعمة وجوده، وعن أهل البرهان الذين لولاهم لكانت حال البلد أسوأ مما هي عليه اليوم، وعن منامات تراوده تنذر بفتن عظيمة، وعن رؤى الشيوخ ونبوءاتهم التي لا تخيب. يأتي لزيارة ابنه في مرات متباعدة، ينقل إليه بركة الأشراف الصالحين الذين لا يؤمن بمكانتهم عند الله. يصله بودِّ العطوف الحليم، رغم جفاء الابن وتعاليه، ويقضي مصالح له في العاصمة لا يخبر بها أحدًا، ثم يطوف على المغمورين، من أحباب الله وخاصته، في مدينة مليئة بالخطيئة والشرور. أخبره بأنه يمقت أصحاب اللحى لأنهم أول عدو لله ولدينه الحق، وأن أهل الطريقة لهم العلو في الدنيا والآخرة مهما تفرقت بالناس السبل، لأنهم تعلقوا بالملكوت وتساموا في المحبة، ونذروا حياتهم لها.

تركهما كمال في تلك الليلة، واعتزل في غرفة خصصها له نبيل، وهو يرحب به من كل قلبه. تمدَّد على السَّرير منهكًا، لكنه لم يستطع النوم، وتسرَّب إليه حديثهما المسموع، وفهم أن بينهما خلافات عميقة..

حق التائب على ربه أن تُقبل توبته، ووعد الله نافذ..

سمعه يقول لابنه بثقة وإصرار، ونبيل يردُّ عليه بحنق:

إن التوبة تستدعي إرجاع الحقوق ورفع الظلم.. ثم يؤكد عليه برجاء بألا يشتري دنياه بآخرته.

تردَّد اسم شريفة، أمه، شيخ الزاوية، ورؤية ستتحقق ولو بعد حين.. انتهى حديثهما على ذلك، بينما راح هو يغطُّ في نوم عميق، بعد يوم طويل واستثنائي، وعندما استيقظ في الصباح كان الرجل قد غادر عائدًا إلى بوسعادة.

حفظ نبيل على يد والده القرآن كاملًا، وبعض المتون، هيَّأه ليكون ما أحبَّ أن يكون هو يومًا ولم يستطع، شيخًا من العارفين، امتدادًا لحلمه القديم في ألا يكون مجرَّد خادم لآل القاسمي. نشأ ربيبًا في زاوية الهامل، وتمسَّح بهم واجتهد في الوصول، لكن الأصل غلَّاب. معلم قرآن يحظى برعايتهم وجوارهم، لكن ليس في مرتبة الندِّ أو النظير.

تزخر ذاكرته بالحكايات الغريبة، ويعتبرونه نسَّابة المنطقة، يعرف عائلات بوسعادة الأصلية منها والدخيلة، والشيء الكثير عن تاريخها القريب والبعيد. اخترع لنفسه نسبًا، يبرع في ذلك دائمًا ولا يترك أي ثغرة، لكنه لا يعرف حقًّا من يكون. ابن رجل أعرج جاء من الصحراء لزيارة شيخ زاوية الهامل، يقصد البركة والدعاء عند أقدام الأشراف المقدسين، وأخبرهم أنه منذور للترحال. أقام عندهم شهرًا كاملًا، من الهلال إلى الهلال، ثم وهبهم فتى كان يرافقه، تلميذًا ومريدًا، معترفًا بكراماتهم طائعًا ومسلِّمًا، ثم لم يعد ليسأل عنه أبدًا.

حكايات كثيرة مثل هذه يرويها عن أبيه السائح في

أرض الله يبحث عن الحق والنور، وعن نفسه، وكيف يراه في المنام دائمًا ليطمئن عليه.. يسلّي بها مجالس الزائرين والعابرين، ثم يقول لهم إن الله يرعاه ويحبه إذ جعله خلفًا صالحًا، واجتباه لخدمة أوليائه الصالحين.

خذله نبيل، ابنه البكر، وأساء لسمعة اجتهد في ترسيخها طوال سنين عمره. بعد عام واحد في الجامعة عاد إليه بلحية وقميص، وفي سنوات الحرب الأهلية كانت تلك تهمة جاهزة ليفتك به أي جهاز للأمن، وفوق ذلك اعتبرها ردَّة مخزية.

نجح ابنه في البكالوريا، وسكن في إقامة جامعية بالقبَّة بالعاصمة، ثم رجع إليه بعد أشهر قليلة يخبره بأنه وجد أخيرًا طريقه إلى الله، وقد نسي أن الله في قلبه دائمًا، كما لقَّنه هو، وسار به على نهج العارفين. بدَّع ما يفعله أصحاب الزَّوايا ومرتادوها، فأحرجه مع بيت القاسمي، وكانت مشاكله معه بلا عدد. عندما ولد طار قلبه فرحًا به، وأخذه عند شيخ الزاوية ليبصق له في فمه، ورجاه أن يدعو له بطول العمر والعلم والوجاهة.

يدرك نبيل أنه ليس بارًّا بوالده كما ينبغي، وأنَّ من في مثل سنِّه لا يحتاج بعدُ من يعلمه كيف يعيش الحياة وهو في عقده السابع، لكنه أيضًا لا يستطيع أن يراه دون تذكيره، في كل مرة، بأن أخطاءه كلها حطمت صورته في عينيه. يعاقبه، ويعاقب نفسه من خلاله، على نذالته مع شريفة وأمها. قد يكون الخطأ في نظرته المثالية لأبيه، يراجع

نفسه أحيانًا، ويعتذر منه، ويرجوه بأن يساعده فيما لا يستطيع الجهر له به.

أفسد علاقته مع الله، إذ أراده أن يبتغي جاهًا دنيويًّا بادِّعاء مكانة خاصة عند ربه. لم يكن الوحيد الذي فعل ذلك، أصحاب الدعوة فعلوا به ذلك أيضًا عندما كان طالبًا في الجامعة، كثيرون ادَّعوا تصريحًا أو تضمينًا نبوة أرضية، وعاش شطر حياته تائهًا، وأرهقته تناقضات لا حصر لها. لاحظ كمال أن في مكتبته مجلدات تفسير، وكتب سيرة وحديث، ومؤلفات للفلسفة الإسلامية خاصة ـ تسلَّى بتقليب صفحات بعضها ليمضي وقت فراغه الطويل، وكان سيسأله عنها ثم لم يجد داعيًا لذلك.

حدَّثه مرَّة بعدها كيف كان يقضي ليالي الصيف فوق سطح دارهم في بوسعادة، ينظر إلى السماء، يفاضل في أحلامه بين الوظائف المهمة، ويستدعي صورًا من التلفاز وأخرى من ذاكرته مما قرأه من كتب أو سمعه من أحاديث ودروس، ثم يعقد مقارنات كثيرة بين شخصيات عظيمة، تؤثر في أعداد هائلة من البشر، ترسم الأقدار وتصنع أمجادًا لا تُنسى. تطلَّع دومًا لمكانة عالية يحوزها بين أقرانه، العالم ليس بوسعادة، لكن ذلك ما كان يريده في الحد الأدنى، مع أنه لم يعرف أبدًا كيف يمكنه بلوغ ذلك عندما يصبح رجلًا.

قرر أن ذلك سيكفل له أن يحظى بأي امرأة يريدها، العظماء يفوزون دائمًا بنساء جميلات واستثنائيات،

ينتظرنهم في المساء ليزلن عنهم تعب اليوم الطويل. كانت ابنة الجيران مرجعًا للمرأة التي يرغب فيها، وإن لم تكن هي بالذات من يريدها، عرف من الأفلام والمسلسلات أن مجال الاختيار أمامه واسع، الجميلات كثيرات، وكان على يقين بأن الله سيكافئه بواحدة تملأ عينيه وقلبه. كان يسترق النظر لابنة الجيران تلك، فيما تبتسم هي له في خجل، وهما ذاهبان إلى الكُتَّاب، حيث والده هو «الطالب» مما جعله ذا حظوة عندها وبين أقرانه. لا يتذكر حتى اسمها الآن، لكن حضورها آنذاك كان حاسمًا في يومياته، ومن شأن وجودها قريبة منه، أو حتى مرورها من أمامه، أن يغير نفسيته من حال إلى حال.

يبدو كل ذلك الآن ذكريات ملتبسة الأثر من زمن السذاجة، الإنسان صنيعة البدايات، والأقدار تسري أحكامها على الجميع، لكنه راضٍ عن نفسه كما هو تمام الرضا، لا يتحسَّر على شيء. وأولئك الذين احتكروا الحديث باسم الله، وحملوا شارة الطريق التي أقنعوا الناس بأنها تؤدي إليه، أفسدوا طيبته وإيمانه الفطري، لا يحقد عليهم، إذ هو نفسه صار مسخًا، كلب حراسة آدميًّا، برتبة رفيعة وسكن وراتب شهري محترم.. يقوم بحراسة من وفي سبيل ماذا؟

أخفض بصره، وتحاشى أن ينظر في عينَي كمال، عندما دخل إليه ليسأله إن كان بحاجة لشيء قبل أن يتوجه لعمله. يخجل من نفسه ومن أبيه، كأن الناس كلهم

يعرفون فضائح الوالد ونزواته، ومطلعون على تيه الولد وتقلُّب فؤاده بين اليقين، وبين فك لغز الله الذي لا يفهم مسوغات أن يكون خافيًا إلى ذلك الحد، ثم يحرق بالنار من لم يستطيعوا رؤيته.

اندمج كمال قليلًا في مشاهدة فيلم أمريكي مدبلج، ثم استرخى بعد أن بدأ القرص المنوم يأخذ مفعوله، جرَّ رجليه إلى السرير، يتبين طريقه إلى غرفته إذ لم يتعود على الشقة بعد. خلد إلى النوم في أقل من دقيقة، ورأى فراشات تتراقص أمامه، وحيوانات، وطيورًا مذعورة وأخرى لا تبالي، وتجمَّع كل من عرفهم في حياته من قريب أو بعيد على نحو فوضوي لم يفهم دلالته، ولم يكن متأكدًا من ذلك، لأنه سمع أحدهم فقط يخبره بمن يكون كل هؤلاء.

بدا له الحشد عظيمًا، ولم يستطع تذكُّر سوى القليل منهم، واستغرب كيف أن كل هؤلاء مرُّوا بحياته، وتساءل من استطاع أن يحضرهم جميعًا دون أن ينسى أي واحد منهم. ثم رآهم يتركونه وحده، وهم يهرعون إلى جهات مختلفة لأن القيامة أصبحت وشيكة، وسلكوا على مرأى منه طرقًا كثيرة تتجاور مثل مسالك العدَّائين في مضمار السباق. انتابه الهلع هو أيضًا، لكن لم يعرف لماذا عليه أن يهرب، ممن، وإلى أين يذهب.

أفاق من نوم أشبه بالسفر عبر الزمن، قلبه يخفق بشدة وجبينه يتفصد عرقًا، وبقي يحدِّق في عتمة الغرفة، ثم

مضت ثوانٍ أحسَّ أنها طويلة قبل أن يعرف من يكون وأين هو في تلك اللحظة. استعاد وعيه وهدوءه، ثم تذكر كل ما سمعه من نبيل في السهرة، وعن علاقته بوالده.

عاد به الزمن إلى الوراء بعيدًا.. كان تلميذًا في المتوسطة عندما نشبت مشاجرة دامية بينه وبين زميل له، وكانت حديث الأساتذة والتلاميذ والإدارة لأيام. حضر الأولياء، وبدت الأمهات سعيدات بأولادهن وبناتهن، وفتيحة أخذت إجازة طارئة لتكون معه في حفل رائع، أقيم بمناسبة يوم العلم، يكرَّم فيه النجباء.

كان كل شيء يوحي بحفلة سيتذكرها الجميع طويلًا، قبل أن يسمع كمال زميله في القسم يقف في حلقة، ويقول بوقاحة، وهو يشير إليه، إنهم لم يروا والده أبدًا، ثم يضيف بنبرة مستفزة: قد يكون نزل من السماء ونحن لا نعلم. هجم عليه بلكمات خاطفة، كاد يهشم وجهه، ثم أوقعه أرضًا وضربه كيفما اتفق حتى تدخل البقية، وتطلَّب الأمر نقل زميله ذاك لعيادة المتوسطة، ومنها لمشفى قريب، واستُخرجت شهادة طبية تفيد بحجم الإصابات كاملة، ولكن توسُّلات فتيحة، وتدخُّل مدير المؤسسة وبعض النقود التي دُفعت، جعلت أهله يتراجعون عن الشكوى.. مرَّت الحفلة بلا طعم، وأُجبر الاثنان بعدها على الاعتراف بالخطأ وتبادل الاعتذار.

بقيت الحادثة وصمة في سيرته الدراسية بينهم، لكنها في المقابل كفَّت أذى محتملًا من البقية.

لم يعرف كم من الوقت مضى وهو يحدق في الفراغ المظلم، وتراوده أفكار وصور بلا عدد، ثم رُفع أذان الفجر، ووجد نفسه أمام سؤال اعتقد أنه يحمل وجاهة كبيرة، رغم سخريته المريرة، إذ ما الذي يمكن أن يضيفه وجود أب في حياته، وهو يرى كيف هي علاقة نبيل بوالده؟ ساعة أخرى أو أقل، وتسرَّب من خصاص النافذة أول ضوء للصباح، واستطاع أن يغفو ثانية، وقد تجاهل حقيقة أن سؤال الأب في حياته يتعلق بالأصل لا الدور.

٩

لم يتطوع اللَّيل ليمنح له كشفًا يطمئن إليه قلبه، بات أمله يخبو والوقت يحاصره، وقد تعب من انتظار الجديد الذي سوف يواجهه. رجل أرِق، مبعثر، ويشعر دائمًا بأنه ضعيف. يردِّد في سرِّه بأنَّ عليه الوقوف على أرض صلبة من أجل أن يعرف ما يجب عليه فعله.. يؤازر نفسه أحيانًا بهذا الكلام، رغم أنَّ الوصفات الجاهزة تفيد وضعًا أقل تعقيدًا من وضعه.

لم يستطع مواجهة عمي عيسى، صديق خاله الحميم، وسؤاله عمَّا يخفيه عنه هو الآخر. لماذا كان هناك؟ رآه يخرج من المبنى عندما كان يستمع إلى نادية وهي تسرد عليه ماضي والدها البعيد. غضَّ بصره عنه وتجاهله، كأنَّه لم يره حقًّا، ونظراتهما لم تتقاطع أكثر من مرَّة، ليمد الخطو، ويعود فيدخل قبله إلى داره. خلل في توقيت عودته مع نادية سمح له بكشف ما يحدث وراء ظهره.

بقي يخمِّن، بلا جدوى، طبيعة الأسرار التي يخفيها عنه الشيخان، كانا يتحدَّثان عنه، وهو لا يعرف حتى من يكون بينهما، وليست المرَّة الأولى بكل تأكيد، توقع ذلك بقوة.. عن مولده، عن أمه، وبحثه العبثي عن أبيه. أشفقا عليه قليلًا، وقرَّرا بعد ذلك ما لا يعرفه. جاء إليهما تائهًا فوجد نفسه بينهما بلا حيلة.

الغرفة مضاءة بمصباح صغير، يصدر نورًا أبيض خافتًا،

وذهنه متَّقد في ما بعد منتصف ليله ذاك، يذهب في كل اتجاه حتى يشبع تفكيره منه، ثم يعود ليسلك آخر. النافذة المشرعة على اتساعها تصدِّر إلى جوف الظلام دخان سجائر لا يعدها، ويتسلل منها برد خفيف يسرق الدفء والخمول.

كان يُشبع نهم أسئلته بالظنون البريئة والآثمة في حق نفسه وفي حق الجميع، ووساوسه لم تدَّخر أحدًا، وعندما يحلُّ الصباح يجب أن يقرر شيئًا جديًّا، سيكون الرحيل غالبًا. قلبا خالته فطيمة وآسيا ينتظرانه، وألفته مع ضياعه الأول كفيلة بأن تداوي ما حملته نفسه من غربة مضاعفة في أقل من أسبوع مكثه هنا. سيحزم حقيبته ويلمع حذاءه، ويحلق ذقنه ويصفِّف شعره ويتأنَّق، سيفعل ذلك، إن فعل، كأنَّه مترفع عن حياة شقية تطحن الآخرين، ويمشي واثق الخطى يأمل من المستقبل ما لا يأمله غيره.

الطرق المعبَّدة خرافة، و«الطريق يصنعها المشي» لا يذكر أين قرأ ذلك، يحتاج إلى أن يشق طريقه، ثم يمشيها دون اعتبارات لا تخصُّه. تجاوبت كاترين رافو، ابنة المعمِّر صاحب بيتهم في باب الوادي، مع رسالة وصلتها منه عبر بريدها الإلكتروني بأسرع ممَّا كان ينتظر. شرح لها موقفه كما هو فتفهَّمت. لا يحب أن يعقد الآمال على أي إنسان أو أي شيء، ولم يعتبر وعدها له بمساعدته تعلُّقًا بالأفضل، لكن في حالته كانت تلك السيدة الودود طوق نجاته الوحيد من مأزق محقق.. منحته أملًا حقيقيًّا بشأن آفاق

أخرى قد تُفتح أمامه.

رأى بعض الشباب المهاجرين في الصباح بمقهى الحي، يثرثرون بغباء، عن الحفرة التي كانوا يعيشون فيها قبل نجاحهم في القدوم إلى فرنسا. وصفوا البلاد بأنها تشبه الحظيرة، زريبة، حيّز بيولوجي محض. لفتوا انتباهه بأصواتهم العالية وضحكاتهم، يسخرون بمرارة من مصيرهم لو لم يغامروا بالمجيء وبقوا هناك ليتعفَّنوا في صمت، ثم تفاخروا فيما بينهم بغرامياتهم، وكيف يعيدون إنتاج أنفسهم جنسيًّا إلى ما لا نهاية. قال أحدهم إنَّه كان من البائسين، مكبوتًا، ويقضي ليله في التخيُّلات والاستمناء، ثمَّ عندما جاء إلى هنا صارت معاشرة امرأة آخر شيء يحمل همَّه.

قدَّر كمال أنه لا يشبههم، في ذلك على الأقل، ولن يبقى في فرنسا من أجل أن يشبع حيوانيته ويزني كما يحلو له، أو يشرب الكحول دون منغصات، لأن الناس في «البلاد» منغلقون ومتزمتون. له من الشجاعة والتصالح مع الذات ما يكفي ليفعل ذلك هناك.

تعرَّف على واحد منهم، عندما جاء وطلب منه قدَّاحة ليشعل سيجارته، وتحادثا لدقائق. وجده ناقمًا على الله، وعلى كل شيء، والتعاسة والأنانية تأكلان قلبه. كان يعمل صيادًا على مركب يملكه صهره، ويعود مع كل صباح ساخطًا، تنبعث منه رائحة السمك. جمع المال، ثم قرر بعدها أن يعبر إلى الجنة على ظهر قارب للموت، لكنها

لم تتسع له. نجح في الوصول إلى الشاطئ، ثم العبور بأعجوبة من إسبانيا إلى فرنسا، وهو يعيش متخفيًا الآن أن تمسكه الشرطة ويُرحَّل. سمع منه كلامًا كثيرًا، وكان غاضبًا من أجل حظه السيئ الذي لاحقه حتى في بلاد العزِّ، لكنه سخر من كمال لمَّا سأله لِم لا يعود إلى الجزائر.

جعلت تلك المنظومة اللعينة الإنسان هناك مجرد حيوان وديع، لا يملك زمام نفسه ولا يؤمن بشيء، وتتطاير أمنياته وأوهامه مثل فراشات هبت عليها ريح قوية. يبحث عن خلاص فردي موهوم، وتفوز الأنانية في النهاية دائمًا، والكل خاسر. يتعاظم بداخله التوجس والتشكيك وكراهية النفس. لقد تمت حيونة الفرد بنجاح كامل، وتبدد الإيمان بالذات الفردية والجماعية. سارت التطورية إلى الخلف، ولا مكان للرثاء. ينظر الشباب المهدور، في بلد مغلق بإحكام مثل التابوت، لإنسان ما وراء التلفزيون والهواتف كأنَّهم كائنات من فصيلة أدنى، يحاولون اجتياز البحر المتوسط ويفرون طلبًا للارتقاء، أعينهم في السماء وأقدامهم غارقة في الوحل. بينما تقبع البقية لا تنتظر شيئًا، والقيامة تأخرت.

غلب عليه سواده الداخلي وجعل يطلق الأحكام بينه وبين نفسه، ثم انتهى إلى أن يمسح من عقله كلَّ ذلك، معتبرًا ألا جدوى ممَّا لا جدوى منه.

تحادث كمال مع السيِّدة الفرنسية بعد ذلك في الهاتف، وبدت مرحبة به بصدق. كان يحاول أن يرسم مسارات

موازية لحياته. تقيم كاترين رافو في باريس، وتعمل مشرفة على الموقع الإلكتروني لإحدى الإذاعات الحكومية، سوف تساعده بما تستطيع كأنَّه ابنها. هكذا وعدته بشأن تسوية وثائق الإقامة والعمل والمبيت، سوف توكِّل محاميًا، وهو يعرف ما يجب عمله.. عليه أن ينتقل من ليون إلى باريس، لم يتفق معها على موعد محدد بعد، فقط أوحى لها بأنه سيأتي قريبًا، ثم ظهر له أن الموعد قد يكون أقرب مما حسب له.

اعترفت مدام كاترين لكمال كم أن الحنين يشدها إلى ذكريات طفولتها في البيت بباب الوادي، عن سنوات حياتها الأولى التي عاشتها فيه، وعن سطوة الجذور. ليس لها أحد الآن في تلك المدينة، وذلك الحي، أخبرته، لكنه ما زال يعنيها بشكل خاص، والماضي جزء من العمر، وليس مجرد أوراق في رزنامة أو مفكِّرة صغيرة.

حكت له عن خروجهم المأساوي من الجزائر، في الفترة بين إعلان اتفاق وقف إطلاق النار، بين جبهة التحرير الوطني وفرنسا، ويوم إعلان الاستقلال، وعن مغادرتهم للبيت، والتدافع أمام بوابات الميناء للظفر بمكان على الباخرة، وعن دموع أمِّها وحسرة والدها مسيو رافو. لم يغادر المسكين الماضي أبدًا، وكان كل حديثه في جلساته، معها ومع أحفاده، عن آلجي البيضاء وعن البيت، وسنوات حياته الرائعة التي قضاها فيه.

كان حلمه، قبل أن يغادر الحياة، أن يعود فيزور بيتنا

هناك ثم يموت بسلام. إنه تاريخ والده وجدِّه، جمعوا المال وبنوه، وأصبح يمثل مجد العائلة، وعاشوا فيه لحظات لا تُنسى. ذلك البيت هو مجد آل رافو. سوف تبقى ممتنة له دائمًا. عندما تحقق حلم والدها بزيارة آلجي والعودة إلى البيت والتجول في الحي والمدينة أوروبية الطراز كلها. كان كمال أكثر من ساعد في ذلك، ثم مات مسيو رافو بعدها بأشهر معدودة، وكان سعيدًا على نحو ما.

«أقدام سوداء» رحلوا بمجرد أن استعاد أهل البلد حريتهم.. تمنَّت مدام كاترين ألا يكون عند كمال ذلك الرأي الاختزالي لما حدث. لم يكن المعمِّرون كلهم من أصحاب الأملاك والأراضي والمزارع الكبيرة، لقد كان فيهم فقراء وعمال يومية وحرفيون، ولهم انتماء حقيقي للجزائر، ولهم جيران وأصدقاء من المسلمين الجزائريين. للكولونيالية مساوئها، وتسبَّبت في آلام لا تُنسى، لكنَّها لم تكن شرًّا خالصًا.. احتكاك مأساوي بين الأمم، ومع ذلك أثمر بعض التقدُّم وانتشرت الحضارة.

أقدام سوداء وقلوبهم بيضاء، أولئك الأوروبيون الذين عاشوا لأكثر من قرن ونصف في بلاد الشمس، وأحبُّوها أكثر ممَّن عادوا بها إلى التخلُّف اليوم، حكموها بالباطل ونهبوها، وجعلوا الشباب يفكرون أنَّ الاستقلال ربما كان خطيئة، ويتمنون المجيء، والعيش في فرنسا ولو كمشردين وطالبي معونات حكومية.. وليس في ذلك بالتأكيد أي خيانة لتضحيات أجدادهم ضد الاحتلال، إذ من

الطبيعي أن يتطلَّع المرء لحياة أفضل، ويمضي حيث يحقق ذاته. وختمت تقول لكمال إن المقارنة قائمة ولا يمكن إغفالها. عندما زار والدها البيت وجده كما هو تقريبًا، والحي، ومباني العاصمة وشوارعها، لم تتغير فيها أشياء كثيرة، لكن آلجي أصبحت مدينة بلا روح، هجينة وقذرة.

تجاوز كمال التردُّد. كانت هزيمته ماحقة، لكنه تعوَّد على النكبات، واكتسب مناعة ضد السقوط النهائي. نجاحاته في الحياة محدودة، وأغلبها منحة من القدر، كان جهده الذاتي قاصرًا دائمًا عن بلوغ ما يرغب فيه. قدراته معطَّلة كأن قوى خفية تكبله، وربما يطلب دومًا ما يفوق إمكانياته، فيفشل ثم يقع تحت رحمة خياله، في كل مرة يتعسر عليه فيها الواقع، ولا يطاوعه للأخير، فيذهب ليصنع حياة موازية بلا أساس. كان متصالحًا مع قصوره وتقصيره وإخفاقاته الكثيرة.

وفي هذه المحاولة بالذات بذل كل ما يستطيع، ليعرف أي شيء عن والده، الذي يرجّح بأنه مات فعلًا كما أخبروه، وكل ما يهمُّه هو الاطلاع على سيرته وكيف أنجبه. حضَّر حقيبته، ثم تمدَّد على بطنه فوق السرير، وأخذته غفوة وهو يفكر في كل ذلك.. تأخر الوقت، وإلا لكان قد هاتف السيدة كاترين، وأعلمها بأنه سيكون غدًا في باريس.

أرسلت له في وقت سابق موقع بيتها، وعرضت عليه أن

تحجز له إلكترونيًّا، وتدفع له ثمن تذكرة رحلة على القطار فائق السرعة، فرفض وأخبرها بأنه لم يحدِّد موعدًا نهائيًّا بعد. كان في الحقيقة يتعفَّف كأنَّه ليس معدمًا إلى تلك الدرجة، مع أنه لم يكن يعرف حقًّا من أين يحصل على أي نقود إضافية.

كان يعتقد أن لديه من ينتظره عندما يعود للجزائر، لكن رسالة وصلته من آسيا، قبل يومين، جعلته يراجع نفسه بشأن ذلك. لم ينتبه لها في حينها وقرأها متأخرًا. أخبرته بأنها مخذولة بسببه، وتتألم لأنه لا يبالي حتى بالرد على رسائلها، لكنها ستكمل حياتها من دونه، ولن يكون أكبر من قدرتها على النسيان والتجاوز. أصابه غمٌّ آخر لما اطلع على الرسالة، ورجح أنها قررت التوقف عن انتظاره. يعرف أنها قوية وناضجة بما يكفي لتفعل ما تفكر به.

لم يعد مهمًّا أن يسأل نفسه إلى أي مدى أحبها، شكرها في قلبه على نعمة وجودها معه كل تلك السنوات، وعلى كل ما منحته له بحب كبير. وتذكَّر كيف كان يداعبها أحيانًا، وهما مستلقيان، ويضع إصبعه في سرَّتها، ويقول لها هنا يقع مركز العالم، وتأسَّف لأنه كان نذلًا معها إلى أبعد الحدود.

لن تكون الجنة بانتظاره مهما بلغ معه كرم السيدة كاترين. يتوجب عليه أن يناضل من أجل العيش بكرامة إذا قرر البقاء، فرنسا لم تعد جنة للشباب الحالمين. سوف يخلف وعده للهاشمي دبُّوز، الذي حصل على التأشيرة باسم

شركته، رأى نفسه يتجه إلى ذلك مرغمًا. أضرار معنوية تُحتمل، وما يشق عليه فعلًا هو أن يقطع صلاته بكل من عرفهم في الماضي، وشكَّلوا جزءًا أصيلًا أو دخيلًا من حياته السابقة. يستقر في باريس، ويدفن حيرته ومعارفه، وكل ما قاده إلى التيه، ويبدأ حياته من جديد، في مكان آخر وزمان آخر، مع بشر مختلفين، ويكون كأنه وُلد بالأمس القريب.

ما زال أمامه أسبوع كامل قبل أن يحين موعد رجوعه، وليس لديه ما يصنعه فيه. قد يحجز على أول رحلة عودة للجزائر مستعجلًا الخلاص، وهذا أيضًا مسار موازٍ في دائرة الحلول الممكنة للهروب من فشله الحالي. بعض الجهل راحة، ولن يرهق نفسه في سبيل وهم يتلاعب به. كان يجدر به أن يفعل ذلك في حينه، مخافة أن يطالعه الصباح بوهم آخر، فيطمع أن ينال من يومه ما عجز عنه بالأمس، ثم يباغته الليل من جديد، فيصحح مقامه ويضعه أسفل الرجاء.

لن يكون من اللائق أن يرحل دون أن يشكرهما، عمي عيسى وزوجته خاصَّة، امرأة بقلب كبير وأمٍّ من الطراز الأول. لن يحرج زوجها الذي أبى أن يساعده، سيحترم شيبته وإكرامه له، لكنه لن يسامحه أبدًا، هو وصديقه وجاره عبد القادر بن صابر. عندما رآه يخرج من المبنى، تفاجأ كثيرًا، لم يكن وجهه عندما رآه لأول مرَّة في المقبرة، يوم دفنوا أمَّه، ليسمح بأن تساوره الشكوك في

صدقه.

ترك نادية واقفة وحدها، دون أن يشكرها كما يجب على الجولة المسائية أو يودِّعها، وتبعه حتى دخل. تظاهر بأنه لم يرهما، ووالدها كلَّمها لا ليطمئن عليها، بل ليتأكد أنَّهما بعيدان بما يكفي، ولن يراه عنده. لماذا تجاهله؟ ولمَ ادَّعى قبل ذلك عندما سأله عنه بأنَّه لا يعرفه؟

أصبح عليه الصبح، وقد صار كل ما عاقره لليل طويل محض هباء، أوهام ومخاوف، وأضغاث أحلام اغتالها طلوع الفجر. حضَّر نفسه وحقيبته لكنَّه لم يغادر، كان الوقت مبكرًا عن موعد رحيل لم يعزم عليه حقًّا قط. هل يعرف الإنسان نفسه.. ويعرف الآخرين؟ لا يعلم بمَ قد يجيب به الآخرون عن هذا السؤال، لكنه لم يتوقع أن يكونوا مثله.

جلس الثلاثة في الصالون، ثم عرضت عليه المرأة الإفطار فاعتذر بلطف. كان عمي عيسى قلقًا جدًّا من الموقف، يفكر كيف أن حياته طالعته دائمًا بمشاكل أكبر منه، ارتكبها آخرون بالأساس، ويتحمَّل هو تبعاتها معهم أو بدلًا عنهم. ساد الصمت، وبدا كمال غاضبًا وحزينًا، وحقيبته موضوعة أمام الباب. أمَّا العجوز فبقيت تحوِّل نظراتها بينهما، مشفقة عليهما، وترى نفسها ملومة أيضًا، وتستحق الإدانة والعقاب، لا تدري على ماذا تستحقهما تحديدًا.

رنَّ جرس الباب، وتذمَّر عمي عيسى بشدة لمَّا سمعه. لم

يكن ينتظر أحدًا، وذلك الصباح بالذات لم يكن مناسبًا لقدوم أي زائر مهما كانت حاجته. ذهب ليفتح الباب، وفي نيته أن يصرف الطارق أيًّا كان، لكنه لما فتح وجد ابنته هاجر تقف على العتبة، وحقيبتها في يدها.

حاول إلياس أن يصلح بينهما، ومع ذلك لم ينتظر أبوها عودتها بتلك السرعة. بونجور بابا.. ثم عانقته وهو في مكانه لم يتحرك. بدت منطفئة ومنكسرة، وقد عاقبتها الظروف كثيرًا، بينما كتم هو فرحته برجوعها، وتمنَّى لو كانت في يوم آخر. استسلم عمي عيسى لواقعه بشأنها، حتى هو ارتكب حماقات مخزية ويحتاج إلى العفو، وقرر ألا يطردها من البيت كما فعل من قبل. ومن حقها أن يمنحها فرصة ثانية، ويدعو لها أن تجد ابن البلد الذي يطمئن عليها معه.

دخلت هاجر، وبقيت محافظة على تماسكها، والتزمت الصمت لمَّا وجدت رجلًا غريبًا يجلس على الأريكة بالقرب من والدتها. ألقت التحية وهي تنظر إليه، سلَّمت على أمها التي لم ينبسط وجهها لرؤيتها حتى بابتسامة متكلفة. قابلتها بجمود. تعرف هاجر بأن والدها أحنُّ عليها من والدتها وسيسامحها، أمَّا أمها فتحب إخوتها الذكور أكثر منها، وتأكدت من ذلك، في تلك اللحظات، وهي ترى نظراتها القاسية مصوبة نحوها. اقترف شقيقاها كل فظائع الدنيا ورذائلها، ومع ذلك استقبلتهما أمُّهما بوجه طلق، وسامحتهما مرة بعد أخرى، لكن عثرات الأنثى وزلاتها أكبر من الغفران.

جلست ابنتهم العائدة معهم. كانوا كلُّهم مرتبكين، تبادلوا النظرات بينهم، وكلمات قليلة غير مفهومة خارج ذلك السياق الغريب، ثم ساد الصمت من جديد. لم يلقِ كمال بالًا لهاجر في البداية، ثم انزعج من حضورها المفاجئ، وقد عطَّل بقاؤها معهم معرفته المحتملة للحقيقة. عرَّفته عليها والدتها، قالت له إنها كانت مسافرة، وبعيدة عنهم، منذ مدة طويلة. كانت عودة هاجر، وحضورها في البيت بين والديها، أمرًا طبيعيًّا، وما كان نشازًا حقًّا هو وجوده بينهم.

صبر كمال قليلًا، ثم تكلَّم مع عمي عيسى بحضور هاجر. واجهه بأسئلته المعلَّقة وبضياعه. دفع إليه كل ما في صدره مرَّة واحدة، حادًّا مثل استغاثة أو صرخة استهجان ضد ما يحدث معه، وما حدث معه غير منطقي بأي وجه. كان عميقًا كأنه يتكلم بصوت ضمير وعقل غيبتهما السنوات، يطوِّقه الباطل، وهم يخفون عنه الحقيقة. بقي الرَّجل يسمعه، وزوجته سمحت لدموعها بالنزول، رقيقة القلب أبكاها كلامه ودمعه المحتبس. ركبها الخزي، ولم ترَ نفسها بعيدة عن الحساب.

علم أنهم يعرفون، والقرار ليس قرار عمي عيسى بمفرده، هناك شركاء في الحكاية، والحقيقة ليست ملكه وحده. أقوال كتمها عمي عيسى في صدره لزمن طال فوق الحدّ، وقد انتظر هذه المواجهة منذ كانت فتيحة تحتضر، لكنَّه وجدها أصعب مما كان يظن. خانه التقدير، وقد أزف

موعد الحقيقة، وهو لم يعد قادرًا على التخفي والهروب إلى الأمام، وليس بانتظاره سوى الموت.

أصبح تكتُّمُه بلا أساس، ولم يبقَ له إلا أن يزيح ذلك السرَّ عن ضميره، ويتخفَّف من ذنب عمَّر قريبًا من ست وثلاثين سنة. الموت لا يستشير أحدًا، عاش سنوات طويلة، وجمع من الحكمة ما يكفي ليدرك حقيقة بسيطة كذلك، ولن يخسر الآخرة بخجله من أهل الدنيا. بذل نية صادقة من أجل عمل متطرف في إحسانه، كان مأخوذًا بالشباب والاندفاع، ورغب في إسعاد من أحبها، وبقيت نارها في صدره.

مشكلة الإنسان مع الحكمة قديمة، تأتي متأخرة دومًا، تصل عندما يكون تصحيح الخطيئة أصعب من اقترافها. نظر إلى زوجته يستعين بها، ويبحث عن براءة من تهمة تخزيه أكثر من ذنب الكتمان الطويل.

ركَّز كمال بصره عليه، يرجوه بحرارة أن يتكلم. لن أحقد عليك، ولا أفكِّر في الثأر من أيِّ أحد.. أنا فاشل في هذه أيضًا، فلا تخف يا عمي. بقيت هاجر تسمع بذهول دون أن تفهم شيئًا. ودمعت عينا العجوز ثانية، مشفقة عليهما، وعلى السنوات التي قضتها متواطئة وساكتة عن الحق مثل شيطانة خرساء.

لا شيء يبرر ما فعلوه، هل دبر الشيطان مكيدة بتلك الوضاعة في تاريخه الطويل؟ يجيب العقل لا، ويدفعها

القلب إلى الاعتصام برحمة الله، والرجاء فيه بنيَّتها الحسنة حين علمت بعدها بوقت طويل. كم من الآثام ارتُكبت باسمك أيتها النوايا الحسنة؟

تركه جالسًا مع العجوز وابنتها، ودخل إلى غرفته ليتكلم في الهاتف، إذ لا يملك وحده عصمة الاعتراف الأكبر في حياته. مضت دقائق، ثم عاد وتحدَّث إليه أمامهما، وعندما أحسَّ بالحرج، سحبه من يده وخرجا. أراد أن يكمل كلامه معه في الخارج، بعد بدايات اعتراف متعثر أمام زوجته وابنته، سائرًا في طريق خالية إلا من أمثاله ممن انتهت مدة صلاحيتهم في حياة عاشوها على ذلك النحو مرغمين. طاوعه كمال، ودفن نزقه واندفاعه في مكان قصي بداخله. استحضر كل ما بقي له من صبر وتهيَّأ لسماعه.

بدت له الحقيقة أقرب مما توقع - وتوقعاته تخيب دائمًا لكنَّها كانت صائبة في ذلك اليوم - وسينطلق لسان صديق خاله يحيى أو يوشك. أدرك أن يحيى لم يرسله عنده لطلب المساعدة والمأوى، بل لأنَّه يعلم كلَّ شيء هو الآخر، وشريك في إخفاء الحقيقة عنه.

عاود المطر النزول، قطرات خفيفة في البداية، ثم بغزارة سالت على إثرها الطرقات والممرات. كان يروي التراب ويطمس آثار البشر، ويغسل الأرصفة ووجه المدينة. اختبأ تحت مظلته كبيرة، ومعطفين ثقيلين، ومشيا على رصيف بارد وفارغ.. كم من السنوات انتظرا هذا الموعد؟

طلب منه ألا يحدِّثه عن أمه، عندما بدأ يسرد عليه بداياتها بصوت حزين النبرة، يناسب امرأة رحلت عن الحياة ولم ينسها القلب. عذَره، يجهل كيف بدأت الحكاية، حكايته هو، كمال رحَّال، وفتيحة صادقي هي أمه وأم الحكاية. ينظر إلى محنته من الأسفل، نظرة قصصية مستعجلة، يحتاج إلى ألف عين ليرى بها وألف أذن ليسمع، وتسرُّعه لن يعجِّل في كشف المأمول إلا في صورة مشوهة.

فتيحة أختٌ غير شقيقة لفطيمة ويحيى، أراد الحاج عثمان أن يوثِّق صلاته بتاجر كبير من الشرق، فطلب مصاهرته وتزوَّج ابنته زاهية وأنجباها. رافقته زوجته الجديدة للحج على نفقة والدها الذي كان يعتبرها وجه السعد ويتفاءل بها، ولا يغضبها أبدًا، وقال لعثمان يوم زفافها بأنه قد أعطاه مفتاحًا من مفاتيح الخير.

رفضت في البداية أن تكون زوجة ثانية، ولما ترك لها والدها الاختيار، اعتُبر الأمر منتهيًا. أبقى عثمان على أمله فيها، وترصَّدها مرة حتى خرجت من البيت، ثم تبعها إلى السوق وتقرَّب منها فصدَّته، ثم هدأت لما عرفت أنه عثمان الرجل الذي طلبها، وما زال يعتبر أن طلبه تحت النظر برغم رفضها الصريح. شيء لم تفهمه جعلها تأنس له، وعاشت معه غرامًا حقيقيًّا.

كان رجلًا استثنائيًّا، وربما جعلها فوزها به موضع حسد من الكثيرات. تودد إليها، والتقى بها في السوق مرات

كثيرة في غفلة من والدها، وقال لها إنها الثانية باعتبار الزمن، لكنها ستكون الأولى والأخيرة بحسابات القلب. اقتنعت وجدد طلبه لأبيها فتزوَّجا، واكترى لها دارًا غير بعيد عن بيت الأولاد في باب الوادي.

سمعت أم فطيمة ويحيى بما حدث متأخرة، ولم يكن لرأيها وزن وقد تم كل شيء. لم تظهر أية مقاومة أو جفاء تجاه عثمان، لكنها أصبحت شاردة طوال الوقت وتشعر بأنها مهانة. ولدت فتيحة بعد عشرة أشهر من يوم زفاف والديها، وتركتها أمها زاهية عند ضرَّتها، وذهبت إلى الحجِّ. تُوفي بعدها الحاج عثمان وزوجتاه في أوقات متقاربة، وبقيت فطيمة ويحيى، والصغيرة فتيحة، في رعاية عمِّهم.

قضت فتيحة طفولتها عند أخوالها في قسنطينة، تذهب إليهم فتمكث متنقلة بينهم، ولا تعود للعاصمة إلا بعد أشهر. عندما وصلت سن الدراسة بقيت عندهم تدرس هناك، ويحضرها أحد أخوالها لترى أختها وأخاها في العطل. لم يعنها في العاصمة أي شيء سواهما، وقبر أمها الذي لم تنقطع عن زيارته في البداية إلا مرات قليلة لظرف قاهر، ثم تباعدت زياراتها إليه عندما جاءها كمال.

كبرت وهي سيدة قرارها وحرة في نفسها، تلبس القصير، وتسافر وحدها من العاصمة إلى قسنطينة. عاشت بدايات حياة زاخرة ومبهجة، ولم يبخل عليها عمُّها بشيء من مال أبيها. وفي الأصل كان جدها وأخوالها لا يتركونها تحتاج إلى شيء، رأوا فيها صورة عن أمها حاضرة بينهم،

رغم أنف الموت الذي غيَّبها، ولم يتكلَّموا أمامها بسوء عن والدها الحاج عثمان، لكنهم اعتبروه نذير شؤم على ابنتهم الأثيرة زاهية.

لما تولى يحيى تصريف أمور الأسرة، كان المال الذي تركه والدهم قد نفد، ولم يبقَ سوى البيت. كان على الثلاثة أن يتولوا أنفسهم مبكرًا، فنزل يحيى إلى ساحة الشهداء وسوق الحرَّاش، وتاجر في كل شيء تقريبًا رغم مواهبه المحدودة في ذلك. يشتري ويبيع الأيام كلها عدا الجمعة، حيث يذهب ليصلي في مسجد الجماعة، ويتشرَّب مبادئ الصحوة المباركة، وسبل العودة إلى الإسلام الصحيح. واضطرت فتيحة أن تختصر طريق الدراسة، فدخلت لمركز للتكوين شبه الطبي، ثلاث سنوات وعُيِّنت ممرضة.

أما فطيمة فعادت ومكثت في البيت بلا مهنة، وقد نقدها حماها بعض المال نفقة طلاقها من سليمان، ولما أنفقت المبلغ كله بقيت عالة عليهما، عدا الفترات التي عملت فيها مربية أطفال لبعض أمهات الحي حتى توصلوا إلى تهيئة الطابق الأرضي من البيت، وجعلوه محلات يستفيدون من ريع كرائها للتجَّار.

ساد بينهم تعايش هشٌّ، حاول يحيى كثيرًا أن يفرض على فتيحة لمَّا شبَّت أن تلبس الحجاب، وضربها أكثر من مرة من أجل ذلك. استقوت عليه في البداية بعمِّها وبأخوالها، وهدَّدته بأن تستأجر شقة وتستقل بحياتها فيها،

ثم بعد ذلك بالزواج، حيث أصبحت في ذمة رجل وليس لأحد غيره كلمة عليها.

أحدٌ آخر وعطلة أخرى، وأرصفة مبللة وأحذية قليلة مرَّت مبكرة لتدوس عليها، مترفقة أو بعنف، قاصدة كل وجهة. تجاوزتهما امرأة تدق على البلاط بكعبها العالي، واثقة الخطوات، ومن خلفها يسير بخفَّة رجل حاد القسمات، كأنه قاضٍ سيحكم بإدانة البشرية كلها. سمع كمال من عمي عيسى أمام زوجته وابنته، وفي الطريق، شطرًا من حكاية أمه.

ليس ذلك تحديدًا ما كان يريد معرفته، هكذا قال له في البداية، ثم ما لبث أن صارت له أعين كثيرة يبصر بها، ومثلها من الآذان يلتقط بها التفاصيل الساقطة، ونبرات الصوت، ومعنى ما لم يتلفَّظ به عيسى أبدًا.

لم يكن بارعًا في التأويل، ولحسن حظِّه أن ما سمعه تطلَّب القليل منه. ومع ذلك اعتبره مجرد كلام يُقال، وسيلتقيان بمن يؤكد له ما سمع منه.. شاهد آخر، قال يخبره. أوشك أن يصدِّقه غافلًا عن أن التصديق سيكون خطأ فادحًا، ما لم يصحح، في يوم الكشف الكبير ذاك.

لم يعرف عمي عيسى من أين يبدأ. حدود الاعتراف ضيقة.. أيخبره بأن أمه كانت زوجته وماتت وهي كذلك؟ دقائق الصمت، وهما يخرجان، لم تخفف من حرجه، بيد أنه أدرك أن التأخير يضر بأعصابه، وهو رجل

يعيش بالسكري لن تبكيه السماء بسخاء، مغمور مثله ليس له من يبكيه. مُطارد بعار أب بذل النيَّة والجهد وخانته السمعة، ومجروح القلب بالعقوق، ومثقل بذنب يرجو أن يمحوه.. سيدرك إذا مرَّ عليه هذا اليوم بسلام، أنه نعمة كبرى حظي بها قبل موته.

دفع إليه كل شيء في دقيقتين، أنصت كمال، ومشى يلتفت إليه كثيرًا، ويمعن النظر في ملامحه. كان يخشى أن يكذب عليه مرة أخرى، تعلَّم أن الملامح البريئة تتقن الكذب كغيرها من الملامح. توقف عن الكلام، وخمَّن أنَّ السرَّ لم يُكشف كاملًا بعد. كان يسمع من والده، هذا ما يجب أن يستنتجه، لكن اسم والده، كما يعرف من شهادة ميلاده، هو العيد، رحَّال كمال بن رحَّال العيد، وإذن متى تزوجت أمه هذا الرجل.. عيسى لا يدري ما لقبه؟ ألم يخبروه بأن والده مات عندما كان طفلًا في العاشرة أو أكثر وأمُّه على ذمته؟ أمعن النظر فيه مرة أخرى، يطلب إثباتًا بأن أمَّه كانت زوجة له، ثمَّ تذكَّر كيف كان هذا الشيخ حزينًا على وفاة أمه، يوم دفنها، أكثر من حزنه هو عليها.

أدخل عمي عيسى يده في الجيب الداخلي لمعطفه، وأخرج جواز سفره، ثم ناوله إياه دون أن ينبس بكلمة. أمسك له المظلة، وجعل يتابعه وهو يقرأ بصوت هامس الاسم واللقب المدونين على صفحة البيانات الشخصية، وجد اسم والده ولقبه، رحَّال العيد، مولود في بوسعادة

بتاريخ... لكن الصورة كانت لعمي عيسى.

كان والده حقًّا، نظر إليه.. عليه أن يمد يديه نحوه، يفتحهما ثم يعانقه، يضمه باتساع كل سنوات الحرمان. عيسى اسم شهرته، يحدث هذا ولا أهمية له، يحتضنه ويبكيان، والمشاعر تغني عن كل إثبات آخر. يؤجِّل لومه إلى فسحة أخرى تصلح للعتاب، ويعتذر له عن غياب كان أقوى منه فيسامحه في الحين، ويتبادلان المحبة المرصودة للقاء لم يفقدا أبدًا الأمل في حدوثه يومًا. يجلسان لساعات وأيام طويلة، يستعيدان حكايات عن مناسبات افتقدا فيها بعضهما، وكيف مرت بلا طعم لأنهما كانا متباعدين.. كل ذلك ليعرف كل منهما أن حياة الآخر كانت بلا معنى من دونه. ومن المستبعد أن يشبه أبناءه الآخرين، ابنٌ يعرف حق الوالد ويقدِّره، ولن يكون عاقًّا مثلهم.

تخلَّى عنه لأن ابن الخطيئة عار يجب التستر عليه وإخفاؤه. أين زرعه في رحمها؟ رجَّح أن يكون ذلك قد تم في فندق يعاني الركود، ويسمح صاحبه بدعارة مبطنة، أو في شقة سافر مالكها، وتركها لصديقه مرتعًا للزنى، وبقع المَني والعرق تبلل أغطية أسرَّتها المتسخة من فرط الإهمال ومرور العابرات.

تبًّا لحقير مثله.. لِم لم يغضب عليه، ويهشِّم رأسه نكالًا بما فعل به وبأمه؟ تلك الشريفة الطاهرة، طالما أوصته بألا يلعب بقلوب البنات، كانت تمارس التوبة من خلاله.. كم

أن هذا العالم مخادع ومزيف!

سيبكي قليلًا، ويستغل حرمانه الطويل، ومع ذلك لن يسامحه. عليه أن يتطهَّر بعيدًا عنه إذا أراد، كان سيقول له، بأنه ليس إلهًا يُطلب منه الغفران. سيتركه فريسة للندم على أعتاب الموت، طريقه إلى الجنة ستمرُّ على قلبه، ولن يدخلها ما دام غاضبًا عليه ويرفض الصفح عنه. هرب من الخزي فطلب أن يحدِّثه في الخارج، مخدوعة تلك العجوز المسكينة في رجل يقوم ليصلي الفجر، وعلى وجهه تبدو سمات الورعين، وأبناؤه سيجدون حجة أخيرة ليتركوه للأبد، ويتخلصوا من زياراتهم له كواجب ثقيل على قلوبهم، يتناوبون على أدائه بتكاسل، ويتلاومون كلٌّ يرى الآخرين أهلًا للتقصير.

لم يجارِ محدثه ليعيشا معًا مشهد أبوة متأخرة، أو يغضب عليه مذكرًا إيَّاه بما جناه عليه، لم يشعر نحوه بشيء. تلفيق المشاعر والتدليس على قلبه، وعلى قلوب الآخرين، ليس من هواياته القديمة. بقي صامتًا لدقائق، صمتًا يتناسب مع جلال غاب عن لحظة عاشها كأنَّه قد سمع لتوِّه قصَّة شخص لا يعرفه.

انتظر عمي عيسى ثورته، ورأى أنه سيكون قاسيًا إن فكر في بدء الحساب فورًا أو الانتقام منه. لم يصدر عنه شيء ولاذ بالصمت الطويل، لا يرجو أن تستيقظ عاطفته، ولا أن يخفق له قلبه. تحرَّكا من مكانيهما، واكتفى بالسير معه مجتنبًا النظر إليه، بعد أن كان طيلة حياته يتمنَّى أن يعرف

من هو والده، ويلمح طيفه ولو نكيال عابر.

لم يستطع التفاعل معه ولو برفض صريح، واتَّهم قلبه بأنه حجر، ومليء بحقد قديم تجاهه. كان عنده غائبًا ما يزال، وبعد أن رآه وسمعه واستوثق منه، لم يرقَ حضوره حتى ليثير داخله ثورة غضب عارم كما كان ينتظر. طلب عمي عيسى من كمال أن يعودا أدراجهما فيذهبا إلى عبد القادر بن صابر زيادة في التثبت.. لا تنقصه الأدلة، أراد أن يصارحه، لكنه تعوَّد عليه غائبًا أو ميتًا، أو أن قلبه لا يصدق، ويرفض الدخول في تلك المسرحية.

ليس عاشقًا للحزن وللعواطف المتطرفة، ومع ذلك تفاجأ من جمود مشاعره نحوه، كما تفاجأ من جمودها عندما عاد ووجد أمَّه قد ماتت.. لم تتكرَّم عليه مقلتاه أيامها بدمع يدفع به الخزي أمام الآخرين وأمام خاله خاصة. لم ينتبه للمطر، ولم يرجّح، مثل الموهومين والحالمين، أن السماء قد تولت البكاء نيابة عنه، في مشهد كان من المفترض أن يكون أكثر تجنيدًا للانفعالات والدموع.

أدرك عمي عيسى، أو والده رحَّال العيد بعد المكاشفة، أنَّ قلب كمال أذكى من أن يجاري المشهد الهزيل. كان صمته في محلِّه، أعفاه من مزيد من التداعي أمامه، والكذب لا يليق برجل يتأهب للآخرة. أين يذهب بعقله ليصدق كلامه؟ رأى صورته شابًّا معلَّقة في صالون شقته، لا تشبه الصور التي بحوزته، ونبرات صوته تفضحه، ثم أين الجنون الذي اتهموه به؟

سار كمال خلف رحَّال العيد بحماس ضئيل، محبطًا وناقمًا على وجوده، والآخر يمشي واهنًا، لا يتذكَّر أنه مرَّ عليه بحياته ظرف أصعب من هذا. عاد كمال وتمنَّى على الأقل ألا يعذبه سارده أكثر، حتى لو كان محض شخصية مخترعة في خيال أحدهم، فهو لا يستحق كل هذا الذي يحدث له، أرهقه ما لم ينتظره أبدًا، وكان قبلها يتمنى لو يهرب من خيال صانعه الذي يعذِّبه بما لا يتوقعه.

ما يميِّز الإنسان فعلًا عن باقي الكائنات هو الخيال، لكن خياله ضحل، ولم يستطع أن يتمثَّل ما قد يسفر عنه ذهابهما لعبد القادر بن صابر، والاستماع لشهادته، كما فشل من قبل أن يتوقع ربع ما عاشه أثناء الأسبوع الذي قضاه في ليون.

رنَّ جرس الباب ففتحت نادية على الفور، كانت ترقب مجيئهما، بأمر من والدها، من خلف زجاج النافذة. تمعنت فيه بعينين واثقتين، وبملامح متحفزة، لكنها تبطن الهلع. كانت عين السماء حينها قد جفَّت، رافضة أن تؤدي دورًا ليس لها، ولم تشأ أن تتواطأ معهم في بناء فصول كاذبة ومفتعلة.

١٠

في صباح آخر بلا أفق استيقظ منهكًا، دون تطلُّعات، ليجتر طقوس الحياة. اختلَّت مواعيد نومه واستيقاظه، أو ازدادت اختلالًا. اخترق ضوء الشمس الستائر الخضراء الشفافة، واستقر ساطعًا تعكسه مرآة الخزانة، وصوت إغلاق نبيل للباب وراءه، مغادرًا إلى عمله، لم تمضِ عليه إلا دقائق. استطال شعر لحيته أكثر مما ينبغي، وجواربه ممزقة وبالية، الرصيد في هاتفه نضب من يومين، وبقايا كرامته تصدَّت له عندما همَّ بطلب نقود من مضيفه.

وعده قبل أن يخرج، وكان نصف نائم، بأن مشكلته ستحل قريبًا. لم يسأله كيف، منذ تهرَّب من الإجابة عندما سأله عن عمله، تعلَّم ألا يطرح عليه الأسئلة، واكتفى بوعد من رجل لم يمتحن قدرته بعد، لكن عرف بعدها أنه صاحب جيد.

وقعُ خطواته على درج السلم بلا صدى، مثل شبح، ينزل إلى مقهاه المعتاد، القهوة والسجائر تدعوانه، ولا إفطار اليوم، إذ لا يشعر برغبة في أن يدخل شيئًا إلى جوفه. سيكون كمال، لساعات طويلة أخرى، لقمة سائغة لانتظار يعمل كالصدأ، وتتآكل بفعله نفسه القلقة.

داخل الحي كانت الرطوبة وقطرات الندى، على الحيطان والسيارات والأسفلت تقاوم، ما تزال، انفلات الشمس. ركنت شاحنة خضر صغيرة يتولاها شاب

أشقر بقصة شعر عصرية، كسر السكون الصباحي بصوته الرقيق، مناديًا على بضاعته، وغير بعيد مرت امرأة تمسك بيد طفلة تمضي بها إلى الروضة، على الأغلب، تفحَّص ملامحها وعرفها. كانت هي نفسها من أمطرته بابتسامات مغرورة ومستزيدة، عندما كان يراقبها من الشرفة ويتأمل جسمها المنحوت، وهي تتلوى لتشبع نهمها من نظرات جائعة تشتهي جسدها الفوَّار، بينما زوجها غائب في مهمَّة تستغرق أسبوعين.

رأى سيارة فخمة يسوقها رجل قوي البنية حليق الشعر والذقن، وقف ينتظر شخصية مهمة من القيادات التي تسكن الحي، ليمضي بها مبجلة إلى العمل. الجزائر الرسمية مزيفة وتخفي انحرافها بطرق مكشوفة. وصاحب الكشك يجرُّ خطى ثقيلة، ثم ينحني ليفتح القفل ويرفع الستار الحديدي، محدثًا صوتًا يتحدى رتابة الصمت التي لا تلبث أن تعود من جديد.

ملتزم بمواعيد عمله كأنه في دوام رسمي. تعوَّد أن يبادله التحية بحماس، فيما يسرع هو بالانصراف من عنده تفاديًا لأي كلام معه. يتحدث في كل شيء، بلغة الخبير العارف، ويسرد على زبائنه الجدد خاصة قصصًا تنتهي كلها على نحو عجائبي يثبت بطولته وتفرده في المواقف. لم يكن أكثر من مخبر قوَّاد، إرهابي قديم تاب فمنحوه محلًّا صغيرًا ليراقب الحي ومن يرتاده من الغرباء، وقد حذره نبيل من الخوض معه.

يحدِّثه عن حالة الطقس، عن أسعار السيارات التي وصلت إلى أرقام خيالية بعدما مُنِيَ توطين صناعتها بالفشل، وأوقفت الحكومة منح تراخيص الاستيراد للوكلاء، عن التضخُّم والنقود التي أصبحت بلا قيمة ويملكها كل من هبَّ ودبَّ، عن الرئيس المريض، وعن المجتمع الذي ينهش بعضه بعضًا، والكلُّ فيه بريء ويدين الآخرين..

يريد أن يستدرجه إلى أي نقاش ليعرف عنه شيئًا، وعندما يفشل في ذلك يتكلف ابتسامات غبية، ليبدو وديعًا، مع أن ملامحه الذئبية لا تترك أي مجال للشك حول شخصيته. لم يحظَ من عنده بمعلومة واحدة، وبقي سرُّ الرجل الذي يدخل إلى محله كل صباح معلَّقًا.

يخرج ويقف عند مدخل المحل عندما يغادر الزبون الصباحي المجهول، يتظاهر بأنه يدخِّن سيجارة أو يكلِّم أحدهم في الهاتف، ويبقى ليتابعه إلى أين يذهب. أوحى النادل الشاب في المقهى لكمال بأن صاحب الكشك سأل غير مرة عن أخباره. أنت مراقب.. بنيَّة طيبة أراد أن يحذره. يتخذ كمال عادة طريقًا آخر عند العودة، ولم يتمكن ذلك القواد من معرفة عند من يقيم.

وقف على الرصيف، مقابل ساحة صغيرة تُركن فيها سيارات السكان، آملًا في فرج قريب، ولا يصدِّر مظهره وحركاته لمن يراقبه أمارات المزاج الجيد. أدخل يده في جيبه ليتأكد أن نقوده كافية لتتولى عبء فنجاني القهوة

والجرائد والسجائر، ثم فتش عن رقم خالته في هاتفه وحاول الاتصال بها، ردت عليه امرأة بصوت آلي مُحبِط ومبالغ في اعتذاره: لقد نفد رصيدكم، يُرجى... رسم ابتسامة فارغة بلا معنى وذهب إلى المقهى.

كان شرطيان قد دخلا إلى المقهى، وشربا القهوة وهما واقفان، وتبادلا الكلام لدقائق مع رجل كان يجلس إلى طاولة عند المدخل. استرق إليه نظرات متقطعة، لا شيء فيه لافت أو مريب. مُخبر متخفٍّ، قرر في نفسه مع ذلك، ثم لم يلبث أن صعد إلى الشقة.

قد لا يكون هناك من يبحث عنه، وخاله لم يبلغ الشرطة، ليس متأكدًا من شيء، ونبيل لم يرد الخوض معه في أي تفاصيل وتركه في عماه. في اليوم التالي تخلى عن النزول، قضى نهارًا طويلًا بلا قهوة ولا سجائر، وأصابه صداع جهنمي.

رغب في آسيا. تذكَّر كل لقاءاتهما معًا، متداخلة دون اعتبار للزمن، ما دام قادرًا على التلاعب به، اختزاله، وتكثيفه في لحظة واحدة. لحظة يكون فيها هو سيد زمنه الخالي من الانتظار. جعل يضم مشاهد وكلامًا ومناوشات وقبلات لا يجمع بينها موعد واحد. يفكك مخزونه العاطفي، الحسي والمعنوي، ثم يعيد تركيبه كما يحلو له، بعبثية في الغالب، لكن خيطًا ناظمًا يحكم ذلك أحيانًا. كان يحب حرارتها الزائدة، وكيف تغلبه بعنفوانها دائمًا، وتتجدد في كل مرة على نحو يدهشه.

زعم أمامها عندما سألته «شحال تحبني؟» بأنه يحبها بطريقة لا يمكن شرحها، وبما لا يمكنه إثبات قدْرِه. تظاهرت بتصديقه، تعرف أنَّ ما يحمله لها في قلبه دون ذلك بكثير، وبقايا من حبِّه لمريم عالقة في أعماقه، وذلك ما يمنعه من الارتباط بها. بعد شغف البدايات، صارحها بعد تردُّد، وهو يخشى من خسارتها، بأن رُبع حبٍّ لا يبني بيتًا. ثارت في وجهه، رغم أنَّ ما سمعته منه لم يشكِّل لها أيَّ مفاجأة. تعامت عن ذلك دائمًا، ومع ذلك جرحتها الحقيقة التي أخرجها إلى العلن مع أنه لم يكن مضطرًّا لذلك.

بكت في تلك الليلة، وأرسلت له على هاتفه رسالة غاضبة، نعتته فيها بالوغد الذي لا يستحق امرأة مثلها. قاطعته بعدها لشهر كامل متجاهلة كل محاولاته وتعقبه لها في طريقها إلى الصيدلية، ثم عادت في الأخير لتقول له إنه قدرها على أيِّ حال، ولا أحد بإمكانه أن ينجو من قدره.

طلبها لتأتي إليه في غرفته - ليقهر وحدته - فلم تستجب. أرادها أن تقول له، كما تعوَّد منها دائمًا، وهي تعبِّر له عن فائض حبها له: «نحبك بزااااف» مهما كنت. كل ما ظهر له هو وجهها، وطيف ابتسامة على شفتيها كان أقسى عليه من ألف دمعة لو سكبتها على خديها. لم يفهم أكانت حزينة من أجله أم ترثي حالها معه.

كان أقصر لقاء تم بينهما منذ عرفها، مع أن اللحظات

التي استغرقها كانت في وطأتها بطول الأبدية. لم يتبادلا خلاله أي كلام، لم يسمع منها «نحبك بزااااف»، ولم تثُر عليه وتشتمه كأنه أكثر مخلوق لا تطيقه في هذا العالم. انقبض قلبه بعدما انصرفت وعاد وحيدًا كما كان.

أرسلها عند خالته لتستقصي له ما يحدث هناك في غيابه، وليفهم ما ينوون فعله، وكيف تسير الأمور إن كانت تسير فعلًا. تعرفها فطيمة من قبل، زارتهم عدة مرات، وتوقفت عن ذلك بعدما طلب منها خاله صراحة ألا تأتي. أوَّلَ انقطاعها عنه بأنها حاقدة عليه، أو كانت تجاريه بالكلام فقط عندما وعدته بأنها ستفعل، ولن تذهب إليها، لأنه رفض اقتراحها بالعيش معه وربما مخافة أن يهدر خاله كرامتها. وخشي أن تكون خالته حاقدة عليه هي الأخرى، ضرب شقيقها وأهانه، ويصعب عليها أن تسامحه، الأخ لا يعوض، ومن هو في النهاية؟

لم تتصل به من يومها إلا مرة واحدة، وقطعت المكالمة فجأة، اتصل بها عشرات المرات وهاتفها مغلق، ثم اتصل بآسيا فلم ترد هي الأخرى. ما يمنعها عنه؟ أجابته في المساء برسالة نصية.. «اعذرني.. لديَّ ظروف»، دون تحية ولا سؤال عن حاله وكيف يعيش. بعد أن أهلكه الانتظار، وقلة الحيلة، وهوانه على كل شيء.. اكتفت حبيبته بأن ترد عليه بثلاث كلمات لا تغني عنه شيئًا.

أكمل شهرًا كاملًا شبه محبوس، متخفيًا كاللص، وما كان هذا ليخطر له حتى في أسوأ كوابيسه ولكنه حدث،

وها هو بليد كحجر، كحشرة تائهة ومعطوبة، ينتظر، والخلاص بعيد. يريد بعد ذلك أن يفك عقدة حياته، ويجد أباه حيًّا أو ميتًا، وأن يعرف من هو ولماذا تخلى عنه.

دخل واستحمَّ، صبَّ ماءً كثيرًا فوق بدنه، ثم ذهب واستلقى على السرير. كانت غرفته تشهد على فوضاه وعشوائيته، لكن الوقت ما زال مبكرًا جدًّا ليرتبها قبل عودة نبيل لكيلا يخجل منه إذا رآها كذلك. غشيته السكينة، ووقع تحت تأثير شعور رائع بالاستسلام.

استرخى تمامًا وتولَّت الذاكرة تزويده بذخيرة تتغذى عليها غريزة تحفزت بداخله فجأة، وفي ليل إسطنبول لم يكن ليخطئ وجهته، مقهى ملحق بمطعم ينسى اسمه دائمًا، مجاور لمقر بنك كبير، في الجهة الجنوبية لساحة «أكسراي» المليئة بالبشر وبالحكايات، ويبعد عشر دقائق عن الفندق الذي ينزل فيه.

يدخل متثاقلًا في حدود التاسعة. يجيل بصره في أرجاء المقهى ذي الواجهة الزجاجية، والكراسي شبه الفاخرة، والطاولات المستطيلة المكسوة بأغطية يتناوب عليها الأحمر والأسود في رسومات مختلفة. بالمقهى دفء يحبُّ برد الخارج، عند مخرج محطة المترو مرَّ بلاجئات عربيات، يتسولن ثمن عشاء أو لقمة مرَّة.. عار العالم يترجل على الأرصفة جائعًا في ليل شتاء لا يرحم.

سوكة، اختصارًا لسكينة، صغيرة لكنها مكتنزة التجربة،

ولن تبني آمالها على رجل طائر يمزق قلبها ثم يرحل. رأته فحوَّلت بصرها عنه بسرعة، كأنها لا تكترث له، تخشى أن ينتبه صاحب المقهى لعلاقتهما الفتية. حذرها، هي وزميلتها الأخرى التي تعمل في الصباح، بأنه سيطردهما فورًا، إن لاحظ أنهما تعبثان مع الرجال في مكان العمل.

يكبرها سنًّا، غامض ومستنفد، ويدخن في اليوم ثلاثة أضعاف ما تدخنه هي. تنهشه الكآبة والسواد وروحه قلقة، ولا يبدو أنه يصلح للحب أو حتى لصداقة عابرة، لكنها ارتاحت له ولا تريد أن تترك قلبها قاحلًا. رفقة طيبة كما قالت، ويجب أن تؤوِّل نظراته إليها تأويلًا حسنًا، إعجابًا حقيقيًّا لا نزوة جنس. الحياة صعبة دائمًا، وفي الغربة تكون أصعب، وعليها أن تحترس، كثيرون يطمعون في نهش لحمها ليرحلوا بعدها غير عابئين بشيء.

جذابة بسمرتها الخفيفة واستواء عودها، جميلة إلى حدٍّ ما، جميلة ومغرية، ولن ينعتها بذلك فقط لسان ينطق من وحي عين جائعة. يعتبر نفسه خبيرًا في تقدير حسن النساء، ويرينه مختلفًا، وتجتذبهن مسحة حزن تعلو ملامحه ولا يبوح بسرِّه لأحد. خرجت معه مرتين، وكان ظريفًا، وهي تفهم قصده وليست غافلة عنه. استحسنت مجاملاته وجرأته التي لا تنم عنها ملامحه، وتريده أن يصطادها بنعومة، لا أن يأكلها مثل كلب جائع.

لن ينال منها شيئًا، هكذا قررت، حذرتها أمها، عندما كانت وأختها قادمتين إلى إسطنبول، إذا أخطأتِ فانسي

أمك وأهلك ولا تعودي. أصبحت تفهم أن زيغها ثمنه أن تبقى وحيدة بلا أهل. تريد أن تعرف لِمَ جاء، وكم سيبقى، ولِمَ حزنه أعمق من حزن أي أحد عرفته من قبل، وإلى أن تعرف، ستجاريه داخل دائرة من التنازلات الضيقة كي تأنس برجل يهتم بها، وتحتمي بوجوده من غربة تفتك ببدايات العمر الزاهر.

يجلس في مكانه المعتاد بالقرب منها، يطاوعها في الصمت القسري، وهي على مقربة نبض منه، يبتسم لها أحيانًا، أو يبادلها غمزًا يؤوله كل منهما كما يرضى خاطره. يرتشف الشاي، وينتشي بدخان الشيشة الذي بدأ يتعود عليه أخيرًا، وهي واقفة عند رأس المشرب، تضع سماعات الهاتف في أذنيها ترقب وقت الانصراف. تعمل حتى منتصف الليل، وبالكاد تكفيها أجرتها ثمنًا لمأوى مناسب عثرت عليه بمعجزة.

سألته عندما جلس بعدما ألقت عليه تحية باردة جديرة برجل تراه لأول مرة: أتريد شايًا مغربيًّا أم عراقيًّا؟ تكرر السؤال كلما جاء إليها، تحب أن يرد عليها مشددًا على الحروف، ومحدقًا في عينيها الجميلتين بسوادهما العميق: مغربي طبعًا.

تسري إليه منها طاقة غير مفهومة، يمتلئ بها جو المقهى، تجعلهما أقرب لبعضهما مما هما عليه في الواقع، تتبدد المسافة بين جسديهما لتصبح صفرية أو تكاد. يرتفعان قليلًا ويخفُّ جسد كل منهما، ثم يقفان شبه متحدين على

أرض رخوة. تحب جسدها بحضوره، تحتمل وطأته، وتشكر القدر الذي ساقها إليه أو ساقه إليها، ثم تتذكر وصايا الوالدة، وتعود لتقول في نفسها، وهي تنظر جهته وترمي إليه بابتسامة مواربة، إنه خطيئة جديرة بأن تُرتكب. ينظر إليها مطولًا، وأحيانًا بصورة متقطعة، بينما لا تكف هي عن الحركة، تنتقل بين الطاولات رغم أن الزبائن قليلون.

تشعر بنظراته تخترق كيانها. أصبحت كلها أعينًا ترصد لهفته عليها، دون أن تبالغ في الالتفات إليه. يعاند عقلها اندفاعها المكبوت إليه، تبطئ حركتها عندما تمر بجانب طاولته. حب مباغت، يهدد ترتيباتها النفسية، وثقل اللحظة يضغط على خمسة أشهر من الصبر والتصالح مع الحرمان.. يا له من خطر تحبُّ أن تتعرض له! تعقد المقارنات، جنة اللحظة أم جحيم التبعات؟

لم تشعر بالتعب لكنها جلست في مكانها، تستلذ حيرتها. أخذت أنفاسًا عميقة، وعيناها تتسعان ثم تذبلان، ورأت نفسها توشك أن تنهزم، وهي ما تزال تجرد خساراتها المتوقعة بأقل حدٍّ من الصرامة والتخوُّف، ومن صميم قلبها أحبَّت أن ترجوه ليبقى، لكي تكون اللحظة العابرة مكسبًا أبديًّا.

في زاوية أخرى من المقهى جلس خليط من العرب، مغاربة وجزائريين وعراقيين وسوريين، رجال ونساء، يتبادلون أخبارهم اليومية وأخبار الأهل البعيدين. كل له قصَّته ومحنته، النساء خاصَّة أشد ضعفًا وأقل حيلة،

وكثيرات يعشن على منوال سوكة. لقمة العيش صعبة والفرص ضئيلة، واللاجئون الفارُّون من الحرب، ومن تنظيم الدولة الإسلامية، مستعدون لعمل أي شيء بأجر زهيد جدًّا، وأرباب العمل جشعون.

كانت إحداهن مختصَّة، تعمل في مختبر كبير للتحاليل الطبية، ودفعها زوجها إلى الجحيم. هكذا قالت. قبلت بابن عمها، رغم أنه بطَّال ويدمن لعب الورق والدومينو، وفي الأخير طمع في نصيبها في إرث مشترك بينهما مع آخرين. وكان الخلاص أن تخلَّت له عن الولدين ـ أكبرهما ستة عشر عامًا ـ والوظيفة والطابق الأرضي من البيت، مقابل أن يطلِّقها. وعندما قيل لها إنها تنازلت كثيرًا، وتخلت عن كل شيء تقريبًا، ردَّت بأن الحرية تساوي ذلك وأكثر.

رآها كمال تتحادث مع طليقها ثم تقطع المحادثة، توقفت وعبرت عيناها، ما الخطب.. أأهلك بخير؟ فأجابته باكية: الكلب العاطل يبتزني لأتخلَّى له عن ذهبي مقابل أن تبقى صورتي نقية عند الطفلين، وأتمكَّن من رؤيتهما.

يأتي جزائريون إلى تركيا، أخبروه، للسياحة أو للتجارة، وبعضهم يبحث عن طريق للمرور إلى أوروبا، ولا يستقرون للعمل فيها إلا نادرًا. التقى هو عند الظهر، عندما هبط في محطَّة ترمواي السلطان أحمد، بأساتذة وطلبة دكتوراه من وهران، أتوا في تربص علمي على نفقة الجامعة.

صلَّى كثيرًا من أجل أن يشفي الله أمَّه. لم يكن مؤمنًا في

أعماقه بإمكانية شفائها. تأجيل موتها، أو تخفيف الألم.. هذا ما كان يراه ممكنًا وقريبًا من تفكيره ساعة الدُّعاء. لا يساعد جامع السلطان أحمد على الخشوع وإدراك السكينة. كثرة الزوَّار والسيَّاح، والنساء السافرات بداخله، ترسل الأجواء الإيمانية إلى دور عبادة أخرى أكثر هدوءًا وقدسية من مسجد تحوَّل إلى مزار سياحي.

تصاعد بينهم نقاش بين الجدِّ والهزل عن السياسة العربية، عن فلسطين، وعن كرة القدم وفخر العرب الحقيقي، تبادلوا نُكَتًا بذيئة، ثم وصلوا أخيرًا إلى التفوق الفني، وأغاني الرَّاي التي حدَّثهم كثيرًا عنها. اكتفى قبل ذلك بالاستماع أغلب الوقت، ولم يتدخل كثيرًا ولم يتعصَّب.

كبر وهو يعتبر الشَّاب خالد شيئًا خاصًّا، كأنَّه كان يغني له وحده، وارتبطت بعض عواطفه البكر بأغانيه فحفظ أغلبها. يفضِّل أغانيه القديمة أكثر، «الراي الخاثر» كما يسميه عشاق فن الراي، الذي يعبِّر عن هوى جامح. فن يتجاوز الضوابط والأعراف، ليظهر الحب مثل حقيقة يجب أن تُعلن، خليعة إذا لزم الأمر، وعارية حيث تجهر الهوامش بفلسفتها في الجنس والمرأة والخمر والحياة. لكنه يدافع عن الشاب خالد، أو خالد حاج إبراهيم، عندما كان جزائريًّا ويشبهنا أكثر، يقول لمن يجادله، ويرى أنه فقد بصمته وهويته. العولمة طمست كلَّ معالم الأصالة، وعامة كل ما يختلف مع النمط الغربي في العيش والفن. وما يحسب لخالد أنه حاول تطوير فنِّه.

انطلق يتحدث، واستغربت سوكة كيف ألقى تحفظه وراء ظهره، عن أن خالد لا يمكن سوى أن يكون تجربة جزائرية فريدة حتى في الجزائر، الغرب الجزائري تحديدًا. وشرح أسبابًا تاريخية واجتماعية صنعت فن «الراي». قاده حماسه في الحديث عنه إلى أن طلبوا منه أن يؤدي له أغنية يحبها، لكنه رفض.

قرأ لهم مطالع أغنيات قديمة للشاب خالد وسنة صدور كلٍّ منها. يتذكر له دائمًا «نوصّي العاشق جامي يربّي الكبدة» مع أنه لم يأخذ بتلك الوصية، وربّى كبد العشق فسحقته مريم بلا اكتراث، و«أنا المغبون سبابي نتيا، أنا منك ما نبراش» يعترف لمحبوبته بوطأة الحب ويسلّي قلبه بالكلمات، ويخبرها بأنه لن يُشفى منها أبدًا، والذي «عنده شي محنة يصبر لعذابها».. ثم تلا عليهم أبياتًا طويلة من القصيدة الشعبية الرائعة «بختة» للشيخ عبد القادر الخالدي المعسكري وشرحها لهم.

عندما نزل يحيى إرهابيًّا تائبًا من الجبل، وجد أن غرفة كمال مليئة بأشرطة الكاسيت، مجموعة متنوعة من أغاني الراي، للشاب خالد، مامي، ولشيوخ وشيخات الراي القديم. عمد إليها في غيابه وحطمها، بقيت غصة في قلبه رغم أنه جمع مرة أخرى من الوسائط والمواقع أغلب ما فقده في ذاكرة إلكترونية. لكن جزءًا من تاريخه الشخصي، وزمنًا شكّل وجدانه بعمق، ضاع وصار دون أثر مادي يشهد عليه.

اندمج في الحديث عن الشاب خالد وفن الرَّاي، وهم يتجاوبون معه، ومرَّ الوقت خفيفًا عليه. غادر بعضهم المقهى، وتحوَّل الباقون للجلوس على طاولات أخرى، للحديث عن أشياء أكثر خصوصية، وبقي وحده كما يحب دائمًا. نسي محنة أمِّه قليلًا، ثم عاد ليدعو في سرِّه بأن يتأخر الموت في المجيء إليها.

من المرات القليلة التي أحس فيها بأن انتظار شيء ما لا يرهقه، راوده شغف بمرافقة سوكة، وقد صارت بديعة أكثر كلما أوغل في السهر والنظر إليها، وقرر أن ينهي مشواره القصير معها في الحد الأدنى بقبلة وداع غير معلن.

وفي الغد عندما يتوجه للمطار سيكلمها ليعلمها برحيله، دون أن يتمادى في العاطفة، أو يتوقع أن تأسى على فراقه. قليلون بقوا في المقهى، وسوكة تبادله كلمات مقتضبة بين حين وآخر، أو ترد على رسائله النصية على هاتفها، إذا خافت من أن يلاحظ رب عملها كلامها الكثير معه، عندما يراجع ما سجلته كاميرا المقهى لتلك الليلة.

راودته رغبة في معانقتها، ليس اشتهاء، أو ليس اشتهاء فقط، بل نزعة تملُّك حسي وامتلاء. خواؤه قديم، حالة مزمنة لا تبرحه، وترياقه كان امرأة تتنقل من الباب إلى المطبخ في المطعم المجاور ورجوعًا إلى المشرب. لِم لا يقوم ويعانقها ليستلذ جسدها الغض، يسأل نفسه، وتنظر إليه مبتسمة، وتلتقط نظراته المشتهية، وتسمع هذيانه المكظوم.

تتحدى بنظرة دلال من سبقنها إليه، وهن غائبات لا يسعهن أن يرفعن تحديًا مماثلًا، لكن بإمكان قلبه أن يحكم. يطَّلع هو على قلبه، فيجد النتيجة متعادلة مع رجحان كفتها بحكم حضورها الطاغي وظروفه النفسية، وهي سمراء، صار يراها بديعة مع اقتراب منتصف ذلك الليل الذي كان يبدو أطول من أن يأتي منتصفه بتلك السرعة.

للنسيان طريق أخرى اكتشفها ساعة التقى بها على ظهر مركب، كان يجوب مضيق البوسفور، في رحلة دامت ساعتين. كان وحيدًا كما هو دائمًا، وكان يوم عطلتها. أجمل الحب ما أنجبته المصادفة.. لا ليس حبًّا، آسيا وسابقاتها، جميعهن أعطينه بحضورهن وكلامهن شعورًا مشابهًا، يتأرجح بين سقف الحب وعتبة الاهتمام الطارئ.

تخلى عن الشيشة وأشعل سيجارة. وفي باب المقهى وقف كهل ضاقت بدلته عن استيعاب لحمه المتكدس عشوائيًّا بداخلها. قدَّم خطوة تلتها خطوات أخرى متباطئة، ونظره مصوب نحو سوكة يتابعها بعينين شرهتين. قامته أقرب إلى القِصر، وبطنه بارز، ظهر كأنه متكور في كرسيه عندما جلس، غير بعيد عنه، إلى طاولة على شماله قرب الباب.

جال ببصره في الأرجاء مظهرًا تبرُّمه، ثم طلب منها شايًا فأحضرته، ابتعدت عنه خطوات فناداها من جديد. انحنت إليه نصف انحناءة، كان ينظر إليه بإمعان، وهو يسألها عنه، قبل أن تجيبه بلا تردد: خطيبي. تبدلت

ملامحه وازدادت نظراته حدة، وسمعه يسألها مستغربًا: «شلون ومتى؟» أرخى ربطة عنقه، واعتدل في جلسته أكثر من مرة، وفضح توتره مسحة مهابة كاذبة حاول أن يضفيها على نفسه. ثم لم يلبث أن انصرف معكرًا، وعادت الرتابة، فيما كانت رائحة الدخان تتسيد الجو ما تزال.

جاءت أختها إكرام، أخبرته من قبل أنها تنتظرها، تعرَّف عليها من يومين، تقول لمن لا يعرفها إن اسمها ماريا وإن أمَّها برازيلية. عندما انتصف الليل وقرروا الخروج، تجنبوا الباب الرئيسي، وطلبوا من الطباخ المصري أن يفتح لهم الباب الخلفي للمطعم المفضي إلى موقف سيارات التاكسي، عبر زقاق ضيق وغير مضاء بما يكفي، لكنه آمن. رفض الطباخ في البداية مخالفة التعليمات والسماح لهم بالخروج من هناك، ثم وافق لمَّا شرحتا له أن خطرًا يتهدَّدهما والشاب المسكين.

قالت سوكة لكمال إنَّ الرجل كان يحمل مسدسًا.. يأتي أحيانًا إلى المقهى ويعطيني بقشيشًا بالدولارات وأنا آخذه، أين المشكلة؟ وهذا لا يعني أنه امتلكني، وعرض عليَّ مرة مرافقته إلى شقته فرفضت. بقي صامتًا وهو يتبعهما، لم يكن من محبي المغامرة، وحده شغفه بها ساقه لأن يتبع سوكة بلا تفكير في ذلك الظلام البارد.

استقلوا سيارة أجرة جماعية والتصق بها، تلامست رجلاهما، وتسرَّب إليه منها دفء مختلف. توجه بهم السائق إلى «تقسيم» ليقضوا بقية الليل في ملهى للطبقة

الرفيعة، كما أخبرته ضاحكة، ثم أضافت بفخر: هذا ملهى كل رواده أوروبيون يا الدزيري.

لم يرقه الملهى الموعود، فمضتا به إلى آخر غير بعيد عنه، ملهى «إسكي بيروت»، صغير ومميز، وأقل صخبًا وجنونًا. أمسى باله معلقًا بالهاتف، ينظر إليه بين حين وآخر. في عمق القاعة الصغيرة، بالقرب من عازف كان وموسيقاه نشازًا في ذلك المكان وبين مرتاديه، قام شاب جزائري وأمسك الميكروفون، وشرع في تقليد خالد، أدَّى أغنية «عيشة»، وبدا مبالِغًا بنظر كمال في تقدير صوته وموهبته.

في أثناء ذلك جلس خلف كمال شاب جعل يبتسم له ويكرر التلطف معه، وينظر إليه نظرات تعوزها البراءة. ظنَّ في البداية أنه يقصد سوكة أو إكرام، وابتسمت هي من سذاجته وأسرَّت له في أذنه: يريد أن يبيع مخدرات، أو يستغفلنا ويسرق أي شيء.. هذا ما كان ينقصه. فكر في أن يصفعه ثم تراجع، كان سيبدو متخلِّفًا إن فعل ذلك، تجاهله ففقد الآخر الأمل وابتعد. الصخب، الموسيقى العالية المتداخلة مع الكلام والضحك، دخان السجائر والحركة وجميع الهراء الذي يستشري في تلك السهرات، جنون الهاربين من كل شيء بالخارج وكأس كبيرة من بيرة متوسطة الجودة، ذلك كله لم يمحُ من ذهنه شيئًا.

كانت سوكة تضع أحمر فاقعًا كقربان للفتنة، وتلبس سروالًا أسود يلمع ويضيق بمؤخرتها المتكورة تحت معطف علقته، عندما دخلت، على مشجب خلفها في الجدار،

لمن أراد أن يستكشف الخصر وما حوله.. تجملت قبل خروجهم من المقهى. لمن تجملت؟ لمن تتجمل أرملة الحب والغربة؟

لفَّ يده حول خصرها، تنازل معقول، قالت له عيناها، على ألا يتمادى أكثر، وأجابها بنظرة مغلفة بالغموض أن ليس سوى اكتشاف لطريق سالكة أخرى للظفر بفسحة يتيح لقلبه أن يلعق جراحه فيها بألم أخف.

نظر إلى هاتفه كل الدقائق التي تلت ذلك، وإكرام غارقة في الاستماع لأغنية فلامينكو، ومبتهجة وهي تردِّد كلماتها. أغنية إسبانية، أنهت رقصتها للتو ورجعت لمقعدها، أليست لاتينية الأم؟ بشعرها الكستنائي وبشرتها القمحية، شفتاها الرقيقتان تغريان بالتقبيل، وتبدو كذبتها قابلة للتصديق. ستعكف على اكتساب مزيد من الكلمات والعبارات الإسبانية، لتكتمل شخصيتها الجديدة، وتنال فرصًا أفضل للعمل أو بين السياح، لا أحد يصدق فتاة عربية بائسة لم تكمل تعليمها. هكذا أسرَّت له عندما بقيا ينتظران في المقهى انتهاء دوام شقيقتها.

تريد أن تجمع المال وتتعلم اللغات، طموحها أن تكون مضيفة طيران، الأماني مشروعة وليس له أن يحاكم رغباتها، لكنه كان سيقول لها إن ذلك بعيد جدًّا، بعيد بما لا يمكن لاندفاعها الطفولي أن يقدِّره، وأن حبل كذبها قصير لكنه يكفي لخنق شخصيتها الجديدة، إذ لغة أمها البرازيلية المزعومة من المفترض أن تكون البرتغالية وليست

الإسبانية. أحجم عن ذلك، وقال لها ـ منتشيًا بدخان سيجارته ـ لِمَ لا. أحس أنه سيكون مجرمًا إن أحبط من عزيمتها، وأجهض أملها، بعد ما سمعها تحدثه بذلك الاندفاع كله. الزمن كفيل بتبديد الأوهام.

سيغادر غدًا، ويعود ليرى أمَّه، ستكون بخير، لن تكون إلا بخير حتى يراها، ثم ليفعل الله ما يشاء. لن يراوغه القدر، ظل يحاول الاتصال بها وبخالته فلم يتلقَّ منهما أي رد، وعاد إلى مكانه لتغمره الضوضاء، ويهرب من توقعاته السيئة. لا بد أنها نائمة والأمور عادية، لو كانت غير ذلك لاتصلوا به ولأبلغوه.. جعل يُمنِّي نفسه مملوءًا بالخوف والقلق، وينسى قليلًا عندما يتمادى في الاندماج مع سوكة التي تهتز على كرسيها بفعل البيرة، والموسيقى والليل، وشحنة جسد يفور.

سألته قبل دخولهم عن سبب شروده فلم يجبها بشيء، خشي أن يسقط من عينها إن أخبرها أنه ترك أمه على سرير الموت، وجاء ليقضي الليالي الممتعة في الملاهي والحانات.. كانت شديدة الارتباط بأمها كما أخبرته، ولن تتفهم حالته أو تعذره. يتكرر الهروب الفاشل، يعود ويتذكر أن خالته اتصلت به في المساء ورد عليها، كان الصوت ضعيفًا ومشوشًا فلم يسمع شيئًا، والمكالمة بينهما استغرقت بضع ثوانٍ ثم انقطعت. حاول بعدها مباشرة معاودة الاتصال مرارًا ولم يفلح.

أما خاله فلم يتصل به منذ جاء إلى تركيا، ولا هو حاول

أن يستعلم منه عن جديد أمه. ظرفٌ يستدعي التنازل لولا أن كبرياءه وبقية أمل في الله بشأنها منعاه بقوة من التواصل معه. بلغ الجفاء بينهما مداه، ومصيبة الموت لن تردها مكالمة منه.

تمادت ساعة ما بعد منتصف الليل لتكون أطول مما ينبغي، الوقت يتآمر ضد من يتصدى للانتظار. قرر التحرر من حالته تلك ولم يستطع، لكنه تناسى أمر الهاتف ودسه في جيبه. فضَّل البقاء أطول وقت ممكن ثم ليذهب للنوم لئلا يبقى فريسة للقلق في انتظار الصباح.

وقف معهما عند الباب، على رصيف شارع يعج ببشر من كل لون ومكان في مدينة مصابة بالأرق، وراوده توقُّعٌ قوي بأنها ليلة فارقة. اشترى علبة سجائر وعاد إليهما. تعبت سوكة ولم تعجبها السهرة كثيرًا، «بقيت في خاطرك برك».. قالت له، ثمَّ أخذت علبة السجائر منه لتشعل واحدة. شكر لها مرافقتها له، وبقاءها من أجله فقط، بابتسامة متكلفة، وردَّت إكرام بأنهما يجب ألا يندما على شيء، إذ لن تكون آخر مرة في حياتهما يدخلان فيها إلى ملهى، وقرر هو أنها سهرة عادية.

وراءهما رأى الشاب، الذي كان يفتعل الموهبة والإحساس المرهف، ومعه آخر يراقبانهم. اقترب منهم وألقى التحية، ثم اقترح أن يترافقوا جميعًا ويكملوا السهرة في مكان آخر. تفادى كمال أية مواجهة معه وهو يرفض عرضه، مجيبًا إياه بـ: لا.. شكرًا، سنذهب لأننا تعبنا.

كيف له أن يصطاد فتاتين دفعة واحدة؟ تساءل الوغد في نفسه، أو هكذا قرأ هو في عينيه.

كره الشاب خالد لأن أمثال ذلك الصفيق من عديمي الموهبة يحاولون تقليده. بدا وقحًا وهو يحاول أن يتجاوزه، ويوجِّه بعدها الكلام مباشرة إلى إكرام. استنفر الحيوان الذي يرقد بداخله، واستعد أن يعاقبه كما يجب، ويفرغ فيه قلقه وعصبيته، لكن الآخر ذهب رفقة صاحبه لما لم يجد أي تجاوب من قِبلها.

أوصلتاه إلى محطة التاكسي، وعادتا، طلبت إكرام أن تكمل السهرة وستبقى شقيقتها معها. تركتهما شقيقتها قليلًا، فبقي مع سوكة وحدهما، لكنه لم يطبع على خدها قبلة الوداع غير المعلن، ولم تمنحها له بمحض حدس غاب عنها لحظتها كما قدَّر، أو أحبَّت أن تتغابى. وانتهى لقاؤهما دون حدٍّ أدنى من أيِّ شيء.

«تهلاي في روحك آ الزينة»..

قال لها كمن يهتم لأمرها حقًّا، ويريدها أن تعتني بنفسها جيِّدًا.

أخبرها حدسها بأنها لن تراه مجددًا، ورسمت على شفتيها ابتسامة للأسف أو للسخرية، ثم قالت له:

ـ إن شاء الله.. أيا سلام يا الدزيري الظريف.

انطلق سائق سيارة التاكسي، تأمله قليلًا، كان يعتمر

قبعة صوفية وله شارب كث، ويشبه مُخبرًا متخفيًا. وبادر إلى الهاتف فكتب لسوكة رسالة قصيرة، وبعثها، ارتجل كلماتها كيفما اتفق، أخبرها برحيله في مساء الغد، وبسعادته بأن تعرَّف عليها، وبأنه سيشتاق لها.

كانت عيناه تجولان في ما يقابله من وراء زجاج السيارة، وشِماله تتفقد علبة السجائر في جيب جاكيته الجلدي الأسود فلا تجدها، أراد أن يخمد قلقه بواحدة منها عندما ينزل. تذكر أن سوكة لم تعدها إليه بعدما أخذتها منه عند مدخل إسكي بيروت، وفي الوقت الذي لعنها فيه، رنَّ هاتفه معلنًا عن دخول رسالة جديدة. أثَّرت كلماته فيها فردت عليه بسرعة. المصادفة، التخاطر، التقاء الأهواء أو تحالف الأقدار في ساعة بعينها.. بعض ذلك أو كله.

«فتيحة ماتت..».

هذا ما جاء في رسالة وصلته من خاله يحيى. قرأها ودمعت عيناه، فيما احتفظت ملامحه بجمود لافت، كأنها عائدة لوجه مصاب بالشلل. حزن على والدته، وعلى سرٍّ أبت إلا أن تدفنه معها، وتأسَّف على رحيلها المبكر. ومثل امرأة لم يخنها حدسها يومًا، قرأت سوكة رسالته بلا اهتمام، وتبادلت مع أختها ابتسامات متهكمة بشأنه، ثم بقيت لاهية عنه بأمل آخر أكثر حضورًا ووثوقًا. أمَّا هو فكان مجرد عابر، وهي تعرف أن العابرين لا يهبون الحب ولا الحياة.

أوصله السائق إلى حيث عليه أن يترجل، بعدما مرَّ بالسيارة فوق جسر يربط بين ما تباعد من ضفتي المدينة المنشطرة، وعلى الجانبين، تأمل أضواء كثيرة تلمع على صفحة البحر لتصنع مرورًا جديدًا، وتحل مكان أخرى، ثم لا تلبث أن تتلاشى بدورها فاقدة للقوة والسطوع.

١١

دخل كمال، وانتظر شهادة عبد القادر بن صابر، الشَّيخ الآخر الحامل للسرِّ الذي انكشف في صباحه الملتبس. سينظر إليه بشفقة ظاهرة وازدراء خفي، ويمارس أمامه حكمته بأثر رجعي، ويكون عليه هو أن يشعر بخزي لا حدود له، كأنه المسؤول عن كونه ابنًا مشكوكًا في نسبه، ويُظهر للجميع ما في قلبه من ضعف، وقد ملأته شروخ المنبت الهجين.

تَحفَّز للردِّ عليه إذا أخطأ بكلمة واحدة في حقه، هو أو غيره، حتى دون قصد. شعر في تلك الساعة أنه ممتلئ بعدوانية ضدهم جميعًا، ومستعد ليصب كلَّ الغضب الذي كظمه في حياته على الشيخين اللئيمين اللذين تلاعبا به منذ جاء إليهما.

جلس رحَّال العيد، المعروف بعيسى البوسعادي، بالقرب من عبد القادر بن صابر، عرضت عليه نادية القهوة أو أن يتناول أيَّ شيء، لأنه بدا لها منهكًا جدًّا وقد يسقط مغشيًّا عليه في أي وقت، فشكرها ورفض. واتَّخذت لها مكانًا تقف فيه لتسمع. رأت كمال حانقًا على كلِّ شيء، وملامحه متحفزة، وهو يحاول أن يتصنَّع الهدوء، بينما تتأجج النَّار بداخله. اقترحت عليه قهوة هو الآخر، فطلب منها ألَّا تتعب نفسها، إذ سينصرف بعد قليل.

رفض الجلوس، وبقي ثابتًا محايد الملامح في الظاهر،

وهو يحدِّق فيه مليًّا. وبادله عبد القادر بن صابر النظرات من وراء عدساته السميكة. اقتربت نادية من والدها، وضعت يدها على كتفه تؤازر شيخوخته، وتعينه على الموقف واسترجاع شجاعة كانت متأصِّلة فيه، وأودت بها السنوات.

بقي كمال هادئًا، كما عرفته منذ أول يوم جاء يسأل فيه عن أب وجده منذ دقائق، ولم يقتنع به. متفهِّم، سيجد الأعذار للجميع بعد أن ينطفئ غضبه، ظلَّت ترجو ذلك، فكَّرت أنه متعلِّم وناضج بما يكفي، ويعلم مثل ما تعلم هي أن النَّفس لها نوازعها الشريرة ساعة الغضب أو الطمع كما أخبرها والدها دومًا، وأنَّ النَّاس ليسوا ملائكة طاهرين دائمًا، ويحدث أن تشوب سيرة الإنسان أفعال شيطانية.

قال لها محسن إن ما قاموا به جريمة، وفيه قسوة بالغة، ولو كان مكان كمال لما سامحهم أبدًا، عادت فتذكَّرت ما سمعته منه نخافت أكثر، لن يكون أكثر طيبة وتفهُّما من محسن. أخبرت كمال عندما كانا عند الباب بأن قلب والدها ضعيف، وطلبت منه بنبرة متوسِّلة أن يصبر ويكون ليِّنًا معه، فزاد ذلك من شحنة الغضب والتعاسة بداخله. وقوفه متحفِّزًا ضاعف من قلقها، ولم تفهم نظرات عمي عيسى إليها، ولم تطمئنها ملامحه المنهكة، كأنها عائدة لمريض يواجه موتًا وشيكًا، بعدما استنفده داء لا شفاء منه.

الحياة لا تطالع الناس بالمسرَّات دائمًا، ويجب أن يصارحوه بكلِّ شيء. سيتألم كمال وقد يثور ويسبُّ، ثمَّ

يهجرهم فيخرج ولا يعود، لكنَّه سيدرك أن هذا هو اليوم الأخير لضياعه، سيتحرر، ولن ترهقه بعدُ ظلال ماضيهم الثقيل على حياته. شجَّع كل منهما نفسه بهذا الكلام في مواجهته. تشاورا طويلًا بشأنه، ولم يجدا من الحكمة أن يصدماه بالحقيقة في أول يوم.

حاولا أن يشعراه بالألفة وهو بينهم خلال الأيام الماضية، وبحبِّهما واهتمامهما، وربَّحا بعد التعرُّف عليه ألا يكون متهوِّرًا في حق أي أحد أو في حق نفسه، لكنَّهما تذكَّرا حادثة عراكه مع خاله فخدَّت من انطباعهما الواثق فيه، وتريَّثا يومين آخرين.

اعتدل عبد القادر في جلسته. كان مرتبكًا والكلام يهرب منه، يريد أن يتخلَّص من نبرة تبرير أو اعتذار يعرف أنها ستصاحب كلماته.. نصَّب محكمة لضميره قبل أن يتفوَّه بكلمة واحدة. ماذا عساه يقول له؟ لا معنى لأي مبرِّر يقدمه. لم يكن مجرد شاهد إثبات، كما قال صاحبه لكمال قبل قليل، ومع ذلك أراد أن يتكلَّم كشاهد في البداية، خشي ثورته، وفهمت ابنته وصديقه بأنه لا يريدهما أن يقاطعاه.

بدأ يكلِّمه عن أمِّه، وجعل يكيل لها مديحًا رآها تستحقه، بصوت مسترسل حينًا، ومتقطع في أحيان أخرى.

أرسلته أمُّه عنده ليخبره عن والده كل ما يعرفه عنه، وها هو، مثل صاحبه البوسعادي قبل قليل، يسترجع أمامه

سيرتها في مقتطفات مبعثرة بقدر ما تسمح به الذاكرة والموقف. حثَّه يحيى غير مرَّة بأن يذهب عند عمي عيسى ليساعده، وضاع بينهما، كان صبره قليلًا في تلك الساعة ولم ينتظر أن يسمع كلامًا مهمًّا منه. انتهى شغفه بمعرفة ما يخفونه عنه إلى غضب، وتعاسة، ورغبة قوية في الانتقام لنفسه.

مرَّت دقيقة صمت ثقيلة، عزم فيها كمال على المغادرة، وقدَّر ألَّا حاجة له بمعرفة أي شيء. فقد السيطرة على أعصابه، كما فقد الثقة في الجميع، وقد تكون هذه خدعة أخرى لإسكاته أو لتضليله في اتجاه آخر. سيذكر له على الأغلب وقائع لا أحد يستطيع تكذيبها، ويشخِّص له الظروف التي دفعت لأن يأتي للحياة بتلك الطريقة الهوجاء، ثم مبررات والده في الاختفاء والتخلِّي عنه، ولن ينسى بأن يذكِّره بشرف أمِّه وأبيه ـ الرجل الجالس بجانبه، مشدود العينين إلى الخواء، مثل المحكوم عليه بالموت.

درست فتيحة في قسنطينة، ثم أتت إلى العاصمة، ودخلت إلى مركز لتكوين الممرضات. وبدأت العمل وعمرها لم يتجاوز واحدًا وعشرين عامًا. أصبحت يتيمة في سن مبكرة، ربَّاها أخوالها، وعادت لتعيش مع يحيى وفطيمة، أخويها غير الشقيقين. أتتها الأشياء سابقة لأوانها دومًا، إذ تزوجت مبكرًا أيضًا، وقبلت بأول رجل طلبها تقريبًا. كان ذلك سي العيد.. قال مشيرًا إليه.

أصيب بضيق تنفُّس، أثناء عودته من البلاد إلى فرنسا،

فأُدخل إلى المستشفى، وتعرَّف عليها، ثم أيام قليلة وبُني أملهما في بعضهما البعض. أرادت أن تسافر. كانت فتيحة في سنِّها فتاة مندفعة للحياة، وأرهقها يحي بالتزامه الديني، وهي لم تتعوَّد عند أخوالها على احتشام أرغمها عليه وقدَّرت أنه يبالغ فيه. أحبَّت أن تلبس وتعيش حياتها بانطلاق، بينما أراد أخوها تقييدها. سطوة يحي، وصدامها شبه اليومي معه، زرعا بينهما بذور شقاق لا يُعالج.

كان الزواج طريقها الوحيد للهروب من تسلُّط يحي، وعندما جاءتها الفرصة وطلبها مهاجر في فرنسا، اعتبرته خلاصًا إلهيًّا وسبيلًا ممهدة لتملك عصمتها إن طاوعها القدر. تقدَّم إليها رجل ريفي الطِّباع، حريص أو بخيل إلى حدٍّ ما، ويكبرها بسنوات كثيرة، لكنَّه غير متطلِّب، بسيط ومعجب بها كثيرًا. تمنَّت أن تتوافق معه، وإن حاول التضييق عليها هجرته. في فرنسا الأمور مختلفة ولن تعدم وسيلة للعيش بسلام.

تضاعفت أسئلة كمال عمَّا وقع بينهما لاحقًا، بينما كان يخبره أنها لم تسافر رفقة زوجها للبقاء معه أبدًا، تزوَّجها بفاتحة قرأها صديق قديم له، جاء من بوسعادة ليطمئن عليه في المستشفى، كان رجلًا بسيطًا يعلِّم القرآن للصِّبية مقابل بعض البيض والدقيق من أهاليهم، ونقود شحيحة من شيخ زاوية يدَّعي كرامات فائقة.

سمع بمرضه وجاء يعوده، فوجده يريد أن يرتبط بها، وقد تمَّ الزَّواج دون خطبة ولا مراسم تقليدية، وشهد على عقد

قرانهما ممرِّض وسائق سيارة إسعاف. كان يحيى هو وليها، وجدها موافقة فلم يعارضها، مع أنه استغرب كيف كانت منقادة لرجل غير مناسب لها تمامًا، ولا يمكن لأحد أن يصدِّق ادِّعاءها بأنَّها تحبُّه.

لم تسافر معه للعيش هنا، وظل يتردَّد عليها في الجزائر كلَّما سمحت له الظُّروف والمال، عاش مرهقًا بحبِّ امرأة فتنته، كانت تصغره سنًّا، وتفوق زوجته الأولى جمالًا وحضورًا. كفَّ يحيى عن محاصرتها وتخلَّى عن دور الواعظ معها، واهتمَّ بالتجارة أكثر، وارتضت هي من الحياة بذلك العيش، وابتعدت عن كونها امرأة تتصرَّف وفق قناعاتها، ولا تبالي برأيه، لحكمة أدركتها متأخرة كما قالت، أو لأنَّ يحيى نجح في استمالتها قليلًا.

سافرت معه مرَّة واحدة، في سنة زواجهما الأولى، وقضت شهرًا كاملًا في ليون. كان الانسجام بينهما منعدمًا، فرجعت بلا عودة، لكنَّها احترمت حبَّه لها وموقفه الرجولي معها، وأبقت على ارتباطها به. رفضت السفر بحجة أنها لا تريد المغامرة بوظيفتها والابتعاد عن أخويها وقبر أمها من أجل المجهول. سألها يحيى بعد ذلك كثيرًا لماذا لا تنفصل عنه، ما دام زواجهما صوريًّا ولا يحقق مقاصد الشريعة منه، فأجابته بأنها لن تفعل ما لم يطلب زوجها ذلك بنفسه.

ظل وضعهما كذلك لسنوات، ولم يتح لها أن تنجب منه أبدًا. تعبت من أمومتها المحتبسة، وعاشت نوبات اكتئاب

حادة حتى جئتها أنت. ومع ذلك رفضت أن تكون حرة لما أعطاها حرية الاختيار، ميَّزها وفاء نادر للبشر والأشياء، فتمسَّكت به، لكنَّها أخلت مسؤوليته تجاهها، وقبلت منه بالقليل في سنوات لاحقة قبل أن يصبح زواجهما من الماضي، برغم أنه لم يطلقها وبقيت على ذمَّته حتى توفيت.

لن يكون في مقدور أحد أن ينبش في سيرة امرأة ميتة، حكاية قديمة، والزمن يطمس كل شيء. وما علمه زوجها عمي عيسى لاحقًا، أنها صدَّقت طبيبًا، يكبرها بخمسة عشر عامًا، ثم مرَّت في إحدى ليالي مناوبتها بفورة جسد، فمنحته عزة نهديها وأفقدها شرفها. عاشت رعبًا حقيقيًّا، وخشيت من يحيي خاصَّة إن أثارت الفضيحة، دفعت وحدها ثمن فورة جسدها رعبًا وقلقًا، ثم جاءها طلب عمي عيسى للزواج منها كالفرج الإلهي، خوفها من يحيي جعلها تبدي موافقتها دون تفكير، وتبع ذلك ندم لا حدَّ له، وبقيت وفية للرجل الذي سترها وأخفى ما يجب ألا يعلمه أحد.

الإثم يولِّد العار، والعار عقوبة مزمنة وتحيُّز أخلاقي ضد المذنب حتى لو أعلن عن توبته، أما المرأة فلا توبة لها، ومتى أذنبت وسمع النَّاس بذنبها، سوف تصبح حينها آثمة أبدية، يتبعها عارها إلى الموت.

«ولم يتح لها أن تنجب منه أبدًا».. كرَّر كمال ذلك هامسًا. جملة السرِّ في الحكاية كلها كما توقع.

سارع عمي عيسى ليحذره من سوء الظن بها، بلهجة بعيدة عن انهزامه أمامه منذ خرجا في الصباح، سكت وبقي صدى العبارة قاطعة الدلالة في سمعه وعقله، ثم خرج بسؤال ملحٍّ دون أن يشعر به، وهو ينظر في عينَي عمي عيسى، طرحه بغضب وإصرار:

- من يكون أبي أنا إذن، وكيف سُجِّلتُ باسمك أنت؟

لم يستطع عبد القادر بن صابر أن يضيف أيَّ شيء آخر أكثر مما قاله، تحجَّرت الكلمات في فمه، وأبت الخروج. عندما وصل إلى حيث يجب أن يصارحه، بكل شيء، خانته شجاعة متواضعة تحلى بها في البداية. تولى عمي عيسى الإفشاء الأخير، وراح يستظهر تاريخًا لم يغب عن ذاكرته قط.

كان عبد القادر صديقي ويعرف القصة، وقد رأى فتيحة مرتين أو ثلاثًا.. بحظت عينا كمال لما سمع ذلك، فاحتدَّ عليه عيسى: مرة أخرى قلت لك لا تتسرع، حذره بلهجة حادة ثم واصل: أقصد نعرفه ويعرفنا.

سافر مرة إلى الجزائر ليزور أهله، ورافقته زوجته، وكانت حبلى. أحب أن يأخذها إلى هناك، لترى حياة الناس، وتتقرب من ماضيه أكثر، وتجوَّلا في الحي الذي قضت فيه جزءًا من حياتها لما كانت تعيش فيه مع والديها قبل الاستقلال، ثم زارا مطبعة والدتها التي اعتبرتها الحكومة من الأملاك الشاغرة التي تركها «الأقدام

السوداء»، ومنحت حقَّ استغلالها لإحدى التعاونيات.

كانا على خلاف دائم، وظهر أنهما قد تسرَّعا في الارتباط، جاءها الطلق ووضعت حملها في شهره السابع. سكت عمي عيسى بعدها قليلًا، بينما فتح كمال عينيه على اتساعهما، والتفت إلى عبد القادر بن صابر فأخفض بصره.. تجدَّد خلافهما أثناء الزيارة، وهدَّدته بحرمانه من الطفل فور عودتهم إلى فرنسا، وأنت تعرف القانون هنا، أضاف يوضح له، لم تكن تلك آخر مشكلة، الخلافات والطلاق يحدثان دائمًا، لكنه خشي أن تربيه على دينها، لذا عندما وضعته في المستشفى قيل لها إنه ولد ميتًا.

لم يكن كمال بحاجة إلى أن يشرحا له أنَّ فتيحة صادقي، الممرضة في المستشفى، أخذت الطفل وأصبح لها. وكل ذلك لم يكن وليد المصادفة، أو بلا تخطيط، بل كان عملًا مدبَّرًا شارك فيه ثلاثتهم وربما آخرون.

وقع على كرسي بقربه، أخذ نفسًا عميقًا وشرب كوب ماء، ثمَّ أشعل سيجارة باذلًا أقصى ما يمكنه من أجل ألا يصرخ في وجوههم ووجه العالم كله، أو يبطش بهما معًا. احمرَّ وجهه، وانتابته حمى مباغتة، ونظر طويلًا إلى عبد القادر بن صابر أبيه الحقيقي. كان كل شيء يخبره بذلك لما زاره، كيف كان بذلك الغباء كلِّه؟! الصور.. صمت الرجل وهروبه من أسئلته عن أبيه.. التشابه الموجود بينهما.. استئناس نادية إليه، وهي تحاول أن تجرِّب معه شعور الأخوة لأول مرة.

صوَّب نظره إليه وسأله بعصبية:

- بمن تزوجت وأنجبتني.. من كانت أمي؟

ظل لسان والده معقودًا، نزع نظارته، ووضعها بجانبه على الأريكة متحللًا من واجب الرد. أجابته نادية بسرعة:

- أخبرتك.. تزوَّج من ابنة مدام إيمانويل صاحبة المطبعة.

أحنى رأسه ثم خبَّأ وجهه بالكامل بين يديه. عجز عن استيعاب ربع ما سمع منهم. كان مشهدًا أصعب من أن يصدقه. أكملت تخبره بما لا يُبرر بالنسبة له، لكنه ضروري في تقديرها لكيلا يبقى أيٌّ من أسئلته معلقًا، إذ قرر الشيخان عندما تحادثا في الصباح أن ينهيا الأمر، ثم أمامه كلُّ الوقت ليستوعب ويقرر ما يناسبه.

كانت تعمل في مكتبة فتحتها والدتها، بعد أن غادرت الجزائر عند الاستقلال، وعادت إلى فرنسا مرة أخرى. تجدَّد بينها وبين أبي ودٌّ قديم فتحابَّا، وقد أُعجبت بمناضل كبير، وجمعتهما مظلة اليسار. تزوجا ثم - بمرور الوقت وتشبُّع الغرائز - أفسح الحب الطريق للسياسة والتاريخ، تمامًا بعد فوات الأوان، ليكتشف كل منهما الآخر جيدًا. العاطفة تكون أحيانًا شبيهة بالعمى.

حدَّثني أبي عن سهرة جمعتهما وكانت فاصلة. لم تكن خلافاتهما شخصية تعنيهما مباشرة، وأظنُّ أنهما أحبَّا

بعضهما البعض كثيرًا. تجادلا طويلًا، توارى الحب أو اختفى عندما بدأ النقاش يتصاعد، من جهته بدت له مؤمنة بخلفيتها أكثر من اليسار الذي افترض أنه يجمعه بزوجته. تحدَّثا عن العنف الثوري، واختطاف الطائرات، وسياسة الاغتيالات ضد القيادات الطليعية خاصة. كان يحبها، فتمسك بها طامعًا في أن تغير رأيها. وكان من الممكن جدًّا بالطبع أن يتجاوزا خلافهما ما دام لا يعنيهما أسريًّا.

شاركت بعدها في مظاهرة منددة بحوادث اختطاف الطائرات، لم يؤيد أبي يومًا ترويع الآمنين، لكنه اعتبرها وسيلة للفت انتباه العالم للقضية. انفصلا لأسبوعين، شاركت خلالها في مظاهرة أخرى، وظهر أن الطريق أمام زواجهما مسدود. وصل بهما العناد إلى القطيعة، مع أنَّ الأمر ليس جوهريًّا في علاقتهما.

ليس للغائب من يدافع عنه، وكان واضحًا لكمال نبرة التبرير، وجلب التعاطف في كلام نادية عن موقف والدها. أكملت تقول له إنَّ أباها أدرك أن التعايش بينهما أضحى صعبًا، بعدما نحت زوجته نحو العنصرية والتطرف، وكان انفصالهما حتميًّا، جزائرية المولد وتشبه إلى حدٍّ ما، لكن تناقضها أربكه. انقطع عن الاتصال بها حتى اتصلت به أمها، مدام إيمانويل، تهنئه بحمل ابنتها. واجهها أبي، فأنكرت في البداية، ثم اعترفت بأنها حامل منه. تجنَّب الصدام معها في الفترة التي تلت ذلك، ثم استدرجها

للجزائر، وحدث ما حدث.

لم تكن مثل والدتها.. واصلت تقول لكمال، الذي كان يسمعها، وصخب العالم بداخله.. خشي أبي عليك منها، كان يريدك مسلمًا، وهذا لم يكن ممكنًا لو أنك عشت معها.. كان والدنا رجلًا مجاهدًا وله تاريخه، ربما وقع في حبها أو لا أدري، والدولة في الجزائر لم تكن لتتسامح معه. خطيئة مثل هذه ما كانت لتمرَّ دون عواقب.. أثق في تقديرك يا أخي.

لا أحد يعلم كيف ظهر له ذلك حلًّا ممكنًا، لكنَّه جعل زوجته ترافقه إلى الجزائر ليقنعها بأن تعتنق الإسلام، وهو نفسه كان يعاني من حالة تيه عقائدي وتناقضات لا حدَّ لها. لم يكن ممكنًا أن يسجل الطفل المنتظر باسمه من امرأة أخرى، لأنها كانت ستطلب تحقيقًا إن علمت بالأمر. حقق معه الأمن في الجزائر بعدها عندما راجعوا السجلات، وعرفوا خلفيتها، كاد يدفع الثمن لولا توسُّط بعض رفاقه القدامى من أعضاء ودادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا.

عانى والدنا كثيرًا يا كمال، لا تكن قاسيًا عليه. نظرت إلى أبيها ـ وكان يبكي في صمت ـ ثم ختمت تقول:

ـ لقد دفع ثمن اختياراته.. كن متسامحًا، ليس من العدل أن تجعله يدفع الثمن حتى اليوم الأخير في حياته.

لم يكن كل صراخ الإنسانية منذ وجدت يكفيه ليعبر

عما في صدره. تقدم وأمسك عبد القادر بن صابر من ثيابه وهزه بقوة، وقد وقف بصعوبة، وكان مستعدًّا للحساب. قال له وهو يرمقه بنظرات مملوءة بالشر:

- من كان الشيطان.. أأنتم أم ابنة الـ..؟! تبًّا لك.. هل تشعر بأنك أقرب إلى الله الآن؟ إن اصطناع البطولة لم يجعل منك بطلًا، ولو كنت تستحقها لاعترف لك التاريخ بها.. ستبقى منسيًّا إلا من أصدقائك المرضى بأنانيتهم من أمثالك.

حاولت نادية أن تخلِّصه من قبضته فلم تستطع، بينما استسلم له والده في ساعة عقاب، كانت ثمرة فصل مطوي من جريمة غير معلنة. أشار كمال بيده لعمي عيسى وواصل يخاطب عبد القادر بن صابر:

لا غرابة في أن يفعل ابن عميل مثله ما فعل، لكن كيف طاوعتهما، هو وزوجته الآثمة.. بل كيف طاوعك قلبك؟ هل تدرك حجم الجريمة التي ارتكبتها في حقي وحق أمي باسم الأخلاق والدين؟ أفعلت كل هذا بابنك فقط من أجل إفساد سعادتها وكسر عنادها؟

حين همَّ كمال بالمغادرة تقدَّم منه أبوه خطوتين، وشدَّه من ذراعه. طوَّقه واحتضنه، بينما أسدل هو يديه إلى الأسفل وسلَّم إليه نفسه. لم يحمل حقدًا عليه، وكان أثر المفاجأة والصَّدمة من فداحة الجرم أقوى عليه من كونه كان ضحيَّة له، لكنَّه فكر كم عليه أن يتجشم عناء كبيرًا إذا

أرغم قلبه على أن يحبه. لم يحقق له أمنية يعرف أنها كانت في تلك الساعة أعز ما يرغب فيه قبل الموت، ولم يراع فيه شفقته عليه، وسنَّه الطاعنة، بأن يُسمعه كلمة أبي من عنده لأول مرة في حياته.

شعر تجاهه بأشياء خاصة لم يفهمها، أراد أن يقول له إنه كان، قبل أن يراه، يحبُّه وعلى يقين بأنَّه حيٌّ.. أما في تلك اللحظة فلم يفهم شيئًا. لم يجد أيَّ طائل من الكلام، أو أراد أن يعاقبه، تخلى عنه وأذنب في حق أمِّه، وعندما كبر لم يسأل عنه. سمعه يستعطفه، ويطلب منه أن يسامحه، ويعلن أمامه توبة متأخرة جدًّا.

عندما خرج من عنده، لحقت به نادية تبكي، وتدعوه أن يبقى. عانقته لثوانٍ وفهمها كما أحبت أن يفهمها عندما عانقته أول مرة. ابتسمت دامعة العينين وتوسَّلت إليه أن يسامح، ويكون في حياتها، وليستمر وجود أبيها من خلاله كما تتمنى. تخشى أن يموت والدها فتبقى بلا أهل، وقد تُوفيت أمها وهي عفية لا تشكو من شيء، كأنَّما ماتت فقط لتبقى هي دون أمٍّ.

تزوَّج والدها بأمِّها بعد تجربة قاسية عاشها مع ابنة مدام إيمانويل، التي لا يحب حتى أن يذكر اسمها على لسانه، وأنجبتها قبل سنِّ اليأس بقليل، فحملت لهما كثيرًا من الأمل. لم يتجاوب كمال مع توسُّلاتها ولم يدفعها عنه، وأعطى كلٌّ منهما الآخر الحق فيما يقوم به، أما والدها فسقط على أريكته، وظل صديقه عيسى البوسعادي

يواسيه، وإن تعاظم مثله إحساسه بالإثم، وعار الخطيئة التي لا تُمحى.

حطَّت طائرته في مطار هواري بومدين على الحادية عشرة صباحًا. كان ممتنًّا لأول نهار يطلع عليه وهو يعرف نفسه، أو يعرف أنه الرجل الذي ما كان ليكونه لولا تواطؤ الأقدار والناس. أنهى إجراءات الخروج وجرَّ حقيبته.

في القاعة الفسيحة أبطأ من مشيته، ونظر يتأمل مراهقة كانت تجلس بجانبه في الطائرة، فاتنة وتستحق الاغتصاب على نظراتها الفاسقة إليه، لكن لن يكون من هنا فصاعدًا رجلًا يستهويه كل لحم نيئ يجده على الطريق. تذكر عبد القادر بن صابر، والده باعتبار ما كان بالأمس، وكيف ذبح زوجته، أمه هو، مع ابنها بسكين واحدة، تزوج من شابة أغراه بها لحمها البض، ثم جعل منها، بعد أن صحا من نزوته، شيطانًا يلعنه ويعلّق عليه آثامه.

دفع فارق تذكرة الطائرة بآخر مبلغ بقي لديه، وقدَّم موعد رجوعه. اعتذر لمدام كاترين رافو، وزعم لها أن أمورًا حدثت في البلاد تستوجب رجوعه. اعتبر ألا شيء يدعوه للبقاء، ووجوده مع والده في بلد واحد سيكون مأساة بالنسبة إليه، يجب أن يمرَّ بعض الوقت حتى يستوعب ويرى إن كان يستطيع أن يسامحه.

لاقى فطيمة بملامح جامدة، أراد أن يهاجمها لأنها غلَّبت

أنانيتها وكتمت نصف الحقيقة، ولو تُرك لها الأمر لبقي جاهلًا ومعذبًا طوال حياته. حرَّفت وصية أمه بالتبنِّي التي أرادت هي الأخرى أن تتوب، وعند الموت فقط تذكرت جنايتها بأن حرمت أمًّا وطفلها من بعضهما، وأرسلته ليسافر لتهرب من نظرته إليها إذا أخبرته بالحقيقة. أوصت بأن يقال له كل شيء.. يشفع لها ذلك عنده لكن ليس إلى درجة الصفح الكامل.

لم تتوسَّل إليه، من كانت خالته إلى وقت قريب، لتناشده البقاء. كان يأسها منه أقوى من أي رجاء. ولم تشأ أن تغالب، عبثًا، هاجسًا ظل يسكنها دومًا بأن الله سيسلبه منها في النهاية، برغم إيمانها الكبير بعكس ذلك. اكتفت بأن تطلب منه أن يزورها متى ما استطاع، ليكون في متناول قلبها وعواطفها التي عاشت عقودًا تحج إليه وأمنياتها التي كانت دومًا تنعقد حوله.

أخبرها يحيى بأنه قد يبيع البيت، ولن يجرؤ كمال على طلب نصيب لا يستحقه. أحضر ابنته أخيرًا لتعيش معه، ولم يحسم أمره بشأن بيع البيت الذي يساوي ثمنه ثروة، اقترح عليه جماعة الإخوة أن يقرضوه مالًا بضمان ماضيه الجهادي، أو مشاركتهم بالمحلات التي في الطابق الأرضي إذا أحب. لم تبالِ، أضحت كل خسارة هيِّنة بعد فقدانها له، وستعتصم بإيمانها وتنتظر الموت.

توقعت فطيمة من كمال انتقامًا كبيرًا يصل حدَّ الهجران الكامل. عبَّر لها عن امتنانه الكبير لها من أجل كل ما

قدمته له طوال حياته، فأحسَّت بأنه يشكرها إيذانًا بنهاية الخدمة، ثم أخبرها بأنه يفكر في تدبير وظيفة في شركة بالجنوب. لم تركن كثيرًا إلى وعده لها بأنه لن ينساها، وسيتذكرها دائمًا بمكالمة أو زيارة. وجدت عمرها ينصرم على هباء خالص، ومع ذلك كرهت أن تطعم قلبها وهمًا جديدًا.

أحضرته فتيحة قطعة لحم، وقالت إنها سوف تتبنَّاه، بدعوى أنه ولد في المستشفى وليس له أحد. فرحت فطيمة بالطفل، بينما رفض يحيى في البداية ذلك مطلقًا، وتساءل أمامها عن أيِّ شؤم ينتظره إذا ربَّى لقيطًا في بيتهم الطاهر. حلفت له فتيحة على المصحف بأنَّ الطفل ليس لقيطًا، وبأنَّه ثمرة زواج حقيقي، فعاد وذكَّرها بأن التبنِّي محرَّم شرعًا، فجادلته بأنَّ ذلك من جانب قانوني فقط لتسهل عليه الدراسة ويعيش حياة طبيعية. وعدت الله أمامهما وأمام زوجها ـ عمي عيسى ـ بأن تعيده لأبويه إذا تغيَّرت ظروفهما أو عادا للبحث عنه، فاستسلم يحيى لإرادتها مكرهًا، لمَّا رأى زوجها يوافقها الرأي، وليس بيده أن يجبرهما على ترك ذلك.

بعد نحو سنتين جاء أبوه عبد القادر بن صابر ليراه، وطلب أن يأخذه، فتمسكت به فتيحة، وجثت تبكي وتقبِّل قدميه ليتركه لها، واعدة إيَّاه بأن تحفظ ابنه في عينيها وقلبها. نزل عند رغبتها، تعاطفًا مع دموعها، وخوفًا من زوجته الجديدة التي لم يخبرها أبدًا بأن له ابنًا يعيش

في البلاد، ورجح أنها لن تصدقه. وحتى دون ذلك، لاقى تمسكها بالصغير هوى في نفسه، لأسباب لم يفصح عنها أبدًا ويصعب تخمينها. كانت فترات خصامه مع زوجته السابقة، ابنة مدام إيمانويل، تطول والانقطاع بينهما يدوم أحيانًا لأسابيع، ولا يعتبرها فوق شبهة الخيانة ولو بدافع الانتقام أو تحت ضغط الرغبة. لم يكن متأكدًا من سلوكها بعيدًا عنه، وبقيت شكوكه حول نسب الطفل قائمة في ذهنه لم تتبدد.

صار بعدها يأتي ليراه كل سنة، ثم كل سنتين، يسأل عنه عيسى البوسعادي فيخبره بأنه بأفضل حال، تعاقبت سنوات، وتوقف عن المجيء لرؤيته لما وُلدت عنده نادية. شبَّ الطفل وتبيَّن لفطيمة ويحيى حقيقة ما وقع، وكيف صار كمال واحدًا منهم. أحسَّ يحيى بأنه تعرَّض للخديعة، لكن لم تكن لانتفاضته المتأخرة ضد أخته، ومقاطعته إياها، لتغير من الأمر شيئًا. رسميًّا كمال هو ابن رحال العيد وفتيحة صادقي، وكل ادِّعاء بغير ذلك ليس سوى افتراء وتزييف.

ولمَّا كبر كمال وأصبح رجلًا، عاد عبد القادر بن صابر لرؤيته من بعيد، ثمَّ سنتان أيضًا وانقطع عنه مخافة التعلُّق به وانكشاف كل شيء. لكن تلك أسباب واهية كان يسوقها ليحيى فلا يصدِّقه، وتسمعها فتيحة وفطيمة فيقع كلامه بردًا وسلامًا على قلبيهما، عندما تطمئنان إلى بقاء كمال معهما للأبد.

لم يشعر عبد القادر بن صابر بعاطفة قوية أبدًا تجاه ابنه، وكان يذكّره كلما رآه بتقلباته وعشوائيته ونفسيته الحدّية، وبذنبه في حقه وحق أمه التي تُوفيت بعد فترة قصيرة من ولادته بسبب تعفُّن في الرحم. كان إنجابه منها غلطة ندم عليها دائمًا. وندم بعدها أكثر على أنه لم يتركه لها، لتربيه كيفما شاءت، خير من أن يبقى نهبًا للشك، وللسؤال «هل هو ابني أم ابن رجل آخر؟»، يأكله طوال حياته.

أمَّا كمال فخدَّثه قلبه، المنهك والحزين، بعد عودته بأنَّه سيعيش عذابًا آخر. تجاوزُ حياة مزيفة بالكامل ليس سهلًا، فالحقيقة النَّاصعة قاتلة أيضًا. كان ابن تجربة خاطئة وصلت لنهايتها، ثقُل عليه أن يأتي يوم آخر يواجهه منتحَلًا في ماضٍ لم يقرر فيه شيئًا، سيظل جائعًا ومهزومًا إلى الأبد.. أصبح شبيهًا بالريح لا أرض لها. عاش شطر حياته مختطفًا، ومقامه الآن منذور للعبور. هو صنيعة المشيئة، لكنه مشوه ويتيم.

ستغيِّر الحقيقة حياته، ويتوجب عليه أن يخترع نفسه مجددًا، ويكون منسلخًا عن العمر السابق بأكمله. ولادة أخرى هي حتمية بالنسبة إليه، بعد أن اكتشف أنه ليس نفسه، وأن الآخرين لن يبقوا كما عرفهم، وستتغير منزلة كل واحد منهم في قلبه.

نظر إلى يحيى صادقي، خاله السابق، جالسًا في المقعد الأمامي لسيارة استأجرها، وجاء مع أخته لاستقباله. شكره لأنَّه تحمَّل مشقة الطريق من أجله، وقد اتَّضح كل

شيء، واعترف له بأنه كان كريمًا معه دومًا. سينال من حقده النصيب الأقل، لولا طمعه في البيت لما عرف شيئًا.

قرر ألا يكره أحدًا في المستقبل أو يحبه، بوصلة القلب مخادعة، والأقدار تسخر من الجميع. طلبت منه شقيقته ألا يخبره كل شيء، فناورها وأرسله عند عمي عيسى. سينسى أنه ناداه باللقيط مرتين، صار لقبًا في غير مكانه، ولن يتاح له أن ينعته به مجددًا.

يحتاج إلى فترة نقاهة، قرر والصَّمت يسود السيارة، عاد محمَّلًا بالوهن وقلة الجدوى، وقد كان متوعكًا وموبوءًا حتى وقت قريب بالمعالم المضللة. وعندما يصل معهما إلى البيت الذي عاش فيه طوال حياته سيدخل إليه مثل أي ضيف، وتطعمه فطيمة ـ التي بقيت تمسك بيده وهو ينظر إلى جانب الطريق ـ كأنَّه عابر سبيل ممَّن قضت حياتها تعطف عليهم.

تمنَّى أن يكون بعدها خفيفًا كحلم أُجهض، ومثل ثمرة مهجنة بلا طعم ولا رائحة، لن يعبأ بشيء ولن يسوق الرجاء في ركابه. التطرف في نسيان سيرة ملفقة ترياق مفيد له، سيجعله يتعافى ويعتبر نفسه الوحيد القادر على صنع ميلاده الجديد.

كانت نادية تكلِّمه ويرد عليها ببرود في البداية، لم يشأ أن يحمِّلها إثم رجل على مشارف الرحيل، طالما رأى في عينيها

بريقًا ملائكيًّا لم يستطع تجاهله. هي صورة والدهما قبل أن يشوه نفسه. أدركت منذ أخبرها والدها بسرِّه الكبير عندما علم بمرض فتيحة أنها ستنال نصيبها من تبعات الخطيئة القديمة فور وفاة والدها أو رحيل فتيحة صادقي والدة كمال بالتبني أو بالاختطاف. كتبت تقول له كم أنَّ ضميرها عذبها من أجله، وأنها حملت له مشاعر أخوة قبل أن تراه. أخبرته بأن زفافها إلى محسن قريب، وتودُّ لو يحضر ويكون معها لتسعد به حدًّا من السعادة لا يمكن أن يتخيله.

ذهب كمال إلى نبيل، وانتظره حتى فرغ من أداء صلاة الجمعة، والتقى به. بقي في عنقه دَين تجاهه، وسيظل ممتنًّا له مدى الحياة. جلسا في مقهى الحي ذاته، ثم صعدا بعدها إلى الشقة التي كانت مأواه لأسابيع، وذلك القوَّاد يقف أمام كشكه ويرمقهما بنظراته الفضولية ذاتها.

استظهرا كل شيء، واستطاع أن يصير في ساعته تلك كتابًا مفتوحًا أمامه. قال لنبيل: «إنه لم يعد هو كمال ذاته الذي سافر إلى فرنسا عدة أيام». تغيَّر من الداخل وحياته كلُّها تغيَّرت، بعدما اكتشف أنه كان ابنًا لأبوين غير حقيقيين، أثمر زواجهما طفلًا لم ينجباه، ثم انتهى نهاية غير معلنة.

لم يكن لقاؤهما أثناء السفر إلى تركيا مصادفة بريئة، فقد سافر نبيل في مهمَّة ليتقصَّى عنه مع آخرين، بشبهة المشاركة في أعمال عنيفة خارج البلاد. كان نبيل يعرف كل شيء

تقريبًا، وتوقَّع أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. عندما ذهب إلى خاله ليصلح بينهما ويجعله يتنازل عن شكواه ضده، وفي ساعة غضب يحيى من كمال، سمع منه قصة ابن أخته الذي لم يكن كذلك فعلًا. اعتقد نبيل في البداية أنها مراوغة، أو تبرير ليسلب حق كمال في البيت كإرث مشترك بينهما، ثم مال إلى تصديق مزاعمه. أمَّا يحيى فتعمَّد أن يكشف له السِّرَّ ليدفع الأمور إلى الحافة.

اعترف نبيل من جهته بمشاكله مع والده هو الآخر، وقصَّ عليه حكاية أخته شريفة ووقائع محنتها. كان يدرك أن نزوات الآباء يدفع ثمنها الأبناء، ويكون عليهم إصلاحها أحيانًا، وقرر أن يزور أخته شريفة وزوجة أبيه السابقة ويرعاهما. لم يكن جبانًا، ومع ذلك سيحتاج إلى قدر زائد من الشجاعة ليواجه أمه الرافضة لذلك الفصل من تاريخ والده. سيطلب منها أن تكفَّ عن أنانيتها، وعن التمثُّل بمن لا يقبلن شريكات. يعلم أنها تغض الطرف عن خيانات والده مع كثيرات، آخرهن أرملة الحسين إسكافي حيهم القديم ببوسعادة، من المؤكد أنها سمعت بتردده عليها، وعمَّا يقال عن زواجه بها بالفاتحة دون عقد رسمي. تفضِّل أمُّه زوجها زانيًا على أن تسمح لأخرى بأن تشاركها بساط الشرعية.

سيقول لوالده بأنَّه جبان، وإنَّ شريفة تحتاج إليه ليعوضها عن تخلِّيه الآثم عنها. العاطفة ليست بالكلام، وندمه الكبير لن يفيدها. أخته كلها لهفة لأب لم تعرفه، وإن

خانها اللسان لتقول إنها تحتاج إليه بعد محنتها الأخيرة، رغم أنها لا تثق فيه لأنَّه سبق وتخلَّى عنها. عاتبته عندما زارها آخر مرة بنظرة طويلة ولاذت بالصمت، وجرحه اتهامها له بأنه يهرب من مسؤوليته تجاهها كما فعل أبوه معها. صارت أضعف بعد ما وقع، وتشعر أنها منبوذة حتى من أهلها، كأنَّها المسؤولة عن كونها ضحية. شجاعة قليلة تكفي لمحو كلِّ تراكمات الخوف، ولن يترك اختيار والديه حتمية تنكِّل بها.

اتصل كمال برابحي علي، مديره السابق في الفندق، الذي حدَّد له موعدًا في بيته، واستقبله ورحب به. كان يشعر بالخجل منه ولجأ إليه مضطرًّا، وخشي أن يقول عنه إنَّه لا يسأل عنه إلا لمصلحة. جلس معه محرجًا، ولحسن حظه وجده مشغولًا. فهم من قلقه ومن مكالماته أنه مرشح لمنصب كبير، وينتظر خبرًا حاسمًا في تلك الليلة، لذا تحدَّث معه بضع دقائق فقط، وحاول أن يكون مقتضبًا، ثم غادر.

كان بحاجة للعمل، وللهروب بعيدًا عن كل ما يربطه بالماضي. هاتفه السيِّد رابحي في الليل، وأخبره بأنَّ عرض العمل، الذي اقترحه عليه مرَّة، في شركة بالجنوب ما زال قائمًا إن كان مهتمًّا. مدير الشركة ضابط متقاعد، من أصدقائه الأوفياء، ولا يرفض له طلبًا.. قال يشرح له.

ثلاثة أيام وكان يركب الطائرة إلى الصحراء، ليكون في أبعد مكان عن العاصمة وعن حياته السابقة. قضى عشرة

أسابيع كاملة، ثم عاد في أول عطلة قصيرة يأخذها، وكان الصيف قد حلَّ، وآلجي البيضاء تحت وطأة الحرارة والرطوبة، وغارقة في السأم. وجد أنه حمل الماضي كلَّه معه، ولم يتخفف من أحماله، لكن الزمن سيكون حليفه وهو يحاول أن يحقق ذلك، أو هذا ما كان يأمله من الأيام.

آسيا أصبحت هي الأخرى من الماضي. وجد هاتفها مقفلًا طوال الوقت، وعندما ذهب إلى الصيدلية علم أنها تخلَّت عن العمل هناك، وتبادلت زميلتاها الابتسامات بشأنه.. إلى أين؟ لا شك إلى صيدلية أخرى أقرب إلى حيث تسكن. لا تعلمان.. قالتا له. كان قد أخبرها بأنه قد ذهب إلى فرنسا وعاد، وأنه وجد أباه أخيرًا، قرأت رسالته ولم ترد عليه.

لم يكن أمله في العثور عليها حقيقيًّا، حاول أن يعتذر لها، بينه وبين نفسه، حتى دون أن تعرف. سوف تعلم يومًا بأنها كانت مهمة بالنسبة له، ليست مجرد لاحقة يمكنه الاستغناء عنها بسهولة. أخفى عنها سفره، وتجاهل الرد على رسائلها لكيلا يضطر للكذب عليها، لا يدري لمَ كان موقنًا بأنها سوف تنتظر أن يظهر من جديد، مهما طال غيابه، وعندما عاد وتحطَّم يقينه، أدرك حجم خسارته بفقدانها.

سأل فطيمة إن كانت آسيا قد هاتفتها لتسأل عنه، ثم حاول دون جدوى للمرَّة الأخيرة، فذهب إلى المرقد عند إسكندر، ليرى إن كانت مرَّت من هناك أم لا. وجد

المرقد مغلقًا، فمشى خطوات ودار خلفه، ثم صعد سلّمًا حديديًّا يفضي إلى مسكن ملاصق له. فتحت له والدة إسكندر الباب الذي بقي مواربًا في وجهه، تبادل معها كلمات قليلة وهما كذلك، لكنها لم تفده بشيء. علم منها أنَّ رفيقته لم تعد للمكان أبدًا منذ آخر مرة. كانت والدة إسكندر حزينة ومتحسِّرة بشكل مثير للتعاطف، وانهمرت دموعها بمجرد سماعها لاسم ابنها وهو يسألها عنه.

سمحت له بالدخول وجلس معها، بدت الصالة كئيبة ومهملة، والمرأة القوية التي كان يعرفها أصبحت متداعية ومحطمة. أخبرته بأن إسكندر أغلق هاتفه واختفى فجأة، ولمَّا فتشت خزانته لم يبدُ لها أنه سافر دون أن يعلمها. سألت عنه كل من يمكن أن يكون له صلة به، وركزت على رفقائه في الفرقة المسرحية، عادة يعرفون عنه كل شيء، وكم من مرة ذهب عند أحدهم غاضبًا منها ووجدته معه. عادت من عندهم خائبة، وانتظرت يومين كاملين ثم بلَّغت الشرطة عن اختفائه.

مرَّت عشرة أيام، دمَّرها فيها الحزن عليه، ولم تعلم عنه شيئًا. تلقت بعد ذلك، في اليوم الحادي عشر من غيابه، مكالمة من مصالح الدرك بإحدى ولايات الغرب، وطُلب منها الحضور. سافرت في حينها ووصلت إليهم على السادسة صباحًا. تمنَّت ألا يكون قد تعرَّض لأي مكروه، أو تورَّط في قضية، وفي النهاية عثرت عليه في مصلحة حفظ الجثث، بمستشفى حكومي لا أحد يبالي فيه بأحد، كتلة زرقاء

مشوهة بلا روح. غرق أحد قوارب الهجرة غير الشرعية على بعد كيلومترات قليلة من الشاطئ، وعلى متنه حرَّاقة بائسون، عددهم يفوق طاقة استيعابه، وكان ابنها من بينهم. كانوا يقصدون سواحل إسبانيا، ولمَّا نشب شجار بين اثنين منهم حلَّت الكارثة.

تلقى عناصر خفر السواحل إشارة من سفينة مرَّت بقربهم، تفيد بوجود جثث تطفو على سطح البحر، ووصلوا متأخرين، وفشلوا في إنقاذ الجميع. نجا البعض منهم، وحاول إسكندر أن يسبح، أو أن يبقى على سطح الماء أطول وقت ممكن، لكن وزنه الزائد لم يساعده على ذلك. أخبروها بأنَّ ابنها قد غرق، فأكدت لهم بأن هناك خطأ ما أو تشابهًا في الأسماء، ولمَّا كشفت عن وجهه صرخت صرخة عالية وأُغمي عليها.

جعلت تهرب من صدمتها، وتلهي قلبها ببعض التطلُّعات المستحيلة. تمنَّت أن تستعيده، وتعتذر له عن فظاظتها معه، وتكون له أمًّا حقيقية. كانت قاسية عليه. أكثر من عناقها والتودُّد إليها في أيامه الأخيرة، لكنَّها لم تفهم إشاراته. كانت حصيلة صندوق المرقد مضبوطة، كما هي دائمًا، ولم تكتشف سرقته لنقودها من خزانتها إلا متأخرة، أخذها كاملة، ودفعها عند عصابات تحترف تهريب البشر. كل ما جمعته من أجله كان ثمنًا لموته.

واساها كمال وقدَّم لها العزاء، ثم خرج لا يدري إلى أين، وفي طريق عودته مرَّ من أمام المسرح الوطني،

ورأى إعلانًا كبيرًا لمسرحية جديدة، حققت نجاحًا لافتًا. حكى له صديقه الراحل يومًا عن فكرتها العامة، ثم دفعه الفضول ليحضر معهم مرَّة تدريباتهم النهائية قبل العرض الرسمي المرتقب. وأخبره يومها بأن عنوانها (المطليُّ بالذهب Plaqué Or) أما العنوان الذي قرأه على الأفيش فكان «الظِّل والصدى». العرض الجديد للمسرحية مرفوع لذكراه القريبة، لكن اسم إسكندر كان مكتوبًا في الأسفل، بخط صغير غير مثير للقراءة. مثله تمامًا، عاش باهت الظل، ومات دون صدى.

عاد للتفكير في آسيا، وكم هو بحاجة إليها. قابلها أول مرَّة وجلس معها لساعتين في مقهى «طانطونفيل». وتذكَّر، عندما سار من أمامه، ابتساماتها ونجلها منه يومها. أراد أن يعتذر لها، ويطلب منها أن تسامحه لأنه لم يبذل أي جهد للاحتفاظ بها، لكن الأوان كان قد فات ليتدارك أي شيء.

كان الانتظار ـ على قول أمها وشقيقاتها ـ يلتهم العمر الخصب، وحدود التطلع أضحت ضيقة. قررت أن تتخلى عن عنادها وتطاوعهم، ووجدت أن تاجر الأدوات الكهربائية ليس بالسوء الذي توقعته. رجل ميسور، ويهتم بها في حدود وقته المتاح. يسافر كثيرًا ويتركها وحيدة، ويقتِّر عليها في الإنفاق، لكن الحياة مستمرة على كل حال.. هكذا ردت على رسالته بعد ثلاثة أسابيع.

صار إشباع الأمومة عندها أكثر من مجرد رغبة يمكن

إسكاتها أو تأجيلها. وافقت عليه دون أن تراه، وأملت أن يبتسم لها الحظ. قد تصنع المصادفة أجمل اللحظات في الحياة، كما قد تتمخض عن أكثرها فظاعة وألمًا، وفي حالتها أيقنت أنَّ الله يرفض التدخل ليسعدها لأن قلبها معلق بغيره. زُفَّت إليه في صمت، مطلقة ويفترض أنها عاشت بهرج العرس من قبل، لذا كانت طقوس الفرح الكامل ترفًا لا تستحقه.

جلست أمها بجانبها في السيارة سعيدة بأن ارتاحت من همها الثقيل، وأختها نوال مطمئنة بواقعية جعلتها ترضخ لضغوطهن عليها. ساد صمت جنائزي جدير بأحلام تُقبر إلى الأبد، تذكرت كمال ولعنته، ثم اعتذرت له في سرها. وفستانها الأبيض لم يكن وحده قادرًا على كسر السواد في عينيها الدامعتين.

ظل قلبها منقبضًا طوال اليوم، ثم اكتشفت أن زوجها قاصر عن أداء حق السرير، كذا قالت نوال لزوجها على لسانها، وقد همست لها في الهاتف بعد ليلتها القاحلة معه بأن ذكره مثل دودة ميتة. لم تتهم زوج أختها بشيء، ومع ذلك سارعت أختها لتبرئته، وما كان لأي كلام أن يكون مجديًا.

بعد أسبوع، قامت في صباح بلا ملامح، وفتحت النافذة لتنظر إلى خواء يملأ كل شيء من حولها. وقف خلفها والتصق بها، لم تتهمه ولم تلمه، لكنها رغبت أن تنتهي حياتها عند تلك اللحظة، إذ لا شيء فيها يغري بالمزيد،

تشبَّعت من كل شيء وأصبحت القيامة أكثر من مبررة. مررت يدها تتحسس مواضع شهوته، تطمع أن توقظ غريزته النائمة، وآملة أن يخرج منه اندفاع مخبوء انتصارًا لرجولته. عادت يداها خائبتين وفقد جسمها فورته. أخبرها بأنه سيسافر إلى دبي من أجل تجارته، لم تعلق أو قالت ما لا تدري، وقبَّلها ومضى سعيدًا، كأنه لم يضعها في هوة دون قرار.

كان كمال قد فقد الأمل في العثور على آسيا ورؤيتها من جديد. أُحبط مما أخبرته به، رغم أنه كان يتوقعه، لم يحدد لها أبدًا موقعًا ثابتًا في حياته، ولم تكن لتنتظره أكثر. اقتنعت في الأخير بأن حبَّه عقيم ويبدد أمنياتها المعتقة. تمنَّى لها أن تنجب الأولاد وشكرته.. كانت تحبُّ أن تخبره، برغم الخجل والكبرياء، لولا أن رسائله إليها انقطعت، بأنها اشتاقت له بزاااف، ثم تقول إذا حدثها مرة أخرى عن الأولاد بأن أقراص الفياغرا لا تصنع فحولة مع إيمانها بأن إرادة الله أقوى من الأسباب، وقد تسمح لنفسها بأن تبكي له قليلًا حظها العاثر، وإن كانت تكره مثله شفقة الآخرين عليها.

تحالف كل من يعرفهم ضدَّه تقريبًا، ضد أن يكون كما شاء قدره الأول قبل أن يُغتال. نادرًا ما يجتمع الناس كلُّهم ضد إنسان واحد أو شيء واحد، لكنَّهم في حالته فعلوا ذلك بأكثر مما كان مطلوبًا منهم، وأصبح هو والحقيقة ضحيَّتين، وصار رجلًا مشتَّتًا لا يعرف حتى نفسه.

كتب لآسيا يخبرها في رسالة تشبه شهادة وفاة أو بيان ولادة أخرى:

«لقد أحببت يا عزيزتي رجلًا آخر لم أختر يومًا أن أكونه، سامحيني.. خذلك من كنت أحمل اسمه وأعيش بدلًا عنه، وحتى مريم خدعت رجلًا آخر. كان عليَّ أن أعيش حياته وأحب وأكره وأتألم نيابة عنه، لكني كنت دائمًا ناقصًا، منشطرًا، ومبتورًا.. اسمًا بلا ملامح، أنا والريح سواء. أنا بذرة ساقطة من زواج بين ضفَّتين، أنبتت هذا المسخ الذي تسبَّب لك في ألم لا تستحقينه».

لم يكشف عن نواياه لأحد، تعلَّم أخيرًا فضيلة الكتمان الذي طوقوا به حياته. رجَّح أن يكونوا قد كذبوا عليه بشأن وفاة أمه المبكر، وأمِل أن تكون على قيد الحياة ليراها ويتكلم معها، ستعتبره أفَّاقًا أو محتالًا، وقد يرشدها قلبها إلى صدقه. عقد العزم أن يبحث عنها، وأن يسافر إليها حتى لو كانت في بيت الشيطان، ولن يضيره بعد ذلك أن يكتفي بالنظر إلى وجهها ومناداتها بأمي فقط.

أخذت أخته نادية مكانها في قلبه، بادلها رسائل كثيرة، وأصبح حضورها جميلًا في وجدانه. اشترط عليها أنه سيعود، ويصفح عن والده، فقط إذا ساعده في العثور عليها. طمع أن يرى أمَّه في أي بقعة من الأرض إن كانت ما زالت على قيد الحياة. أراد أن يعتذر لها، ويعيد رسم تاريخ حياته، ويصحح زيفًا اقترفه والده، ليثري به أرشيف بطولاته. قرَّر أن يحيي قدره الأول، ويمحق كيد

والده القديم، وألا يستمر في حياة تعتريها كذبة بذلك المقاس. يتحلَّل من كل الماضي الذي كان مجبرًا عليه، ويولد على نحو مختلف.

مرَّت أيام بعد ذلك، ثم عاد وتراجع عن التفكير في ذلك الاتجاه. لن يغالب قدره، ساقته حتميته إلى حيث هو، وهو مجبر على التعايش مع وضعه الجديد. صار يخشى أن يتلاعب به سارده مرَّة أخرى، ويتعبه معه بعد أن يجرَّه يمينًا وشمالًا، ثم يجد نفسه يحصد الأوهام.

غلبت محاولات نادية قوة الصَّد الواهنة لديه. قررت أن تنزل إلى الجزائر نهاية الصيف، تريد أن تنقذ شيئًا من ذاتها بمعيته، ولئلا يبقى والدها محل لعنة مزمنة من ابنه وهو بين يدي الموت. أخبرته بأن حالته ساءت مؤخرًا، يقضي الليل يتكلم وحده أو يخاطب من رحلوا عن الدنيا منذ زمن طويل، يستعيد معهم الماضي مبعثرًا، ويبدي ندمًا عارمًا على ما فعله بكمال وبنفسه. أرسلت له صورة لوالدهما في فراشه، متوعكًا إلى أبعد حد، ثم أرادت أن تستثير عاطفته تجاهه أكثر، فوصله منها فيديو قصير يتكلم فيه عبد القادر بن صابر عن ندمه وألمه، ويرجوه أن يسامحه. بدا مريضًا، مع أنَّ لا شيء محددًا يؤلمه، كان يتأهب للرحيل وحسب.

فهم منها أن الوقت يضيق يومًا بعد آخر، وأبوهما يريد أن يموت ويدفن في بلاده، لا أن يعود إليها داخل تابوت محشور في بطن طائرة مع الحقائب وقذارة الحياة. تعاطف

كمال مع أخته نادية أكثر من تجاوبه مع رغبة عبد القادر بن صابر في وفاة سعيدة. كسبت قلبه في صفِّها، يهزمه قلبه دائمًا، رجل رخو.. كان يجدر به الانتقام، لكنه وجد نفسه يقول لها إنَّه سيكون في استقبالها متى ما عادت به إلى هنا ليموت في «البلاد».

لا يدري أين يمكنه إيواؤهما عندما يأتيان، استحوذت أخته على قلبه، وراح يطاوعها بأن يقول نعم دون تفكير. كانت قوة الحب والطلب لديها جبارة، فاستسلم لها تمامًا وهي تؤدي الدور الذي هرب والده من تأديته عندما جاء هو إلى الدنيا، وتركه يعيش يتيمًا وهو حيٌّ.. دور الأب، ودور الأم والأخت. فشلت محاولة انعزاله في الصحراء البعيدة. الماضي ليس في الأمكنة، الماضي قابع بداخله هو، ويمثِّل جزءًا من تكوينه وسوف يرافقه إلى القبر..

ثم ما الذي يجعله مختلفًا عنهم، عن والده خاصة، إذا تخلَّى عن أخته بجرم لم ترتكبه، وهي ترجوه أن يكون في حياتها، ومن أجل ذلك أخبرته بأنها ستأتي إليه؟ لن يكون راضيًا عن نفسه، بكل المروءة وصوت الضمير بداخله، إذا ترك والده يُحتضر دون أن يبالي به، كأنه ذئب دموي نفق في البرية. فكَّر لليالٍ طويلة، لم يشأ أن يكمل حياته وحيدًا، فتيحة صادقي والدته التي ربَّته تُوفيت، ويحيى وفطيمة يصعب معهما إعادة الزمن إلى الخلف، كأنَّ مأساته كانت محض كابوس تخلَّص منه عندما أفاق من نومه. غلبت الرحمة بداخله نزعة الانتقام لديه ولو بعدم

العفو والتجاهل، أو هكذا بدا له وهو يكتب إلى نادية لتؤكد له موعد نزول طائرتهما بالمطار ليكون في استقبالهما.

سوف تأتي مع والدها، الذي لفظته بلادٌ أحبَّها وكان يشبهها أيام مجدها، وفي تقلباتها ونكساتها، وقرر أخيرًا أن يعود ليموت ويدفن فيها. تراب الوطن دافئ حتى على قلب بارد، والبطارية عاجزة عن استبقاء النبض الهارب إلى الأبد. انسكبت دموع كمال وافرة وهو يخبر نادية بأنَّه سوف يسامحه، رغم أنَّ شيئًا بداخله بقي يعاند ذلك.

انزوى بعيدًا، وبكى كل مآسيه دفعة واحدة، أخيرًا عرف الحزن كيف يعصر قلبه على فتيحة بعدما ماتت وبخلت مقلتاه بدمعة واحدة يثبت بها أمام يحيى براءته من برود القلب ونكران الجميل، على أمه التي لم يرها أبدًا، على فطيمة وقد أحبته حد الفجيعة، وعلى والده الذي ظلمه وظلم نفسه. أحس أن دموعه الوفيرة طهرته بعمق. أحكم قبضته على النهايات أخيرًا، وسيكون وحده سيِّد مصيره.. أو هكذا راح يعزي نفسه ليتخفف من الماضي.. كأن ذلك ممكن حقًّا.

- تمَّت -

عين بوسيف

٥ يناير ٢٠٢٣

باب الوادي

«وجد كمال الباب مواربًا ففتحه، وكان الأخير بانتظاره.. وللحظات، وقف مرتبكًا أمامه. لم يكن النور كافيًا ليتبيّن هيئته جيدًا، فجعل يمعن النظر فيه ويتفحّص وجهه، وكاد يمدُّ يده ليلمسه ويتأكد من أنه حقيقي، لكنّ صوتًا من داخله أخبره بأنّه هو. بدا له عليًا برغم عمره الطويل، أحبّ ذلك، لو وجد شيخًا ضعيفًا لكان انتقامه منه سيكون غير أخلاقي. نسي ذلك في أثناء وقوفه، وراح يحثُّ عاطفته أن تخرج؛ كلمات ودموعًا وصراخًا وغضبًا، أو أيّ سلوك آخر، إلا أن يبقى جامدًا ينظر إليه... الشيخ الواقف مثله ساكنًا لا يتحرك هو والده، والتيار الذي يمرُّ منه إليه قويٌ مع أنّه لا يدرك طبيعته.»

سر كبير أخبرته به أمه وهي على سرير الموت، ليبدأ كمال رحلة بحث قاسية بعد أن عاش حياته يطارد والده في الحقيقة وفي الأحلام. بين الجزائر وفرنسا، يحاول كمال تقصي جذوره البعيدة من خلال لقائه مع صديق قديم لوالده لكنه يجد نفسه أمام تساؤلات تكشف عن كثير من الأسرار.

في «باب الوادي»، يرسم الروائي أحمد طيباوي لوحة بانورامية يسفر فيها قصة حياة بطله ورحلة بحثه عن هُويّته مع تطور الجزائر ورحلة البلاد في بحثها عن ذاتها.

عبر لغة عذبة لا تخلو من حساسية شعرية، يقدم الروائي -الحاصل على جائزة نجيب محفوظ للأدب- تشريحًا فريدًا يطرح هموم جيل جديد ورث صراعات الماضي، ويرسم صورة بطل ممزق يسعى لتجاوز حياة مزيفة؛ باحثًا عن ولادة أخرى.

أحمد طيباوي: روائي جزائري وأستاذ محاضر في إدارة الأعمال، صدرت له أربع روايات: اختفاء السيد لا أحد (جائزة نجيب محفوظ للأدب من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ٢٠٢١)، موت ناعم (جائزة الطيب صالح للإبداع الكتابي بالسودان ٢٠١٤)، مذكرات من وطن آخر، المقام العالي (جائزة رئيس الجمهورية للمبدعين الشباب ٢٠١١ بالجزائر)، ومجموعة قصصية «وجه على الحائط».

دار الشروق
www.shorouk.com

ضفائر
t.me/twinkling4